خورخي إيبارغوينغويتيا
ترجمة: صالح علماني

خورخي إيبارغوينغويتيا
ترجمة: صالح علماني

الميتات

خورخي إيبارغوينغويتيا

ترجمة
صالح علماني

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

Las muertas
~~First published in 1989 by Faber and Faber Limited.~~
Text Copyright © Jorge Ibargüengoitia, 1989

حقوق الترجمة © صالح علماني، ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

جميع الحقوق محفوظة.
لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة بدون الحصول
على الموافقة الخطية من الناشر باستثناء في حالة الاقتباسات المختصرة التي تتجسد
في الدراسات النقدية أو المراجعات.

الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٢٠٩

مكتبة قطر الوطنية بيانات الفهرسة– أثناء– النشر (فان)

إيبارغوينغويتيا، خورخي، 1928 -1983- مؤلف.

[Muertas]. Arabic

الميتات / تأليف خورخي إيبارغوينغويتيا ؛ ترجمة صالح علماني. – الطبعة العربية الأولى.- الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
،

.2018

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-129-57-54

ترجمة كتاب: .Las Muertas

1. المرأة -- جرائم ضد -- قصص. 2. القصص المكسيكية -- مترجمات إلى العربية. ب. علماني ، صالح ، مترجم. ج. العنوان.

PQ7298.19.B3 I2 2018

863.64– dc23

201827085491

بعض الأحداث التي تُروى هنا حقيقية.
الشخصيات جميعها متخيلة.

١
الانتقامان

1

بالإمكان تخيلهم: الأربعة يضعون نظارات سوداء، إسكاليرا يقود السيارة منحنيًا فوق المقود، إلى جانبه يجلس الشجاع نيكولاس، يقرأ في رواية «إسلاس ماریاس»، وفي المقعد الخلفي، المرأة تتطلع من النافذة بينما النقيب بيدويّا يتناوم برأس متهدل.

السيارة ذات اللون الأزرق الكوبالتي تصعد سفح جبل الكلب منهكة. إنه صباح مُشمس من كانون الثاني/يناير. لا تُرى سحابة واحدة. دخان البيوت يطفو فوق السهب. الطريق طويل، مستقيم في البدء، ولكنه بعد تجاوز السفح الصاعد يتلوى عبر جبل غويماس، بين الغيوم.

يوقف إسكاليرا السيارةَ في سان آندريس، ينتبه إلى أن الثلاثة الآخرين قد ناموا، يوقظ السيدة المعلمة كي تدفع ثمن البنزين، ثم يدخل إلى النُزل. يتناول فطورًا من قطع لحم مقلية مع صلصة وفاصولياء وبيضة. وبينما هو يتناول فنجان القهوة الثاني يدخل الثلاثة الآخرون إلى النُزل وهم يغالبون النعاس. ينظر إليهم بإشفاق: فما هو بداية النهار بالنسبة إليه يشكل نهاية سهرة قصف للآخرين. يجلسون. النقيب يتصرف بحذر، يسأل نادلة المحل:

- أخبريني، ماذا لديكم من لذائذ شهية؟

ينهض إسكاليرا، يخرج إلى الشارع ويقوم بجولة في الساحة وهو يضع يديه في جيبيه. يمشي بخطوات طويلة وبطيئة جدًّا، بينما يبرز من فمه عود تنظيف أسنان. يُحكم أزرار سترته لأن ريحًا جليدية تهب على الرغم من الشمس المشرقة. يتوقف لرؤية صبيةٍ يرمون قطع عملة صغيرة باتجاه جدار في لعبة حجلة مختلفة عن تلك التي يعرفها. يواصل جولته مفكرًا في ما إذا كان أهالي ميسكالا أشد فظاظة من أهالي بلان دي آباخو. يتوقف هنيهة أخرى ليقرأ لوحة الإعلان الموجودة على نصب **الأطفال الأبطال** - «المجد لمن ماتوا في سبيل الوطن...» - ويرى رُكَّاب سيارته الثلاثة يخرجون من النُزل - إنهم «الحُمولة» حسب لغة سائقي سيارات الأجرة: النقيب والشجاع بملابس مدنية تحتفظ بأثر من الزي العسكري، مثل قميص أخضر زيتوني يرتديه الثاني، وجزمة الخيالة التي ينتعلها الأول، ومعهما سيرافينا، ترتدي ثوبًا أسود مجعدًا، يكشف عن ساقها السمراء ويُظهر إبطها وهي تصعد إلى السيارة. ما إن استقر الثلاثة في أمكنتهم، حتى ضغطوا على نفير السيارة كي يأتي السائق ليقودها بهم.

يواصلون طريقهم الذي يمر من أمكنة مشهورة: عبر آكيسغران العليا - «سيادة الرئيس، لقد سرقوا منا الماء»، هذا ما يقوله إعلان عند المدخل - حيث تشهتْ سيرافينا تناول شرابٍ مرطب؛ وعبر خراباتو حيث توقف إسكاليرا كي يلقي بيزو في صندوق تبرعات كنيسة تُبنى بصدقات يقدمها السائقون، وعبر آخيليس حيث اشتروا أجبانًا؛ ولدى مرورهم قبالة جبل كاساهواتي، طلب النقيب إيقاف السيارة كي ينزل للتبول - «لتَرْكِ توقيع»، كما قال - وفي

سان خوان دِل كامينو، حيث لديهم كنيسة لعذراء معجزات، توقفوا للراحة.

دخلت سيرافينا إلى المعبد (عُرف فيما بعد أنها أشعلت شمعة، وطلبتْ من العذراء، وهي جاثية، أن تمنحها حظًّا طيبًا في المهمة؛ وفي إيماءة شكر مسبقة، غرستْ في المخمل الأحمر تميمةً فضية لها شكل قلب، كما لو أن السيدة العذراء قد استجابت ومنحتها ما طلبته فعلًا). في أثناء ذلك كان الرجال الثلاثة يجلسون إلى منضدة في محل المثلجات، ويطلبون أقراص حلوى مانتيكادو، يناقشون ويقررون ما ينوون عمله بكل سهولة في وضح النهار. وعندما انضمت إليهم سيرافينا، بعد خروجها من المعبد، لم توافقهم الرأي، وأمرت بأن يتم إنجاز المهمة في الليل.

هذا يعني أن عليهم أن يضيّعوا ثلاث ساعات، يقضونها في النوم تحت شجرة تَبُّوتي عند مخرج قرية خالثينغو. راحت الشمس تختفي حين بدأت كلاب سالتو دي لا توكسبانا بالنباح.

هذه قرية فسيحة وقاتمة، شوارعها ترابية معفرة، مع مصباح إنارة كهربائي كل مئتي متر. مشهورة بأن في كل بيت من بيوتها بستان أشجار جوافة، لكن الأبواب كانت مغلقة، والأطفال يلعبون في الشوارع.

يُوقف إسكاليرا السيارة عند ناصية، حيث يوجد مصباح إنارة. هنالك أشخاص يأكلون حساء بوسولي (حساء ذرة مع لحم الدجاج). يترجل نيكولاس الشجاع، يقترب من الجماعة التي تواصل النظر إليه، ويتكلم إلى بائعة البوسولي:

- عذرًا لتطفلي. أين أجد مخبزًا هنا؟

ترد عليه بأنه يوجد ثلاثة مخابز في تلك القرية، وتقدم له المعلومات عن أمكنتها. يمضون في السيارة من جانب إلى آخر في القرية ومن مخبز إلى مخبز دون أن يعثروا على ما يبحثون عنه إلا في المخبز الثالث.

- يبدو أنه هذا - يقول الشجاع، وكان قد نزل ثلاث مرات واشترى ثلاثة أكياس معجنات مُحلاة من المخابز الثلاثة.

الجميع يترجلون. يتوجه الرجال الثلاثة نحو صندوق السيارة الخلفي، بينما تمضي سيرافينا باتجاه المخبز. إنه بناء متواضع، حيث البابان الوحيدان المفتوحان في ذلك الشارع. تقترب بحذر، محاولة أن تكون غير مرئية، تنظر سيرافينا إلى الداخل وترى، وراء منضدة الكونتوار، رجلًا جالسًا وامرأة تُجري حسابات. ترجع إلى السيارة. يقوم إسكاليرا بكثير من الهدوء، وباستخدام أنبوب مطاطي، بشفط بنزين من خزان السيارة ليملأ علبة معدنية. في أثناء ذلك كان النقيب والشجاع قد أخرجا من صندوق السيارة بندقيتين آليتين وقاما بتركيب مخزني الذخيرة فيهما، ثم حركا مغلاقيهما - أحدثا ضجة كبيرة - كي يتأكدا من أن البندقيتين تعملان. أعطى النقيب المسدس لسيرافينا.

ما حدث بعد ذلك مشوش. يتوقف الشجاع عند عتبة أحد البابين وسيرافينا عند الباب الآخر. وهي من تقول للرجل الذي وراء منضدة الكونتوار:

- ألم تعد تتذكرني يا سيمون كورونا؟ خذ، كي تتذكر.

وتطلق النار نحو الأعلى. عندما أنهت إطلاق صلية الرصاص كان الرجل

والمرأة قد صارا مختبئين تحت منضدة الكونتوار. يُطلق الشجاع رشة رصاص داخل المخبز. ثم يقول للنقيب الذي بجانبه:

- أطلق النار أنت يا سيادة النقيب.

- لا. أنا هنا للتغطية فقط - يقول النقيب بينما هو يصوب سلاحه باتجاه الرصيف الآخر، تحسبًا من التعرض لهجوم من الخلف.

الجزء الأخير من الخطة ينفذه الشجاع. ويتلخص في الدخول إلى المخبز، ورش البنزين على الأرض، والخروج، ثم إشعال عود ثقاب ورميه على الأرض المضمخة بالبنزين.

يشتعل البنزين مع صوت انفجار مدوٍ، اللهب يخرج من الأبواب. سيرافينا التي تمشي متوجهة نحو السيارة، تُبعد بعض النسوة اللاتي يقتربن لشراء الخبز ويتأملن الحريق بافتتان، قائله لهن:

- ابتعدن! ما الذي تقتربين لرؤيته؟ هذه مسألة لا تهمكنّ!

عندما يصبح الأربعة بمحاذاة السيارة. يقوم إسكاليرا، من أجل الدوران، بمناولة أكثر تعقيدًا من المعهود، بعد ذلك يزيد السرعة ويندفع بالسيارة عبر شوارع القرية على غير هدى للحظات، قبل أن يجد المخرج ويبتعد أخيرًا عن سالتو ديلا توكسبانا بالطريقة نفسها التي دخل بها، وسط نباح كلاب.

2

قُدرت الأضرار التي أحدثها الحريق بثلاثة آلاف وخمسمئة بيزو. ووجدت الشرطة على الأرض أغلفة ثمان وأربعين رصاصة من أعيرة نظامية. الرصاصات جميعها اصطدمت بالجدار. واحدة منها مرّت مُلامِسَةً كتف الآنسة إوفيميا ألداكو وذراعها الأيسر، وقد كانت داخل المخبز، وتسببت لها بخدوش بسيطة. الخباز سيمون كورونا وموظفته الآنسة ألداكو، وهما الشخصان الوحيدان اللذان كانا في المخبز عند حدوث الحريق، أصيبا بحروق لا تعرّض حياتيهما للخطر.

وصل وكيل النيابة العامة في الساعة الثامنة والنصف إلى مركز الإسعاف، حيث كان يجري علاج الضحيتين، وسأل الطبيب عما إذا كانا في وضع يسمح لهما بتقديم إفادة، فكان ردّ الطبيب بأنهم قد أعطوا المرأة مُسكِّنات، أما الرجل فبكامل وعيه. دخل الوكيل إلى الحجرة حيث كان سيمون كورونا مُضمدًا ومستلقيًا على السرير، ووجَّه إليه الأسئلة.

كيف جرى الحادث؟

جواب: قال إنه كان جالسًا وراء منضدة الكونتوار بانتظار أن تنهي الآنسة ألكادو حسابات ما باعوه هذا اليوم عندما سمع صوتًا يقول له: «ألم تعد تتذكرني...؟»، إلخ.

هل تشك بشخص أو أشخاص كانوا وراء الهجوم؟

جواب: ليست شكوكًا، بل لديه يقين، لأنه رآها أمامه والمسدس في يدها، فالمسؤولة عن الهجوم هي السيدة سيرافينا بالادرو، عنوان إقامتها - وهنا

يدخل عنوان في مدينة بيدرونيس، ولاية بلان دي آباخو -.
وماذا يمكن أن يكون السبب في أن السيدة المذكورة إلخ؟
جواب: يشعر سيمون بالخجل من الاعتراف بذلك، لأنه في الماضي عاش لفترات متعددة مع السيدة بالادرو - «في بعض الأحيان كنا معًا وفي أحيان أخرى كنا ننفصل أحدنا عن الآخر، لأنها ذات طبع صعب جدًّا» ـ، إلى أن هجرها نهائيًّا خلال رحلة قاما بها معًا إلى آكابولكو، لأنه أدرك آنذاك أنها ليست جديرة بحبه. ذلك الهجران استثار فيها ضغينة شديدة جعلتها تبحث عنه ثلاث سنوات إلى أن وجدته.
وعما إذا كان يعرف من كان المشاركون الآخرون في الهجوم؟
جواب: لا، ولكنه يستطيع وصف أحدهم لأنه رآه عن قرب عندما باعه بعض البسكويت قبل لحظات من الحادث - «لم يكن طويلًا ولا قصيرًا، ليس شابًّا ولكنه ليس عجوزًا أيضًا» ـ.
وعما إذا كانت لديه فكرة عن الطريقة التي يمكن أن يكون المهاجمون قد حصلوا بها على البندقية النظامية والمسدس عيار ٤٥؟
جواب: لا يدري، ولكن أتيحت له الفرصة للتأكد، حين كانا يعيشان معًا، من أن علاقات سيرافينا بالادرو كانت جيدة مع رجال الشرطة الفيدراليين على الدوام.
بعد أخذ الأقوال وكتابة التقرير وتوقيعه، قام وكيل النيابة العامة بالإجراء المعهود، والمتمثل في تقديم تقرير لرؤسائه، والإشارة إلى المسؤولة الظنية، والطلب من النائب العام لولاية ميسكالا أن يطلب من سعادة النائب العام لولاية بلان دي آباخو أن يطلب من وكيل النيابة العامة لميدرونيس أن يطلب من قائد شرطة القرية المذكورة أن يحيط السيدة سيرافينا بالادرو علمًا كي تردَّ على التهم الموجهة إليها.
مضى خمسة عشر يومًا، وبدأ سكان سالتو دي لاتوكسبانا ينسون واقعة إطلاق الرصاص، عندما تلقى وكيل النيابة البرقية التالية:
«تفحصتُ مجددًا الأقوال التي أدلى بها المُصرح، وتحريتُ إذا ما كان قد نفَّذ برفقة سيرافينا بالادرو، في العام ١٩٦٠، عملية دفن سرية».
في المقابلة الثانية مع وكيل النائب العام، أراد سيمون، قبل أن يصرح بأقواله، أن يوضحوا له عدة أمور: إذا كان إجباريا أو اختياريا تقديم المعلومات التي يطلبونها منه - «هل أنت هنا بمشيئتك أم مكره على ذلك؟»، «برغبتي»، «إنه أمر اختياري إذًا» - وعما إذا كانت سيرافينا بالادرو قد أحيطت علمًا - «وهنا يقول له إنها متهمة، بعد ذلك إنها سجينة أو على وشك الوقوع» ـ، وعما إذا كان الحكم الذي سيصدر عليها سيكون أطول، وإذا ما كان يرد بالإيجاب على السؤال الذي يوجهه إليه - قال: «الاحتمال الأكبر أنه بلى».
وراضيًا عن هذه الإجابات يروي سيمون كورونا لوكيل النيابة العامة قضية إرنيستينا، أو هيلدا أو إيلينا. قرأ الوكيل التقرير الذي كتبه، ولم يُبد من أدلى به أية معارضة لمضمونه، ووقع في الأسفل موافقًا.
هذا التوقيع كلفه ست سنوات سجن.

٢
قضية إرنيستينا أو هيلدا أو إيلينا

1

خلال احتجازه في السجن، روى سيمون كورونا قضية إرنيستينا أو هيلدا أو إيلينا بالطريقة التالية:

رأيتها تأتي ماشية بين أشجار طريق الحور ولم أشأ تصديق ذلك. تلك المرأة التي ترتدي السواد وتحمل في يدها حقيبة جلد اصطناعي، لا يمكن لها أن تكون سيرافينا. إنها تشبهها وتلبس مثلها ولكن لا يمكن لها أن تكون هي. لقد أحسستُ، على أي حال، بركبتيَّ ترتجفان. وفكرتُ: أأكون مازلتُ أحبها؟

كنتُ أقف خارج كشك المثلجات أنتظر أن تدق الساعة معلنة الثانية عشرة كي ألتقي بسيد من مكتب المالية، يجب أن أتكلم معه كي يتساهل معي ببعض الضرائب. كانت المرأة تواصل مشيها بين الأشجار وكلما اقتربت مني أكثر بدت أشد شبهًا بسيرافينا. لا يمكن أن تكون هي نفسها، عدت إلى التفكير كي أطمئن نفسي: إنها تعيش في قرية أخرى، وليس لديها ما يدفعها للمجيء إلى باخاريس. كانت تواصل المشي والتقدم، معتقدة، كما قالت لي فيما بعد، أنه لا يمكن للرجل الذي يقف خارج كشك المثلجات أن يكون أنا. عندما توصلتُ إلى رؤية وجنتيها البارزتين، وعينيها السوداوين المشقوقتين والشعر المشدود كان الوقت قد فات. إنها سيرافينا وقد حاصرتني.

توجهتْ مباشرة إلى حيث أقف، فتحت فمها كمن ستبدأ بالابتسام - توصلتُ إلى رؤية سنها المكسورة - ووجهتْ إليَّ الصفعة.

لم أتحرك. استدارت هي وبدأت تبتعد. تلفَّتُ حولي لأرى من شهد إهانتي، ولم أر أحدًا سوى بائع المثلجات الذي حرف نظره وتصنع أنه كان مشغولًا جدًّا بوضع الملعقة في علبة المثلجات. لو أنه ضحك في تلك اللحظة لحطمت أنفه، ولكنه لم يضحك، ولم يبق أمامي عندئذ من مخرج سوى الانصراف ماشيًا في طريق معاكس للذي اتخذته سيرافينا.

لقد حدث لي الشيء نفسه الذي حدث في مرات أخرى سابقة: هي من تمارس الفظاظات معي وأنا من يشعر بالندم. نسيتُ الصفعة التي وجهتها إليّ، مثلما نسيتُ من قبل أشياء أخرى حدثت منذ سنتين، مثل العلاقة التي أقامتها مع وكيل النيابة، وفردة الجوارب التي وجدتها أنا نفسي تحت السرير. لم يبق في ذهني سوى فكرة واحدة وحيدة: لا يمكنني العيش بلا سيرافينا، لقد هجرتُها وليس هناك ما يهمني في هذه الدنيا أكثر من أن تصفح عني.

رحت أمشي عبر شوارع الأشجار في تلك القرية، تحت أشعة الشمس ووسط الذباب، لأننا كنا في شهر حزيران/يونيو، وكنت أقول لنفسي: «مازالتْ تحبك، والدليل أنها صفعتك».

ندمتُ لأني حين عرفت أنها هي، لم أجثُ طالبًا منها الصفح لهجري لها. «أريد الرجوع»، هذا ما أردتُ قوله لها. وبدلًا من ذلك ظللتُ واقفًا، دون أن أقول شيئًا عندما اقتربت مني، ودون أن أتبعها عندما ذهبت. كنت أظن أنني قد فقدتها إلى الأبد، وكنتُ أشعر باليأس.

كنتُ مشغولًا بهذه الأفكار حين وصلتُ إلى أحد تقاطعات الشوارع. التفتُّ لأرى إن كانت هنالك سيارة أجرة آتية، فرأيتها هي نفسها قادمة. كانت على مسافة أكثر من كوادرا وتمشي ببطء، كشخص ليس لديه أي شيء يعمله ويمضي مبددًا الوقت. كانت سيرافينا آنذاك في الثامنة والثلاثين، ولكنها بدت لي فتاة صغيرة عند رؤيتها من بعيد. أطلتْ بعذوبة، اجتازتْ الشارع، اصطدمتْ بشخص يمضي حاملًا حزمة، وعندما كنت على وشك اتخاذ القرار بأنه من الأفضل لي أن أتابع طريقي قبل أن تراني،... رأتني.

ومرة أخرى لم أفعل شيئًا، ظللتُ واقفًا هناك إلى أن وصلتْ إلى حيث أقف.

- ما الذي تفعله هنا في باخاريس؟ - سألتني.

قلت لها الحقيقة، بأنني جئت للقاء سيد من أجل أن يتساهل معي ببعض الضرائب.

- وأنا أيضًا آتية من أجل الأمر نفسه - قالت لي.

بدا كما لو أن لقاءنا في ذلك الشارع الغريب، وفي تلك القرية الغريبة، وفي تلك الساعة، هو أحد أشد الأمور الطبيعية في الدنيا. كما لو أننا لم ننفصل أحدنا عن الآخر قبل سنتين بمشاجرة، كما لو أننا لم نلتقِ قبل عشرين دقيقة بصفعة. لقد كانت علاقتنا هكذا على الدوام. ولم أدر قطّ مبرر ارتباطي بها.

رأيت في ساعتي أن الوقت قد تجاوز الثانية عشرة. وكنت على وشك أن أقترح عليها أن نذهب معًا للقاء السيد الذي سيعفينا من بعض الضرائب، عندما بادرت هي إلى القول لي:

- خذني إلى فندق.

كانت شفتاها مطليتين بلون غريب جدًّا، كأنه بنفسجي.

ظللنا في فندق الكوميرثيو حتى الساعة الثامنة ليلًا، خرجنا من هناك جائعين وذهبنا لتناول العشاء في مطعم بمنطقة الرواق المقنطر. كانت سيرافينا متعجلة للرجوع إلى بيدرونيس، أما أنا فلابد أن المرأة التي كنت أعيش معها آنذاك تنتظرني قلقة في سالتو ديلا توكسبانا. ولكننا بعد الانتهاء من تناول العشاء، رجعنا إلى فندق الكوميرثيو وظللنا هناك حتى اليوم التالي.

لو أنني ذهبت بعد الاستيقاظ إلى بيتي، لكان ذلك اللقاء مع سيرافينا واحدًا من أمور كثيرة حدثت في الحياة ولا أكاد أتذكرها، وليس لدي أي مسوغ للاهتمام بسردها. لكنني لم أذهب إلى بيتي. وعندما فتحت عينيّ تذكرتُ المرأة التي كنت أعيش معها في ذلك الحين، وتخيلتها مغمومة جدًّا، تظن أنني ملقى على قارعة الطريق العام، تغطيني الدماء، فتضاءلت رغبتي في رؤيتها. ارتديتُ القميص، أطللتُ من النافذة ورأيت أشجار الغار في الساحة وطيور السمان تغرد. نظرتُ بعد ذلك إلى السرير ورأيت سيرافينا نائمة فراودتني رغبة في إيقاظها.

انتظرت إلى أن استحمّتْ وارتدت ثيابها، وبينما هي جالسة قبالة المرآة تصنع جديلتها، رأيت أن انعكاس صورتها مختلف جدًّا عن وجهها، وهو أمر كنت قد لاحظته قبلًا. فتذكرتُ أزمنة أفضل، وشعرتُ بانفعال كبير وقلت لها:

- سآخذكِ إلى بيدرونيس.

ولكنها لن تذهب إلى بيدرونيس. تعجلها في الذهاب إلى هناك كان قد انقضى. سوف تذهب إلى سان بيدرو دي لوس كورينتيس، حيث كانت مدعوة لتناول الطعام مع أختها آركانخيلا. ولأنني لا أريد الابتعاد عنها، قلت لها:

- سآخذك إذًا إلى سان بيدرو.

سيارتي، وهي فورد ٥٥، كانت في ورشة ميكانيكي على أطراف باخاريس. لو أن الميكانيكي خرج عند وصولنا إلى الباب ليقول لي، مثلما يحدث أحيانًا، «السيارة ليست جاهزة لأننا لم نحصل على القطعة التي تحتاج إليها»، لكنت رافقتُ، في هذه الحالة، سيرافينا حتى محطة الحافلات كي تذهب إلى أختها، ولكنا تبادلنا الوداع هناك ولكانت حياتي قد اتخذت مسارًا آخر. ولكنني وجدت أن السيارة قد أُصلحت، وقد انطلقتُ بها فورًا وهأنذا هنا، أمامي قضاء ست سنوات حُكمٍ صدر عليَّ بالسجن.

من أجل الذهاب من باخاريس إلى سان بيدرو دي لوس كورينتيس لا بد من الخروج عبر طريق صاعد حيث لا يمكن للمرء، مهما كان بصره جيدا، أن يرى شيئًا سوى حجارة، ولكن ما إن نصل إلى أعلى المرتفع حتى يتبدل المشهد: إلى اليسار يظهر وادي غواردالوبوس، أحد أكثر الأودية خصوبة في ولاية بلان دي آباخو؛ لا وجود فيه لأي بقعة من الأرض بلا زرع، فحيث لا يوجد برسيم هنالك فريز، وإن لم يكن حقل ذرة فلأنه حقل قمح. وحتى الأشجار التي تنمو في السواقي ملتفة ووارفة الظلال. كان هذا الوادي يروق لي على الدوام، لكن إعجابي به كان أكبر في ذلك الصباح، لأنني كنت سعيدًا بوجود سيرافينا إلى جانبي، هادئة جدًّا ويدها فوق ساقي. أحسستُ أنها لا تشعر بالقلق وسألتها:

- ألا تشعرين أن القلب يزداد اتساعًا لدى رؤية هذا المشهد؟

ولكن بينما كنتُ أنظر إلى اليسار وأرى الوادي، كانت هي تنظر إلى اليمين وترى سلسلة جبال غويميس. ولهذا فهمتْ أن ما يوسِّع صدري هو مرأى تمثال **يسوع الملك**، المنتصب على قمة التل الأكثر ارتفاعًا، ينظر جهة الغروب. الناس يقولون إنه يبدو كمن يريد معانقة ولاية ميسكالا. رفعتْ سيرافينا يدها التي كانت على ساقي وقالت:

- أنت تميل إلى تفضيل موطنك على الدوام.

هكذا كان تعاملي معها دومًا. أقول لها عبارة لطيفة فترد بعبارة حمارية. لم أتضايق لأني أعرف جيدًا ما الذي تطالبني به. ففي كل مرة أهجرها، كنتُ أذهب إلى سالتو دي توكسبانا، في قلب ولاية ميسكالا. ولهذا كانت تمقت تلك المنطقة ولا يمكنني التلفظ باسمها أمامها، ولا حتى مجرد القول إن ثمار الجوافة هناك أشهى مذاقًا. وفي ذلك الصباح، شعرتْ بالحزن كما لو أنني قد ذكرت اسم «سالتو دي لا توكسبانا»، وقالت لي:

- أنت تظن أنني غير جديرة بك لأني أدير ماخورًا.

ففقدت صبري وقلت لها:

- لم أهجرك لأنك تديرين ماخورًا، ولم أكن أنظر إلى تمثال يسوع الملك، وإنما إلى الجانب الآخر. ولماذا تطالبينني بأمور لا علاج لها إذا كنتِ تعرفين

أن الشيء الوحيد الذي ستتوصلين إليه هو إفساد هذا اليوم الجميل؟
لا أدري أي وتر أصبتُ فيها. فقد أعادت وضع يدها فوق ساقي ولم تقل أي شيء آخر.
كان من الأفضل لو أنني أنزلتها من السيارة حين تلفظت بعبارتها السفيهة. ولكنا كلينا أكثر سعادة بذلك.
اشترينا ثمار أفوكاتو في هوانتلا وجلسنا نأكلها على الحجارة تحت شجرة آكاسيا وارفة. كل شيء كان هادئًا. لم يكن يُسمع سوى هديل الحمائم. ونستطيع من المكان الذي كنا فيه أن نرى الأرض السوداء، حيث سدّ خزان المياه، وثيران الحراثة تفلح الأرض. رؤية كل ذلك السلام جعلتنا ننسى شجاراتنا، بل إننا نسينا أن سبب مجيئنا إلى باخاريس كان لترتيب صفقة، ولكننا لم نرتبِ أي شيء. قالت سيرافينا «لو أن الحياة تكون على هذا النحو دومًا»، أو شيئًا من هذا القبيل.
قبل أن نرجع إلى السيارة دخلنا إلى أطلال مصنع الغزل والنسيج بدافع الفضول. وهناك، ما بين عنابر خاوية سقوفها منهارة، أرادت سيرافينا أن أعود للنوم معها فعدت. بعد ذلك واصلنا الرحلة ووصلنا إلى سان بيدرو دي لاس كوريينتس في الساعة الثانية بعد الظهر.
كانت سيرافينا قد دعتني لتناول الطعام في بيت أختها، ولكنني، بكل صراحة، لم أكن أرغب في المواجهة مع آركانخيلا. فأنا أعرف أن مودتها نحوي لم تكن كبيرة قطّ، ويخيل إليّ أنها منذ أن هجرتُ أختها في العام ٥٨ صارت تلك المودّة أقل بكثير. ولهذا قررتُ ألا تنتهي تلك المغامرة عند باب ماخور «**مكسيكو ليندو**».
- سأودعك في السيارة - قلتُ لسيرافينا -، وليباركك الرب.
ولكن لدى القدر قصة مكتوبة أخرى. فعند الالتفاف بالسيارة للدخول عبر شارع ألليندي، كان أول ما رأيته هو آركانخيلا واقفة على المقعد. ويبدو أنها في حِداد. فهي ملتفة بعباءة سابغة على الرغم من شدة الحر، وهنالك فتاتان على جانبيها، وثلاثتهن ينظرن إلى الجهة التي جئت منها كما لو أنهن كنّ ينتظرن.
لم يبق لي مفر من عمل كل ما لا أريده: إيقاف السيارة، وإطفاء المحرك، ونزولي لمصافحتها. حين رأتني أفتح باب السيارة صوبت إلى نظرة بعينيها اللتين كعيني خنزير، كمن تقول «لم يكن ينقصنا إلا هذا». ولكن ذلك لم يدم إلا قليلًا، إذ فتحت ذراعيها وقالت لي بحنان:
- يا للبهجة برؤيتك يا سيمون!
بعد ذلك عانقتني، بل إنها قبلتني كذلك. كان لا بد لي من الشعور بعدم الثقة عندئذ، لكنني لم أفعل على الرغم من أنني انتبهت إلى أن ما أبدته آركانخيلا من ابتهاج برؤيتي كان مفاجئًا لي ولسيرافينا على حدّ سواء. قلتُ إنني جئت في مرور عابر وحسب، ولكن قولي ذلك لم ينفع بأي حال. كانت الساعة الثانية والنصف، وكان الطعام ساخنًا وسيدة البيت سعيدة برؤيتي من جديد. أصرتْ على أن أُدخل السيارة إلى البيت؛ من البوابة الصغيرة التي

بجانب الكباريه.
- لن تتعرض هكذا لخطر أن يُلحق بها الصبية الخبثاء أي ضرر.
وبينما أقوم بالمناورة، انهمكت هي في الحديث مع سيرافينا عن أمور تبدو جدية جدًّا. حين ترجلتُ من السيارة، لاحظتُ أمرًا غريبًا في مثل هذا الوقت، ذلك أن معظم النساء كنّ في الممر، يستندن إلى حاجز الشرفة، يتبادلن الحديث فيما بينهن أو ينظرن.
عندما دخلنا إلى غرفة الطعام، أمسكت دونيا آركانخيلا بذراعي وقالت لي:
- أرغب في عودتك، لأن الرجال الذين عرفتهم أختي منذ مغادرتك كانوا كارثة.
أردتُ أن أوضح لها أنني لستُ في وارد الرجوع، وأنني آت كعابر طريق فقط، لكنها لم تسمح لي بالكلام. أجلستني على كرسي، وضعتْ أمامي قارورة تيكيلا من نوع خاص جدًّا، على حدّ قولها، وطلبت من الشابين اللذين يمضيان معها أن يُحضرا لي ليمونًا وملحًا ثم خرجتْ بعد ذلك من غرفة الطعام ومعها سيرافينا.
خرجتْ الأختان بالادرو من باب، وخرجتْ الفتيات من الباب الآخر، وظللتُ وحيدًا قرابة ساعة كاملة في قاعة الطعام، جالسًا على ذلك الكرسي، قبالة قنينة الشراب التي رحتُ أتناول منها رشفة بين هنيهة وأخرى، لأن أحدًا لم يأتني بكأس. عندما فُتح الباب أخيرًا ودخلت آركانخيلا وسيرافينا، نهضتُ وقلت لهما:
- سوف أذهب، لأنني إذا أردت البقاء وحيدًا وجائعًا فمن الأفضل أن أفعل ذلك في سيارتي.
- سيمون - قالت لي سيرافينا عندئذ -، لدى أختي مشكلة كبيرة جدًّا.
شرحتْ لي أن واحدة من النساء اللاتي يعملن في «**مكسيكو ليندو**»، اسمها إرنيستينا، أو هيلدا أو إيلينا، قد ماتت في الليلة الفائتة ولا يدرين ماذا يفعلن بالجثة.
- اسهروا على جثمانها ثم احملوها إلى المقبرة - قلتُ ناصحًا.
فقالت لي آركانخيلا إن المتوفاة قد ماتت في حدث دموي ولا يمكن دفنها في مقبرة بلا تدخل النيابة العامة.
- وهذا ما لن أسمح به - انتهتْ إلى القول - لأنه يضر بي.
لم يبق من مخرج إذًا إلا نقل الجثة عبر طريق ميسكالا وإلقاؤها حيث لا يمكن لأحد أن يراها. وهناك يبدأ القسم الثاني من المشكلة: فهما لا تجدان إسكاليرا، وهو السائق الوحيد الموثوق الذي تعرفه الأختان بالادرو.
- لهذا السبب أنا في كرب شديد - قالت آركانخيلا وهي تمسح الدموع التي بدا أنها تتدفق من عينيها.
فما كان مني إلا أن أجبتها:
- لا تقلقي يا آركانخيلا، أنا سأنقل الميتة في سيارتي وأضعها حيث تشيرين لي. عندما أنهيتُ نطق العبارة شعرتُ بالندم، ولكن كان الوقت قد فات. الحقيقة أن الوقت كان يفوت دائمًا، لأن الأمور كانت ستجري بطريقة

أخرى لو أنني لم أحتج إلى الذهاب إلى باخاريس في اليوم السابق لأطلب إعفائي من بعض الضرائب. وقبل ما لا يزيد على خمس دقائق، كنتُ رجلًا ينتظر أن يقدموا له طعامًا، وأنا الآن متورط بحمل جثة إلى الجبال.

أما هما فقد استغرقتا في الشكر حين سمعتا عرضي. وضعت سيرافينا يدها على ساقي. إنني واثق من أنها لم تكن تتورع عن أن تستسلم لي هناك بالذات، ولكنني لم أكن في مزاج مناسب. غرقت آركانخيلا بالدموع وخرجتْ من حجرة الطعام. وسمعتها تصرخ في الفناء:

- أخبروا إسكاليرا أنني لم أعد بحاجة إليه.

عندئذ عرفتُ أن المسالة ليست في أنهم لم يجدوا إسكاليرا، وإنما في أنه هو نفسه يريد تقاضي ألف بيزو مقابل هذا العمل.

بعد هنيهة رجعتْ آركانخيلا تحمل حزمة أوراق نقدية وقدمتها إليّ: خذ، كمساعدة في ثمن البنزين. كان المبلغ خمسمئة بيزو، دسسته في جيبي. ووجدت الحماسة لأضع شرطًا:

- سأنقل الميتة إلى حيث تريدان، ولكنني لن ألمسها.

عندما أحضروا الحساء كنتُ قد فقدت الإحساس بالجوع.

2

قال إن اسمه سيمون كورونا غونثاليث، وإن عمره إثنان وأربعون عامًا، متزوج، مكسيكي ويقيم في سالتو ديلا توكسبانا؛ وإنه خباز، لا يعرف القراءة ولا الكتابة، باستثناء التوقيع باسمه، وإنه كاثوليكي، وغير معتاد كثيرًا على تناول مشروبات مُسكِرة، ولا يدخن ماريجوانا ولا يسمم جسده بالمخدرات أو المهدئات. وعندما سُئل إذا كان سيعترف بإرادته، أجاب بنعم.

قال إنه تعرَّف على سيرافينا بالادرو عام ١٩٥٢، في بيدرونيس، في بيت تملكه هي نفسها في شارع الطاحونة. وفي اليوم الذي تعرف فيه عليها صار عشيقًا لها وعاشا معًا مدة سنتين، وبعد انقضائهما هجرها كي يرجع إلى سالتو ديلا توكسبانا. وأنه في العام ١٩٥٧، وبدعوة من المدعوة سيرافينا، عاد للقاء بها وعاشا معًا مدة سنة، وبانقضاء السنة هجرها للمرة الثانية كي يعود إلى سالتو ديلا توكسبانا. وقال أيضًا ما يلي:

«في العام ١٩٦٠ التقيتُ مصادفة بسيرافينا في مدينة باخاريس وطلبتْ مني أن أوصلها إلى بيت أختها آركانخيلا، في سان بيدرو ديلا كوريينتيس. وعند الوصول إلى ذلك المكان قالت لي آركانخيلا: «أدخل السيارة إلى الفناء»، وانصعتُ لها. أخذتاني إلى حجرة الطعام وقدمتا لي قارورة تيكيلا، كي أتناولها. بعد ذلك دخلت الأختان معًا وقالتا لي «عندما يبدأ الظلام ستذهب عبر الطريق العام وتلقي في وهدة هناك جسد فتاة ماتت». ذهبنا في سيارتي عبر طريق ميسكالا حتى وصلنا إلى منعطف حيث قالت لي آركانخيلا «توقف هنا»، فأطعتها. لم أرَ متى وضعتا المتوفاة في السيارة، ولكنني اضطررت إلى

المساعدة في إنزالها، لأنها كانت قد تصلبت ولم تستطع آركانخيلا وسيرافينا وفتاة تدعى إلفيرا، جاءت معنا، من إخراج الميتة من صندوق السيارة. وبينما نحن نحملها لنلقي بها في الهاوية، أفلت الكيس الذي يغطيها ورأيت وجهها: كانت تقاطيعها حادة وعيناها كبيرتين جدًّا ومفتوحتين، واسمها حسب ما قيل لي إرنيستينا أو هيلدا أو إيلينا. عندما رجعنا إلى سان بيدرو ديلاس كورينتيس، وكانت آركانخيلا تنزل من السيارة عند باب بيتها، قالت لي: «إذا ما بحثَ ذات يوم بما حدث هذه الليلة، سأبحث عنك أينما اختبأت، وهناك سأجدك». بعد ذلك ذهبتُ أنا وسيرافينا معًا إلى بيدرونيس، حيث عشنا معًا ستة شهور أخرى، وبعد ذلك هجرتها للمرة الثالثة كي أعود إلى سالتو ديلا توكسبانا».

٣
حب قديم

1

السيدة خوانا كونيو، المشهورة بلقب كالافيرا (الجمجمة)، روت ما يلي من أمور مرتبطة بالعلاقة بين سيمون كورونا وسيرافينا بالادرو.

بين الرجال الذين ارتبطتْ بهم السيدة سيرافينا، كان دون سيمون هو الأكثر احترامًا. كان يناديني بـ «سيدة كالاكا»، ويدعو الفتيات بلقب «آنسات»، وعندما يطلب شيئًا يقول «إذا لم يكن في ذلك إزعاج»، ويقول عند خروجه من الحجرة «بعد إذنك».

يستيقظ باكرًا ويدخل إلى المطبخ في الوقت الذي أقوم فيه بإشعال الموقد.

- صباح سعيد يا سيدة كالاكا.

في بعض الأحيان يذهب، ويظل غائبًا لوقت طويل، ولكنه حين يعود إلى البيت، يكون أول من أراه في الصباح هو السيد سيمون يقدم لي تحية الصباح.

وبينما أنا أقوم بإعداد الفطور، يحدثني عن سالتو ديلا توكسبانا. لا وجود في نظره لما يمكن أن يعادل الخروج للمشي مساء، ممسكًا بيد إحدى الفتيات، على ضفة نهر بيبدراس.

يقال إن دون سيمون يقضي الصباحات جالسًا في ساحة السلاح، يسمع الموسيقى، وفي الأماسي يلعب الدومينو في الحانة. وعندما يعود إلى البيت، لا يدخل إلى الكباريه، بل يذهب مباشرة إلى حجرة السيدة سيرافينا. ولا نعود لرؤيته حتى اليوم التالي.

في بعض الأحيان يغضب، يظل ينظر برهة إلى طبق التشيلاكيل بدل أن يأكله، ثم يقول لي:

- أنا أعيش وإحدى قدميّ في الرِّكاب.

يترك نصف الغداء، وبدل الذهاب إلى ساحة السلاح يذهب إلى الفناء، ويجلس تحت شجرة الجوافة. بعد مرور بعض الوقت تذهب إليه السيدة سيرافينا لتسأله عما جرى له. ولا بد أنه يقول لها إنه متعب من الحياة التي يعيشها في بيدرونيس ويريد العودة إلى سالتو ديلا توكسبانا، ولا بد أنها تجيبه أنه لا بأس، فليذهب، وتدخل إلى المطبخ باكية لتتناول الغداء.

لم تكن هذه النزاعات كتلك التي تحدث بينهما بسبب الغيرة، وإنما هي مصاعب تعود إلى أن دون سيمون يشعر بين حين وآخر برغبة في المغادرة. لقد غادر ثلاث مرات لفترات طويلة ورجع مرتين، ولكن المرات التي رغب فيها بالمغادرة ولم يستطع كانت كثيرة. في أحد الأيام وضع أغراضه في حزمة وجال في البيت مودعًا.

- سوف أغادر في الساعة الخامسة والنصف - هذا ما كان يقوله لنا.

حدث ذلك قبل امتلاك دون سيمون سيارة.

كان منهمكًا في جولة الوداع عندما قُرع الباب. فتحتُه ورأيتُ النقيب لاغونا وعسكريًّا آخر. سألاني عن دون سيمون.

- لقد غادر منذ وقت طويل - قلت لهما، لأنني كنت أعرف أن دون سيمون

ليس صديقًا لهما.

شاءت العناية الإلهية ألا يدخل الرجلان إلى البيت، لأنهما كانا سيجدان دون سيمون لدى انعطافهما عند أول زاوية في الممر. لم يدخلا، ولكنهما لم يصدقاني أيضًا، لأنهما ظلا ينتظرانه عند الناصية. عندما عرف دون سيمون أن الشرطة الفيدرالية قد جاءت بحثًا عنه وأنهم ينتظرونه في الخارج، لم يجرؤ على الخروج إلى الشارع طوال شهور، ولم يعد يتذكر سالتو ديلا توكسبانا.

حالفه الحظ تلك المرة. لكن حظه في مرات أخرى كان أسوأ: لقد لاحقه الجنود ووصلوا إليه ذات يوم في سان بيدرو ديلاس كورينتس، ومرة أخرى في مويرداغو. أعادوه إلى بيدرونيس وحبسوه في ثكنة عسكرية، جعلوه يعاني، إذ أجبروه على تنظيف قاذورات وغسلها. استمر ذلك إلى أن تدخلتْ من أجله السيدة سيرافينا، وكانت صديقة للكولونيل ثاراتيه، وأطلقوا سراحه. عاد دون سيمون إلى البيت كما لو أنه رأى الرعب مشخصًا، كان يأكل كومة من العجة ولم يعد يقول لوقت طويل إنه يعيش وإحدى قدميه في الرِّكاب.

في أحد الأيام سألتُه ما الذي يحمله في ضميره ويجعل الخُضر يلاحقونه إلى ذلك الحدّ. فقال لي إنه منشق عن الشرطة: في شبابه انضم إلى سلاح الفرسان ولم يستطع تحمل المشقات. ولأنه خرج قبل ثلاثة شهور من إنهاء خدمته عاش ملاحقًا طيلة عشرين عامًا.

2

عن علاقاتها بسيمون كورونا، قالت سيرافينا بالادرو:

عندما جاء سيمون أول مرة إلى بيت الطاحونة كان رجلًا بلا أية تربية. رأيته واقفًا إلى منضدة الكونتوار، وحيدًا، لا يكلم أحدًا. ففكرت: ما الذي يريده هذا الضخم؟ وكي أخلصه من الخجل دعوته للرقص. لم يكن يتقن التحرك ولو خطوة واحدة، لكنني كنت أرقص جيدًا، ورحت أعلمه وصار يتعلم شيئًا فشيئًا.

- ادعُني إلى كأس - قلتُ له بعد قليل.

فاعترف لي ذلك البريء بأنه لا يملك سوى خمسة عشر بيزو.

- أشكر الرب - قلت له - لأنك حظيت بإعجاب مالكة المحل.

لم يفهم أنني أنا صاحبة المحل. كان يحدث له ما يحدث لآخرين: يراني شابة وجميلة جدًّا، فلا يستطيع أن يتخيل أنني أنا المالكة... الأم الكبيرة.

- أعطني هذه البيزوات الخمس عشرة - قلت له - وما تبقى سيكون على حسابي.

لكي أكون صريحة أقول إنه نال إعجابي. جلسنا إلى منضدة وقال لي إنه آتٍ من سالتو ديلا توكسبانا وإنه خباز.

- لا بد أن هناك فتات لب خبز في سُرَّتِك - قلت له -. أريد منك أن تغسلها جيدًا قبل أن تندس معي في الفراش.

أخذته إلى حمّامي، ولم يكن قد رأى مثيلًا له. وحين رأيته يقف هناك، عاريًا، يحرك مفاتيح الماء الساخن، أحسست بتأثر شديد، لأن سيمون كان رجلًا

متخلفًا جدًّا ولكنه حنون جدًّا.

أنا من شَكَّلته. وإذا ما كان قد صار شيئًا معتبرًا الآن، فإنه مدين بذلك لي. عندما عرفته كان يبدو كمن هو نازل من الجبال للتو.

منذ البدء كانت حياتنا غير متعادلة. كنا سعداء معظم الوقت، ولكنني ألاحظ أحيانًا أن تجارتي تقف حائلًا بيننا نحن الاثنين. فعلى سبيل المثال، كان يغار لأني أقوم بخدمة الزبائن، أتبادل الحديث معهم أو أجلس إلى مناضدهم؛ يزعجه أنني آوي إلى الفراش في الساعة الثانية أو الثالثة فجرًا.

- إنه عملي - كنت أقول له -. إذا لم أفعل ذلك فمن أي عهر سنعيش؟

ولم يكن يروق له كذلك أنني أنفق عليه.

- إذا كنت لا ترغب أن يُنْفَقَ عليك، اشتغل - كنت أقول له -. ليس إجباريًّا ألا تفعل شيئًا.

واقترحت عليه أن يتسلى بعدّ الزجاجات الفارغة، أو أن يتولى تسليم الفيشات للفتيات. أو يمكنه على الأقل أن يرضى بالقيام بجولة في الكباريه بين حين وآخر، ليتأكد من أن أحدًا من الزبائن لا يجلس دون أن يكون لديه كأس.

- لستُ نادلًا - يرد عليَّ -. إنني خباز.

ما جرى أنه خلال السنوات التي عاشها معي لم يضطر إلى بذل الجهد ولو لكسب بيزو واحد.

من الفترات الثلاث التي عشتها مع سيمون، كانت الأخيرة هي الأفضل. لقد كانت مطالباته لي أقل وكنت أنا مدلهة بحبه. كنت سعيدة إلى حدّ راودتني معه رغبة في التعرف على البحر.

- خذني إلى آكابولكو - قلتُ له.

قام هو بإصلاح جيد للسيارة، وأخرجت أنا الخمسمئة بيزو من الصندوق وانطلقنا في الرحلة.

مذ كنا في الطريق كان عليَّ أن أتخيل أن هناك شيئًا رهيبًا ينتظرني. اشتد الحر كثيرًا. كنت أرتدي السواد ولم أجد طريقة لخلعه. كان لدي أمل برؤية البحر وراء كل رابية نمر بها. وبدلًا من رؤية البحر كنت أرى جبلًا آخر. ومن سوء الحظ أنني غفوت للحظات في أحد الأوقات وظهر البحر بينما كنت نائمة، وعندما استيقظت كنا قد وصلنا إلى القرية. نزلنا في فندق صغير في فنائه شجرة ثابوتي صغيرة. دفعنا ثلاثين بيزو أجرًا للغرفة. ما كدت أغلق الباب، وأخلع ملابسي وأستلقي، حتى كان سيمون فوقي خلال أقل من دقيقة.

- ابتعد - قلت له -، ألا ترى أنني أشعر بحر شديد؟

توقف سيمون دون أن يقول شيئًا، سرَّح شعره، ارتدى قميصًا نظيفًا وخرج إلى الشارع.

ندمت بعد ذلك لأني قلت له ابتعد. بدأت أفكر، وماذا لو هجرني إلى أخرى في هذا المكان المجهول؟ كنت أعرف دومًا أن هنالك في أكابولكو إغراءات كثيرة. مرَّ وقت طويل قبل أن أتجرأ على الخروج إلى الشارع بحثًا عنه. كنت

أخشى ألا أعود لرؤيته.

ولكن الأمر لم يكن كذلك. على مسافة ثلاث كوادرات وجدته. كان يجلس على مقعد في الساحة، مثلما هو معتاد على الجلوس في ساحة السلاح ببيدرونيس، لسماع الموسيقى. راق لي كثيرًا العثور عليه إلى حدّ أنني بكيتُ بين ذراعيه. بعد العشاء ذهبنا للرقص في «الكيبرادا».

أول ما فعلناه في اليوم التالي هو شراء ملابس السباحة ثم ذهبنا إلى الشاطئ. لم أتجرأ على النزول إلى البحر وإنما اكتفيت بالجلوس تحت شجرة وارفة وشرب البيرة، ورؤية سيمون كيف تقلبه الأمواج. وهناك باعني فتى بطاقات رحلة في سفينة تَعزفُ على متنها فرقة أوركسترا. بعد تناول الغداء ذهبنا إلى المرفأ بحثًا عن السفينة ووجدناها. كانت سفينة فيها بار مفتوح، وهكذا أمضينا الوقت في الشرب والرقص. وبما أن موعد الغروب قد حلّ، فقد جلسنا لرؤية الشمس وهي تندس في البحر. وكانت تلك هي اللحظة التي شعرتُ فيها أن هذا اليوم هو أسعد يوم في حياتي، ولهذا سألت سيمون: هل تحبني؟

أجابني بنعم أنه يحبني، وعندئذ اقترحتُ عليه بيع محلي والابتعاد عن الدعارة، وإعطاءه نقودًا كي يتمكن من شراء مخبز، وأن نذهب للعيش معًا في سالتو ديلا توكسبانا، وهو المكان الذي يروق له. حين سمع هذا كله بدا سعيدًا جدًّا.

عندما نزلنا من السفينة، تقدمنا ماشيين عبر القرية، يمسك كل منا بيد الآخر، كما لو أننا متزوجان حديثًا. وعندما وصلنا إلى الفندق خلعت ثوبي وقلت لسيمون:

- أريدك الآن أن تأتي وتنام معي. وجاء وشعرت بأنني لم أحب أحدًا قطّ مثل حبنا أنا وسيمون الذي سيكون أبديًّا. لهذا رويت له قصة حياتي. أخبرته بكل شيء، بما في ذلك أنني أنا من رتبت الأمر مع الكولونيل ثاراتيه كي يرسل جنودًا لملاحقته وحبسه في الثكنة وإزعاجه في كل مرة حاول فيها أن يهجرني.

قبل أن أنتهي من الكلام لاحظت أن وجهه أخذ يكتسي بالجدية. فكان عليَّ أن أوضح له:

- هذا الذي أخبرك به فعلته بدافع حب كبير أكنه لك.

لم يجب. نهض من السرير مديرًا لها ظهره وبدأ بارتداء ملابسه.

- أأنت غاضب؟ - سألته.

- فلنذهب لتناول العشاء - ردَّ عليَّ دون أن ينظر إليّ.

ارتديت ملابسي بأقصى سرعة وأنا أقول لنفسي: «لقد تهورتِ يا امرأة».

خرجنا إلى الشارع ورحنا نمشي بصمت. وفجأة توقف سيمون وقال لي:

- سأذهب لأشتري زجاجة روم من ذلك المتجر الذي هناك في الجهة المقابلة. اسمعي جيدًا ما سأقوله لك: انتظريني هناك، حيث تلك المواقف ولا تتحركي من ذلك المكان، لأنك إن فعلتِ فسوف أذهب إلى المتجر وأعود فلا أجدك.

كنت أريد إرضاءه، فقلت له إنني سأنتظره حيث طلب مني. رأيته يجتاز الشارع ويدخل إلى المتجر. فعلتُ ما أمرني به. انتظرته حيث طلب مني أن انتظره. بعد مرور بعض الوقت، بدأت أقلق. وفكرت: أيكون قد هوى ميّتًا بعد أن اشترى زجاجة البكاردي؟ لم أجرؤ على اجتياز الشارع والدخول إلى المتجر بحثًا عنه. فماذا سيحدث إذا ما ذهبت إلى هناك وجاء هو إلى هنا؟ وعندما رأيت أن المتاجر بدأت بالإغلاق وإنزال بواباتها المعدنية لم أستطع التحمل أكثر. اجتزت الشارع ودخلت إلى المتجر. لم أرَ سيمون، لكنني رأيت أن للمتجر بوابة أخرى تفضي إلى شارع آخر. عندئذ أدركتُ أن الحب الذي بدا لي أبديًّا قد انتهى.

عندما رجعتُ إلى الفندق أخبروني أن سيمون «قد خرج بالسيارة». ولم يكن لديه من اللياقة ما يكفي لدفع حساب الفندق.

لقد حدث لي ذلك لأنني كنت صريحة مع رجل لا يستحقني.

٤
بيدويّا يدخـل

1

لدى وصفها الحالة العامة لصحتها وحالتها المعنوية خلال الشهور التي تلت انفصالها عن سيمون كورونا في آكابولكو، تتحدث سيرافينا بالادرو عن آلام في الرأس، وتفضيلها المرضي لأكل السردين المعلب مع الخبز، وحيدة، في قاعة الطعام شبه المظلمة، والرغبة في عدم الحديث مع أحد، وعدم اهتمام مطلق بتجارتها، والرعب من الرجال: لأول مرة في حياتها حافظت على صيامها عن الرجال مدة سبعة وأربعين يومًا، وأهملت مظهرها - ظلت مدة شهر تقريبًا دون أن تسوي جديلة شعرها - وتقول إن مجرد التفكير بأنه يمكن لأحدهم أن يلمسها يُشعرها بالغثيان. وفي نهاية تلك الفترة أقامت علاقة انفعالية - وأفلاطونية - مع موظفة لديها تدعى ألتاغراثيا، وعمدت بعد ذلك إلى طردها من العمل.

تعاني الأرق. تقضي نهاية الليالي وبداية الصباحات مفتوحة العينين، ومنهمكة في حوارات متخيلة مع سيمون كورونا. تحتج فيها على جحوده ونكرانه للجميل، وتُثبت له أن كل ما فعلته كان من أجل مصلحته، وتقدم له قائمة من الجمائل التي يدين بها لها. وتقول إنها في الظلام، ولا تتجرأ على إخراج ذراعها من بين الملاءات كي تشعل النور، خشية أن تلمسها يدٌ باردة.

في آخر ليلة من ليالي الأرق تلك، أدركتْ أن سيمون لن يعود إليها، وقررت أنه إذا لم يكن لها فلن يكون لأحد سواها. هذا يعني أنها اتخذت القرار الحازم بالبحث عنه على وجه الأرض كلها حتى العثور عليه... وقتله. تخيلت نفسها وفي يدها مسدس، تطلق النار، بينما سيمون، في أحد الأركان، بثقب في القميص، يبدي ملامح الألم. بعد تأملها هذه الصورة المتخيلة نامت بعمق.

في الأسبوع التالي قامت برحلتها الأولى إلى سالتو ديلا توكسبانا، القرية التي تمقتها. كانت تحمل في حقيبتها التي من جلد اصطناعي مسدسًا من عيار ٢٥، لا تشعر بأي ثقة به، ومقصًّا، لتستخدمه إذا ما خذلها المسدس.

تجولت في القرية التي بدت لها مريعة، وكانت تسأل عن سيمون كورونا، دون أن تجده. التقت في الطريق بامرأتين كانتا عشيقتين له - وكان سيمون قد هجر إحداهن ليذهب إلى سيرافينا، ثم هجر سيرافينا ليذهب إليها، كما أنه كان قد هجر المرأة الأخرى ليعود إلى سيرافينا -.

أولئك النساء الثلاث، اللاتي أعربن عن مشاعر البغضاء، كانت اثنتان تعرف كل منهما الأخرى بالرؤية فقط، ولا تعرف الثلاث بعضهن بعضًا إلا من خلال تلمحيات غامضة، فقد اجتمعن معًا في مطعم وأُعجبت كل منهن بالأخريين. يوحدهن شرطهن المشترك بكونهن مهجورات والمفضلات لفترة من الزمن لدى رجل واحد: سيمون كورونا.

- إنني غاضبة جدًّا، وأبحث عنه لأُلحق به ضررًا يؤلمه حقًّا - اعترفت سيرافينا.

وبما أن المرأتين الأخريين لم تعترضا ولم ترفضا المشاركة في المكيدة

الدنيئة، فقد عقدن ثلاثتهن اتفاقًا، تعهدت بمقتضاه المرأتان اللتان تعيشان في سالتو ديلا توكسبانا بأن تخبرا سيرافينا، ببرقية، في اللحظة التي يعود فيها سيمون كورونا إلى القرية. وتعهدت سيرافينا بدورها بأن تقدم مبلغ خمسمئة بيزو لمن تقدم لها منهما أخبارًا صحيحة. وبعد أن اتفقن رفعن نخبًا مع أوردينيولا. في ذلك المساء، كانت تلك هي المرة الأولى التي تُشاهد فيها، في مطعم بسالتو ديلا توكسبانا، ثلاث نساء وحيدات مخمورات.

كان مقدرًا لاتفاقهن أن يظل بلا مفعول. فسيمون كورونا، بعد أن ترك سيرافينا في آكابولكو، ظل يعمل لمدة ثلاثة شهور لدى مخبز في ميسكالا. وعندما رجع أخيرًا إلى سالتو ديلا توكسبانا، أنجزت عشيقتاه السابقتان تنفيذ الجزء المتعلق بهما من الاتفاق، وذلك بإرسال كل منهما برقية إلى سيرافينا المقيمة في بيدرونيس. ولكن سيرافينا، في أثناء ذلك، كانت قد فقدت تمامًا اهتمامها بالبحث عنه، ولم تدفع الخمسمئة بيزو لأي من مخبرتيها، وقد مضت سنتان وتسعة شهور قبل أن تُقدم على عملية الانتقام التي ذُكرت في الفصل الأول.

2

عندما رأت سيرافينا بالادرو النقيب بيدويّا أول مرة، كانت تقف عند ناصية تقاطع شارعي سوليداد والخامس من مايو، في بيدرونيس. وكان النقيب يمتطي حصانًا أبلق - مستعارًا - ويشهر سيفًا مسلولًا ويعتمر خوذة نظامية. وكانت تُسمع موسيقى مارش النصر، إذ كان يجري العرض العسكري ليوم ١٦ سبتمبر/أيلول ١٩٦٠ [يوم استقلال المكسيك]. هي تقول إنها أمعنت النظر إليه لأنه كان يمتطي حصانًا مختلفًا عن الآخرين، ولأنه أشد قتامة من جميع من مروا - وكان لواءٌ كامل قد مرَّ - أما هو فلم يرها. بعد انتهاء العرض العسكري ذهبت سيرافينا إلى بيتها ولم تعد إلى تذكر النقيب إلا بعد مرور خمسة شهور، إذ التقت به مجددًا وتذكرته.

يمكن لنا، بعد هذا الفاصل الزمني، أن نتخيل النقيب بيدويّا ممتطيًا حصانًا آخر - وهذا حصان أشقر محمص ومن أملاك الحكومة - يمضي في ممر جبلي وعر بسلسلة جبال غويميس. الجو حار، والذباب يتوقف على وجه النقيب، وأشجار الكاساهوتي تُزهر. ووراءه يمضي رتل جنود على الخيول، يزيحون أغصان أشجار الهويساتشي، وأمامه يمضي رجل وحيد: مزارعٌ ينتعل حذاء رياضيًّا ويضع قبعة عريضة، يتقدمهم ماشيًا. إنه الدليل.

الدرب يصبح ضيقًا أكثر فأكثر، وعندما يبدو أنه سينتهي، يتوقف الدليل ويرفع ذراعه ليشير إلى شيء في الجانب الآخر من الطريق: الأزهار هناك (أزهار الخشخاش).

يمكن لنا أن نتخيل الكمين: يصل فلاحان إلى الوهدة - التي تبدو مقفرة - ومعهما بعض الأكياس لحصد حشيشهما. الرعب: يدركان أنهما محاصران بقوات فيدرالية. العذاب: شيء بسيط جدًّا، كالإصبع المكسور أو قدم كواوتِموك

المشوية[1]. ليسا بطلين. يذكران اسم من يؤجرهما الأرض ويعطيهما البذار ويشتري منهما المحصول.

الخطوة الثانية ليست موثقة. ليس معروفًا كيف استطاع النقيب بيدويّا أن يعرف أن أومبيرتو باريديس، المُبلَغ عنه، هو ابن آركانخيلا بالادرو، ولا ما هي الغريزة التي قادته لزيارة أمه بدلًا من إخطار الشرطة كي تعتقل الابن.

عندما انتهت الدورية المجيدة - لم يكن قد اكتُشف من قبل أي حقل خشخاش - رجع النقيب إلى القاعدة، كتب في التقرير أنه قد اعتقل سجينين وأحرق المحصول، ولكنه لم يقل إنهما قد أخبراه باسم المهرب. خلع بعد ذلك زيَّه الرسمي، وقام وهو يرتدى ملابس مدنية بالرحلة إلى سان بيدرو دي لاس كوريينتيس في حافلة تابعة لشركة السهم القرمزي.

لقاؤه مع آركانخيلا وضع صلابتة وثبات موقفه موضع اختبار. لقد عاملته في البدء بترفع، لأنها ظنت أنه يريد أن يبيعها شيئًا ما، ثم ظنت بعد ذلك أنه مُعقب معاملات إدارية صحية - مراحيض ماخور «**مكسيكو ليندو**» لم تكن تعمل قطّ بصورة صحيحة - وعندما قال إن الموضوع الذي يريد طرحه يتعلق بأومبيرتو باريديس، أدخلته إلى قاعة الطعام معتقدة أنه أحد أصدقاء ابنها وأنه آت ليستدين منه نقودًا. التشوش كان مزعجًا، وتوضيح الأمر كان عاصفًا ومعذّبًا.

وبحزم سيصاب النقيب بالذهول كلما تذكر، فيما بعد، تلك الحادثة. انهمك في تقديم رسالته كاملة من البداية حتى النهاية: ابن السيدة ممون مخدرات؛ وهو ليس جانحًا وحسب، وإنما جرت الوشاية به وهو الآن سجين فعلًا. وكنتيجة لذلك كان عليها أن تفكر، خلال دقائق بدت لها ساعات، بالتحول المؤلم لأم من الجهل إلى المعرفة.

في وهلة عدم التصديق الأولى، شتمت آركانخيلا النقيب - «أنت كاذب»، قالت له - فاحتفظ بالصمت. ثم كرر الاتهام. عندئذ حاولت آركانخيلا أن توضح للنقيب كل ما يمكن لأم أن تعانيه: فهي التي أرادت أن يدرس ابنها الطب، وكيف ضحت بالابتعاد عنه، كيلا يتعرض الطفل إلى تأثيرات خبيثة، ومن أجل أن يتحول إلى رجل مفيد، وأنها دفعت ثروة للمدارس الخاصة، وتجد نفسها الآن أمام واقع رهيب: ابنها يتاجر بالمخدرات.

- كيف تريدني أن أشعر أيها النقيب؟ الشغل والحرمان مدى الحياة ضاعا هباء بسبب رعونة صبي.

بكت بغزارة. نزعت الشرشف الأبيض الملوث ببقع قهوة بالحليب، الموجود فوق المنضدة واستخدمته لمسح دموعها. وخلال الصمت الذي ساد بينما آركانخيلا تقوم بهذا الفعل، وجد النقيب بيدويّا الوقت ليقول:

- أنا لا أريد إلحاق الضرر بهذا الفتى...

خرج النقيب من «**المكسيكو ليندو**» وهو يحمل خمسة آلاف بيزو في كيس.

كان هذا هو أول اتصال للأختين بالادرو بالنقيب بيدويّا. بعد بضعة شهور من ذلك، عندما كانت سيرافينا منهمكة في تدبير انتقام، أرادت شراء ما هو أكثر فعالية من المسدس الذي لديها، وأن تتعاقد مع مدرب رماية، فنصحتها

آركانخيلا بالنقيب بيدويّا باعتباره رجلًا جديرًا بالثقة.

قدم كواوتِموك: إشارة إلى إقدام فاتح المكسيك الإسباني إرنان كورتيس على حرق قدم الزعيم الأزتيكي كواوتموك لإجباره على الاعتراف بمخابئ كنوز الذهب.

3

كانت سيرافينا ترغب في شراء مسدس كبير، حتى لو اضطرت عند إطلاق النار منه إلى الإمساك به بكلتا يديها، وحتى لو أدى الارتداد إلى ارتفاع فوهة السلاح، وحتى لو أدى الدوي إلى إصابتها بالصمم، وحتى لو كانت الرصاصة، بعد دخولها صدر الضحية، ستفتح فجوة أوسع في ظهرهِ. جميع هذه العيوب يُعَوَّض عنها، حسب رأي سيرافينا، بالتأكد من أن سلاحًا من هذا النوع يضمن لها أن «المستهدف»، وقد صار جريحًا، لن يتمكن من المشي نحوها، بنظرة بلهاء وذراعين مفتوحين، كمن يريد معانقتها.

بعد أن قامت آركانخيلا بالتوصيات، رتبت الموعد. وفي التاريخ المناسب، حضر النقيب بيدويّا إلى بيت الطاحونة في بيدرونيس، الساعة الثامنة ليلًا بالضبط، توجه إلى المسؤول عن الحانة وطلب منه التحدث مع مالكة المحل.

سيرافينا التي كانت في فترة انقطاع، قررت أن تتعامل مع النقيب بوقار، ولكن بنأي أيضًا. كانت خطتها تتمثل في استقباله في مقصورة، وأن توضح له ما الذي تريده، فيخبرها هو إن كان بالإمكان الحصول عليه وكم ثمنه؛ فإذا كان السعر معقولًا، يتوصلان إلى اتفاق ويعقدان الصفقة. وكانت تفكر بأنها ستعمد عندئذ إلى استدعاء عدة فتيات، وتطلب منهن أن يأتين بزجاجات شراب، ثم تنهض عن المنضدة قائلة للنقيب أن يعتبر نفسه في بيته، وأن يتناول ويفعل ما يشاء، وأن كافة النفقات ستتولاها هي. وبعد قولها هذا تودعه، وتخرج من المقصورة وتذهب لمتابعة أعمالها.

في بداية اللقاء حدث شيء لم تكن سيرافينا قد أخذته في الحسبان: عندما دخل النقيب إلى المقصورة تعرفت هي فيه على الرجل الأشد قتامة في الفيلق - فالنقيب بيدويّا زنجي داكن اللون -.

- لدى حضرتك حصان أبلق؟

وجد النقيب نفسه مضطرًا للرد:

- إنه مستعار يا سيدتي - ولكنه أحس بالتملق على أي حال.

- آنسة، من فضلك.

اعتذر النقيب بيدويّا، وصحح، وجلس، وتقبل البراندي الذي قدمته إليه سيرافينا وكان مستقيمًا وخدومًا. ما الذي تريده الآنسة؟ مسدس كبير - وشرحت هي المواصفات التي تريدها -. اقترح عليها مسدسًا من عيار ٤٥ خاصًّا ونظاميًّا. ويمكنه هو الحصول عليه بمبلغ ألف ومئتي بيزو وتسليمه خلال أسبوعين مع مئة رصاصة كهدية.

- أتريد جزءًا من المبلغ مقدمًا؟

- ولا سِنتًا واحدًا.

وهي تريد أيضًا من يعلمها على استخدام المسدس. فوعد النقيب بأن يأخذها إلى مكان منعزل حيث يمكنها التدرب إلى أن تتوصل إلى السيطرة الكاملة على السلاح. كم هي كلفة هذه الدروس؟ وعاد هو إلى القول «ولا

سِنتًا واحدًا».
أُنجزت الصفقة. وجاءت اللحظة التي نهضت فيها سيرافينا لتستدعي الفتيات. تقول إنها لا تدري ما الذي جعلها تواصل الكلام لهنيهة أخرى مع ذلك الرجل شديد القبح. سكبت له بنفسها كأسًا أخرى وسألته عن الحياة العسكرية، وما يقال عن أنها شديدة التضحية. تكلم النقيب بتدفق عن امتطاء الخيول، ومعاناة الجوع والعطش، وعن القيام بالحراسة في الليالي الماطرة. وفجأة توقفت المحادثة.
رأت سيرافينا أن النقيب يمد ذراعه اليمنى تحت المنضدة، ثم أحست بعد ذلك بيدٍ تستقر على بطنها. تقول إنها شعرت بالذعر، ولكنها لم تدرِ ما عليها فعله.
في تلك الليلة أنهت سيرافينا امتناعها عن المضاجعة ونسيت مسألة الانتقام.

4

تعرفت سيرافينا على النقيب يوم الثالث من شباط/فبراير ١٩٦١. وكان التأثير الذي مارسه النقيب على مصير الأختين بالادرو خلال الشهور التالية لذلك اليوم بارزًا جدًّا. فهو من وعد بتأمين المسدس خلال أسبوعين، ولكن الحظ حالفه وحصل عليه خلال ثلاثة أيام ووضعه مع المئة طلقة المجانية في علبة حذاء فارغة، وجاء حاملًا هذه العلبة، للمرة الثانية، إلى بيت الطاحونة. اقترب من مسؤول الحانة وقال له إنه يريد التكلم مع السيدة. خرجت سيرافينا مشرقة لتحيته، أدخلته إلى حجرتها، حيث قام بتسليمها المسدس، وقدمت هي النقود له، وبإنجاز الصفقة أمضيا الليلة معًا.
بعد مرور ثلاثة أيام، يعود النقيب للمجيء إلى بيت الطاحونة. كان مجيئه هذه المرة في الساعة الحادية عشرة صباحًا. وكان النقيب بزيه العسكري. يقرع باب البيت، لأن باب الكباريه كان مغلقًا، وعندما فتحت له كالافيرا الباب، سألها عن الآنسة - لقد كانت سيرافينا سيدة في نظر الجميع وآنسة في نظره هو فقط -. وبعد أن جعلته ينتظر لبعض الوقت في الممر، ظهرتْ هي بحياء وخجل، ترتدي روبًا ليلكيًّا. قال لها النقيب إنه آتٍ من أجل إعطائها أول درس في الرماية. ارتدت سيرافينا ملابسها بسرعة واعتمرت قبعة ذات حواف عريضة تحميها من الشمس. كانت تظن أن النقيب سيأخذها، مثلما قال لها، إلى مكان مقفر في الريف. لم يحدث ذلك. استقلا إحدى حافلات السهم القرمزي أوصلتهما إلى كونثيبثيون دي رويث، القرية التي كان النقيب فيها شخصية بارزة.
(رحلة سيرافينا هذه إلى قرية لم ترها من قبل إلا من بعيد كدسكرة من مجموعة بيوت وسط سهل منبسط، كانت رحلة حاسمة في حياتها وحيوات أبطال هذه القصة الآخرين. كونثيبثيون دي رويث ليست على طريق مسكالا العام، الذي يصل بين بيدرونيس وسان بيدرو دي لاس كورينتيس، وإنما ترتبط

بها بتحويلة طولها ثلاثة كيلومترات).
كان النقيب قد اخترع تسيير دوريات ومناوبات حراسة ومسابقات جري اختراق الضاحية كي يشغل جنوده، بحيث لم يكن في الثكنة ظهيرة ذلك اليوم سوى فصيلة الحراسة. تلقت سيرافينا من النقيب التعليمات التمهيدية حول استخدام الأسلحة النارية ثم قامت بعد ذلك بإطلاق النار أول مرة - بصورة مرتجلة - في موقع رماية المفرزة الصغير، دون أن تراها عيون غير رصينة أو تُوجَّه إليها تعليقات ساخرة. بعد انتهاء التدريب العملي، اقتادها النقيب إلى مقر القيادة، حيث تبين أن السرير العسكري ضيق جدًّا والأرضية الاسمنتية شديدة البرودة، ولهذا كان لا بد من استبدال مكان الآلة الكاتبة وممارسة الحب فوق منضدة العمل، قبالة خريطة تفصيلية للمنطقة العسكرية. بعد ذلك دعاها النقيب لتناول الغداء في فندق غوميس.
تقول هي إنه في أثناء ذلك الغداء - حيث يقدمون دومًا ستة أطباق - أدركت أنها قد وقعت في حب النقيب بيدويّا. انتبهت إلى أنها تجد مشقة في النوم مع سيمون كورونا، وأنها لم تعد تهتم بالانتقام، وأحست بالندم لأنها أنفقت ألفًا ومئتي بيزو على مسدس يصيبها بالصمم بعد إطلاق كل رصاصة منه.
كان لا بد لها من أن تقول للنقيب:
- اروِ لي قصة حياتك.
ولا بد أنه حدثها عندئذ عن زوجته التي في أتسكابوسالكو، والتي تَعَرَّفَ عليها، واستمالها، وأغواها وأسكرها خلال حفلة رقص التخرج في المدرسة الحربية، وعن أبنائه الأربعة - وبصورة خاصة عن الطفلة، كارميليتا -، وعن اليوم الذي وجدته فيه زوجته في الزقاق القديم بمدينة بويبلا، يأكل شطائر تشالوبا برفقة امرأة أخرى، وعن الشكوى التي رفعتها ضده، وعن اللكمات التي وجهها إليها إلى أن طرحها أرضًا. ولا بد أنه أخبرها أيضًا بأن الزوجين يجتمعان كل سنتين أو ثلاث سنوات في محاولة غير مجدية لرأب شرخ حياتهما الزوجية. (ملاحظة: هذه اللقاءات بين النقيب وزوجته لم تعد تتكرر، فقد كان يعيش مع سيرافينا، وكانا سعيدين كلاهما، طوال ثلاث سنوات، ولم ينفصل عنها إلا عند دخولهما السجن - هو إلى سجن الرجال، وهي إلى سجن النساء). ومن أجل أن ينهي، كان لا بد للنقيب من أن يشكو وحدته. ولا بد أن سيرافينا قد أشفقت عليه.
طلب النقيب الحساب، دفع وترك بيزو كإكرامية - لم يمنح دومًا ما هو أقل أو أكثر من ذلك، النُّدل يكرهونه -. خرجا إلى منطقة البورتال. توقفت سيرافينا بين عازفي البوليرو وراحت تتأمل ساحة السلاح. في تلك اللحظة أدركت أن تلك القرية مهيأة، وفيها متسع لفتح ماخور ثالث.

٥
قصة البيوت

1

تقول السيدة إولاليا بالادرو دي بينتو:

الصحف قالت إن أختيَّ قد ورثتا تجارتهما عن أبي، وإن أبي كان مشهورًا في غواتابارو بعاداته الماجنة، وإنه مات بطلق ناري وجهه إليه عناصر الشرطة الفيدرالية. ما هذا إلا كذب سافر. فقد كان أبي رجلًا شريفًا، تاجرًا، لم تطأ قدمه بيتًا سيئ السمعة قطّ، ولم يعش في غواتابارا وإنما كان يعيش في سان ماتيو الكبير، حيث ولدنا نحن بناته الثلاث، وحيث مازال هناك أناس يتذكرونه بتقدير واحترام. لم تكن له أية دعاوى أو مشاكل مع أحد، وخاصة مع الفيدراليين. توفي في سان ماتيو، في العام ٤٧، بمرض أصابه، وقد مات بعد أن اعترف للكاهن وتناول القربان المقدس، ودون أن يدري، لحسن الحظ، أن أختيّ تمضيان في نمط حياة ما كان ليبدو له مقبولًا.

فأختي أركانخيلا توصلت إلى أن تكون مالكة جحر رذيلة دون أن تسعى إلى ذلك. فقد كانت مرابية، لم يدفع أحد المستدينين في الموعد المحدد فكان عليها أن تستحوذ على ممتلكاته، وكانت بين الممتلكات حانة في شارع غوميس فارياس، في بيدرونيس. ظلت طوال شهور تبحث عمن يتولى إدارتها ولكنها لم تجد شخصًا نزيهًا، ولهذا لم يعد أمامها مفر من أن تتولى إدارة المحل بنفسها. وقد سارت أمورها على أحسن حال، بحيث تمكنت بعد سنتين من فتح بيت الطاحونة الذي صار مشهورًا في بيدرونيس.

بعد سنوات من ذلك، وبفضل صداقة أقامتها مع سياسي من ولاية ميسكالا، منحوها تصريحًا بفتح محل في سان بيدرو دي لاس كورينتيس. وفي هذه المناسبة جاءت لزيارتي، وقالت لي:

- أريد أن أستقر في سان بيدرو، ألا توافقين على تولي مسؤولية محل صغير أملكه في شارع الطاحونة؟

كنتُ متزوجة من تيوفيلو ولم يكن ينقصني أي شيء آنذاك، ولكنني أردت أن أعرف أي نوع من المحلات هو، كي أعرف إن كان بإمكاني القيام بإدارته دون أن أقصر في واجباتي المنزلية. حتى ذلك اليوم لم أكن أعرف ما هي التجارة التي تعمل بها أختي. ولم أكد أصدق ذلك.

- أُفضل الموت - قلت لها - على أن أتولى إدارة محل من هذا النوع.

أخذت آركانخيلا على محمل السوء ردي هذا وظللنا متباعدتين لسنوات. وحين رأتْ أنني أرفض، ذهبتْ بالعرض إلى أختي سيرافينا، لأنها على الرغم من عيوبها، كانت تتمسك على الدوام بفكرة أن الأعمال التجارية يجب أن تبقى ضمن العائلة. وافقت سيرافينا على العرض لأنها كانت شابة، بلا خبرة، وكانت قد تعرضت لخيبة أمل غرامية وتشتغل نساجة في مصنع آورورا. وافقت سيرافينا على ترؤس العمل في بيت الطاحونة، بينما ذهبت آركانخيلا للعيش في سان بيدرو ديلاس كورينتيس، حيث فتحت «**المكسيكو ليندو**»، والذي سيتحول إلى أشهر كباريه في المدينة.

بدا طوال سنوات كما لو أن الرب يساعدهما. وبينما كنا أنا وزوجي نفقد كل ما جمعناه، بالعمل الشريف، تحولت أختاي إلى ثريتين من عيشهما في الرذيلة.

2

تقول آركانخيلا بالادرو:

تجارة الدعارة سهلة جدًّا، الشيء الوحيد الضروري كي تكون هذه التجارة جيدة ورابحة هو امتلاك نظام جيد، متكامل وفعال.

في الثامنة صباحًا تنزل الفتيات من حجراتهن، أستعرضهن بمرورهن أمامي كي أرى أنهن نظيفات، متجملات ومسرحات الشعور. يجلسن إلى مناضد الكباريه. المسؤول عن الحانة يحتفظ بالصندوق خاويًا في الوضع الصفري. يصل آلة الموسيقى بالكهرباء وتُرفع ستارة البوابة المعدنية. يبدأ الزبائن بالمجيء. بعضهم يعرفون المكان مسبقًا ويتوجهون مباشرة إلى النساء اللاتي يحظين بإعجابهم ويدعونهن للجلوس معهم إلى إحدى المناضد، وآخرون يمشون مبتعدين أو أنهم متكتمون منطوون على أنفسهم ويفضلون الوصول إلى منضدة الكونتوار وتناول كأس شراب أو كأسين قبل ان يحسموا أمرهم. فإذا ما رأيتُ أن الوقت يمضي وهؤلاء لا يزالون يشربون عند منضدة الكونتوار، أُرسلُ إليهم إحدى الفتيات غير المشغولات لدعوتهم. معظم الرجال يذهبون مع أول فتاة تدعوهم إلى منضدة. في بيوتي يحظر على الفتيات أن يتناولن شرابًا على منضدة الكونتوار. أحيانًا يصل سيد يفضل الانتظار إلى أن تشغر إحدى الفتيات اللاتي يعملن في الغرف: فما دام يدفع ثمن ما يشربه، فلينتظر عند منضدة الكونتوار الوقت الذي يشاؤه. في بعض الأحيان يصل عدة رجال ويجلسون إلى منضدة ويفضلون التكلم فيما بينهم، دون أن ترافقهم أيٌّ من الفتيات. إنه الحال نفسه: فما داموا يدفعون، فليفعلوا ما يشاؤون. ما لا أسمح به هو قيام أحدهم - من يفعلون ذلك يكونون من الطلاب عادة - بسحب إحدى الفتيات للرقص ويرقصون معها معزوفة بعد أخرى، ثم يغادرون عند الفجر دون أن يكونوا قد أنفقوا بيزو واحدًا. من أجل تجنب ذلك، آلة الموسيقى مضبوطة وما بين كل معزوفة وأخرى هنالك استراحة ووقت من أجل تناول كأس شراب. عندما تنتهي معزوفة، على الجميع التوجه إلى المناضد. فمن الممنوع الانتقال إلى الرقص من على منضدة الكونتوار أو من باب الدخول، وممنوع على الفتيات أن يتقاضين أجرًا مقابل الرقص معهم، وممنوع الجلوس إلى منضدة دون طلب شراب. عند تقديم طلب شراب، النادل ملزم بأن يقدم للزبون قسيمة استهلاك الشراب وأن يقدم للفتاة الفيشة الخاصة بها. وعندما ينهي الزبون زيارته عليه واجب دفع الحساب، بطريقة مهذبة ونقدًا.

المشروبات في بيوتي نظامية وقانونية. لم يستطع أحد خلال عشرين عامًا أن يشكوني لأنني قدمت إليه شيئًا ليس بمواصفات ما طلبه. حتى الفتيات يُقدم لهن ما يطلبنه. فإذا طلب أحدهم شراب الرُّوم تُفتح قارورة ويسكب ما

فيها في الكؤوس.

للكباريه بابان. باب يؤدي إلى الشارع وآخر إلى البيت. من الباب المطل على الشارع يدخل كل من يشاء ويخرج من دفع وانتهى. وعندما يكون هنالك زبون على منضدة مع فتاة ويشعر أنه راغب في قضاء بعض الوقت معها على انفراد، يطلبُ منها أن تأخذه إلى حجرتها. فترد عليه بالموافقة، لأنه ممنوع عليها أن تقول لا. يدفع الزبون الحساب، ثم ينهض الاثنان عن المنضدة ويخرجان من الكباريه عبر الباب المؤدي إلى البيت. هذا الباب ينفتح على ممر حيث يوجد السُّلم. وعند أصل الدرج توجد منضدة مسؤولة الغرف. هي من تقول للزبون ما هو المبلغ الذي عليه أن يدفعه، فليس لجميع الفتيات السعر نفسه. يدفع الزبون النقود للمسؤولة عن الغرف، وتسلم هذه بدورها فيشة للفتاة ومنشفة للزبون. يصعد الزبون والفتاة الدرج، يصلان إلى حجرتها، ويظلان هناك طوال الوقت الذي تعاقد السيد الزبون عليه. عندما ينتهيان ينزلان معًا على الدرج. وهذا أمر مهم، من أجل أن تلحظ مسؤولة الغرف أن الزبون لم يسئ معاملة الفتاة. لدى الوصول إلى الممر يفترقان. يمكن للزبون أن يعود إلى الكباريه، إذا شاء ذلك، وإن لم يشأ، يمكنه الخروج إلى الشارع من خلال بوابة البيت. تعود الفتاة إلى الكباريه وتواصل العمل. يمكن لشغيلة جيدة أن تكسب ثلاث أو أربع أو حتى عشر فيشات في ليلة واحدة.

3

شهادة الموظفة هيرمينيا ن:

ولدتُ في قرية إنكارناثيون، ولاية ميسكالا. كنا فقراء جدًّا. إنني الثالثة بين ثمانية إخوة. حين كنت في الرابعة عشرة حصلت على عمل في رعاية الأطفال، وكنت أكسب أربعة وعشرين بيزو في الشهر.

في مساء أحد الأيام جاءت إلى بيتنا سيدة تدعى سوليداد، تحدثتْ مع أمي ووعدتْ بأن تجد لي عملًا كخادمة في بيدرونيس. قالت إنهم سيقدمون لي طعامًا وسكنًا ومئتي بيزو في الشهر. أرادت أمي أن أذهب في تلك الليلة بالذات مع السيدة سوليداد. في الطريق كانت هناك فتاتان أخريان ذاهبتان للعمل أيضًا كخادمتين. عندما وصلنا إلى بيدرونيس نمنا في بيت السيدة سوليداد وفي اليوم التالي أخذتنا هي نفسها إلى بيت السيدة سيرافينا. منذ أن دخلت ذلك البيت انتبهت إلى أنهم ليسوا أسرة مثل بقية الأسر، لأن عدة نساء كن يمشين في الممر وهن يرتدين تنانير شفافة. وافقتْ السيدة سيرافينا على قبولي، ولكنها رفضت قبول الفتاتين الأخريين اللتين ذهبتا مع السيدة سوليداد ولم أعد لرؤيتهما. أخذتني السيدة سيرافينا إلى إحدى الغرف وقالت لي:

- ستكون هذه هي غرفتك. يمكنك الاحتفاظ بأشيائك هنا وأنت مطمئنة.

قالت لي هذا وانصرفتْ تاركة إياي وحيدة في الغرفة. ظللتُ وقتًا طويلًا جدًّا جالسة هناك، دون أن أجرؤ على الخروج. وفي المساء، فتحت السيدة سيرافينا الباب. أحسستُ بالخوف، لأن رجلًا بشارب كبير كان يرافقها.

- هذا الرجل الذي ترينه هنا - قالت لي السيدة سيرافينا - صديق حميم لهذا البيت، اسمه دون ناساريو. وهو يريد أن يرى كيف أنك جديدة جدًّا هنا.

(تتابع وصفًا تفصيليًّا لتجاربها الأولى، وقد كانت تجارب فظيعة. تقول إنها عانت كثيرًا في البدء، ولكنها اعتادت بعد ذلك، بل إن نمط الحياة ذاك بدأ يروق لها. تقول إنها كانت تكسب الكثير من الفيشات الحمراء والزرقاء، وصار لديها أربعة عشر ثوبًا. تشكو من أن ما تكسبه لا يكفيها بسبب ما تقتطعه سيرافينا مقابل الإيواء والطعام والملابس التي تشتريها والمئتي بيزو التي ترسلها سيرافينا إلى أمها كل شهر - صاحبة هذه الأقوال وأمها لم تتواصلا قطّ من خلال رسائل، لأن الأولى لا تتقن الكتابة والثانية لا تحسن القراءة -. وتشكو كذلك من أن أمها لم تتلقَ مبلغ المئتي بيزو قطّ. وهذا ما عرفته بعد ثمانية أعوام، حين التقت بأمها صدفة في أحد الأسواق. وهي تقول إنها لا تريد رؤية عائلتها لأنها تظن أنهم سيشعرون بالعار منها حين يعلمون بما صارت إليه).

شهادة خوانا كورنيخو، الشهيرة بكالافيرا:

التقيتُ صدفة بالسيدة بالادرو. كنت أعيش في مزرعة وأحتاج إلى نقود لأن

ابنًا لي كان مريضًا. ذهبتُ إلى بيدرونيس في طلب عمل وتنقلت من بيت إلى بيت أطرق الأبواب، إلى أن وصلت إلى باب فتحته السيدة آركانخيلا. وقد قالت لي: أجل، هنا يوجد عمل، ولكن ليس كخادمة. إذا ما جئت للعمل في هذا البيت فستعملين عاهرة.

وافقتُ ودفعتْ لي عشرين بيزو مقدمًا من أجل شراء الدواء، ولكنه لم يُفد في شيء، لأن ابني توفي بعد أيام قليلة. وظللت أنا مع السيدتين.

(تتابع ذكر قائمة من الأمكنة التي عملت فيها. تروي كيف أن السيدة سيرافينا عيّنتها مسؤولة عن الغرف والتعليمات التي أعطتها إياها: «لا يمكن لأحد الخروج دون أن يدفع، وإذا ما أحدث أحدهم صخبًا وصراخًا، استدعي تيتشو» - مراقب مائدة القمار -. وتقول إنها خلال اثنتي عشرة سنة من توليها تلك الوظيفة لم تواجه أي مصاعب مع المالكتين. وتنهي كلامها كما يلي:

لم تُبد السيدتان أية شكوى مني، وأنا كذلك لم يكن لدي مبرر للشكوى منهما، لأنهما منحتاني كل ما أحتاج إليه، ولهذا أقول إنهما سيدتان تملكان عملًا مشروعًا، وإذا كانت الشرطة قد جاءت بنا إلى السجن فإن السبب هو سوء الحظ).

4

طوال سنوات كانت تراود الأختين بالادرو فكرة فتح محل ثالث. فقد كانتا تدركان أن بيت الطاحونة و «المكسيكو ليندو» كانا في مناطق غير رصينة - أي مناطق حمراء - مما يجعل فئة من الزبائن الذين لديهم توجساتهم لا يقدمون على دخول هذه المحلات والتردد عليها، فهم - وكذلك المالكتان - يرغبون في فتح ذلك المحل، بسبب الخوف من أن يراهم أحد معارفهم يتجولون فجرًا في حي له سمعة سيئة جدًّا. هذا هو السبب الذي جعل سيرافينا تقدر أن كونثيبثيون دي رويث هي القرية المناسبة لفتح المحل الثالث: فهي في موقع جيد، على بُعد ٢٠ كيلومترًا من بيدرونيس و٢٣ كيلومترًا عن سان بيدرو دي لاس كورينتيس، وهي قرية صغيرة ومنسية إلى حد تكاد معه أن تكون سرّية.

وتتحدث سيرافينا بالادرو عن بدايات كازينو الدانسون على النحو التالي:

«لم تكن قد انقضت ثمانية أيام على معرفتي كونثيبثيون دي رويث، عندما جاء للقائي هيرمينيخيلدو - أي النقيب بيدويّا - ومعه خبر أنه عثر على قطعة أرض تبدو كما لو أنها قد وُجدت خصيصًا لإقامة محل لتجارتنا. اثنان وعشرون مترًا امتداد واجهتها، وخمسة وثمانون مترًا عمقها. وهي ملك سيدتين مسنتين هرمتين تحتاجان لبيعها كي تدفعا تكاليف إدخال أخ لهما إلى مشفى للمجانين، لأن أخاهما موجود مؤقتًا في بيدرونيس لدى راهبات الكلمة الإلهية، وتريدان ثلاثة وثلاثين ألف بيزو مقابل عقارهما».

«أعجبني العقار مذ رأيته أول مرة، إلا أن أختي، دون أن تراه، راحت تضع العراقيل، لأنها كانت تنظر بعين السوء إلى أي اقتراح يقدمه هيرمينيخيلدو».

«لقد عرَّفتُكِ عليه كي يبيعك مسدسًا، وليس كي تصبحي عشيقة له - كانت تقول لي».

«فكنت أرد عليها: لي الحق بأن أعيش حياتي، أم أن الأمر ليس كذلك؟».

«ما جرى أنه بعد ظهر أحد الأيام، كنا أنا وهيرمينيخيلدو ننتظرها أمام باب العقار، كي نريها إياه، وكنا نعتقد أنه لن يعجبها. وصلتْ في سيارة إسكاليرا، وسط سحابة من الغبار. وقبل أن تنزل من السيارة بدأت تجد عيوبا في الشارع: هناك حُفر؛ أسوار العقار من طين. وبينما نحن ننتظر أن يفتحوا لنا البوابة، قالت إن الرقم ٨٥ يجلب سوء الطالع، لأن مجموع طرفيه ١٣».

«ولكنها ما إن دخلت حتى تبدل رأيها. أعجبتها المساحة، والأسوار، وشجرتا الآفوكادو، وشجرة الليمون، وشجيرة الجهنمية، وكذلك السعر».

«- هنا - قالت لدى وصولنا إلى ركن من الفناء - سوف أقيم خمًّا للدجاج».

قبل اتخاذ قرار نهائي، استشارت الأختان بالادرو المُجاز كاناليس - وهو سيد له منصب مهم في حكومة إسترادو - حول المصاعب التي يمكن لهما مواجهتها من أجل الحصول على ترخيص بإقامة محل جديد لتجارتهما. فأجابهما بأنه لا وجود لأي نوع من المشاكل. كان ذلك في الشهور الأولى من نظام الحاكم كابانياس، قبل أن يخطر لذهن أحد أن هذا الحاكم سوف يخطر له أن يلاحق تجارة الدعارة.

اتخذت سيرافينا وآركانخيلا قرار الشراء. دفعتا المال مناصفة، وعند التسجيل سُجل العقار باسميهما. ومن الملائم التنبيه إلى أن النقيب بيدويّا قد تقاضى عمولة من البائعتين لأنه حصل لهما على زبونتين تدفعان مثل ذلك السعر المرتفع، وعمولة من المشتريتين، لأنه حصل لهما على عقار رخيص، وحصل على خمسمئة بيزو مما دفعته الأختان لكاتب العدل الذي حرر عقد البيع، واحتفظ بيدويّا لنفسه بألف وخمسمئة بيزو من مبلغ أعطتاه إياه كي يوزعه على أعيان المنطقة.

حدث هذا في منتصف شهر شباط/فبراير، وفي الثامن والعشرين منه كلفت الأختان بالادرو مهندسًا بإعداد مشروع «ماخور لم يُوجد له مثيل في تلك الأنحاء». كان المهندس موجودًا في بيدرونيس كعابر طريق، وكان قادمًا من تيخوانا، حيث شيَّد، كما تقول الشهرة، عدة مواخير. لم يخبر أحدًا أنه يمضي هاربًا من أحد زبائنه، لأنه غير راض عن عمله. أعطته الأختان بالادرو خمسمئة بيزو.

افتتنتا بالمخطط: خمس عشرة غرفة مع حمّام لكل منها، وكباريه يحاكي قاع البحر - يرفع المرء عينيه فيرى أسماك منتارايا مجنحة وأسماك قرش معلقة في السقف - وصالونان حصريان، أحدهما على الطراز العربي الأندلسي، والآخر على النمط الصيني، وبِرْكة مغطاة لم يستطع أحد أن يدرك ما نفعها، لأن أيًّا من العاملين وجميع الزبائن تقريبًا لا يتقنون السباحة.

الخمسمئة بيزو التي دفعتاها للمهندس مقدمًا هي كل ما دفعته الأختان بالادرو للمشروع، لأنه في الليلة التي سُلم فيها المبلغ إليه، انتبه المهندس إلى أنهم يلاحقونه، فمضى هاربًا. لحق به مطاردوه وأدركوه في تيهواكان،

بينما هو يبول في مرحاض مطعم، فأطلقوا عليه إحدى عشرة رصاصة.
شيدت الأختان بالادرو البناء مثلما هو في المخططات، تحت إدارتهما بالذات، وبمساعدة معلم بناء موثوق، ونصائح شاب كان قد نفذ ديكور صالون تجميل في بيدرونيس، وتحت حراسة النقيب بيدويّا، «الذي صار مثل فرد من الأسرة» ولأن ورشة العمل قريبة من ثكنته العسكرية، كان يذهب لمراقبة العمل كل يوم، كما لو أنه المالك.

5

أُطلق على حصيلة هذا العمل تسمية «كازينو الدانسون». وعند تأمل ذلك البناء الآن (في عام ١٩٧٦) يجد المرء صعوبة في تصديق أنه قد شُيّد منذ أقل من خمسة عشر عامًا. فهو يبدو كأنقاض حضارة منسية - رجل الديكور الشاب حاول أن يزين واجهة البناء بحفر ناتئ من معجون المرمر لكنه سرعان ما راح يتفتت -. وعلى طنف المدخل استطعت أن أرى بقايا حروف تقول:

كاز نو الـ نسـ ن

يفتح الباب رجل عجوز. إنه الحارس، وهو شرطي متقاعد، يسمح مقابل عشرين بيزو - أو أقل - بدخول شخص فضولي - أو جماعة من الفضوليين - إلى المكان الذي جرت فيه المظالم - سنتحدث عنها فيما بعد -. ويرافق الحارسُ الزائرَ شارحًا له:
هذا هو الكباريه. إنه مضاء بمصباح كهربائي واحد. في منتصف حلبة الرقص توجد حفرة قطرها ثلاثة أمتار، محاطة بكومة من التراب. المناضد والكراسي مكومة في أحد الأركان، سمكتا منتارايا مجنحتان من الجبس سقطتا إلى الأرض وتحولتا إلى فُتات، سمكة قرش مازالت معلقة من ذيلها، تتأرجح - هنالك تيارات هواء - عارضةً شدقيها على ارتفاع مترين عن الأرض. حوض أكواريوم كهربائي، يَشْغلُ كامل الجدار تقريبًا، منطفئ وشبه مدمر. الطحالب وأذيال ميدوزا الكرتونية، والمعلقة كأكاليل زهر، قد اختفت، وكذلك كرات البلور الضاربة إلى الزرقة - «النور، ما بين أخضر وبنفسجي، يخرج من بعض كرات البلور الزرقاء التي تبدو كفقاعات هائلة...»، هذا ما تقول إحدى عبارات الوصف.
في الجزء العلوي من الجدار المقابل للأكواريوم الكهربائي، وفي مكان لا يمكن توقعه، توجد شرفة، اختفى حاجزها الحديدي.
في قاعة بغداد، وهذا أحد الأمكنة الحصرية في الملهى، يمكن رؤية أضرار سوء الأحوال الجوية. إذ لابد أن أحدهم قد أخذ هيكل النافذة، فهنالك فتحة في السقف. وخلال موسم الأمطار، يقول الحارس، تتغطى الجدران بالطحالب، وفي الربيع بالمقابل، تعشش فيه طيور السنونو. في هذه القاعة المتداعية، ذات الأرضية الصفراء والسوداء، كانت تجري عروض «التنوع» التي أشاعت شهرة كازينو الدانسون. فكان هناك من يقومون بالرحلة من ميسكالا لمشاهدتها وحسب. فيما بعد، خلال الحقبة السوداء، كانت قاعة بغداد إحدى «الحجرات المقفلة».

البركة كانت فارغة منذ افتتاح الكباريه تقريبًا - إذ كان الماء شديد البرودة ولم يكن هناك من يتجرأ على النزول فيه - وتستخدمها أسرة الحارس الآن كـ «مستودع مهملات».

جميع الغرف تؤدي إلى الممر وهي تُذكّر بدير أكثر مما تذكر بماخور. وهي، أي الغرف، ما تزال مؤثثة، ذلك أن الوضع القانوني للكازينو مازال مشوشًا بصورة معقدة. النساء كن يعشن في غرف مساحتها أقل من عشرة أمتار مربعة، يتحركن بمشقة حول سرير هائل. وفضلًا عن السرير، هنالك في كل حجرة خزانة ملابس، وخوان زينة مع مرآة، وكرسي قش. ومع كل حجرة يوجد حمام صغير يقتصر على الأساسيات.

لدى كل امرأة في حجرتها شيء يميزها عن الغرف الأخرى: وجه إلهي على الباب، إبريق زجاجي ملون، رأس هندي أحمر من الطين، رزنامة عليها رسم يمثل اختطاف مالينتشيه، صورة فوتوغرافية لصديقة، مكواة كهربائية، وغير ذلك. بعد استعراض الغرف، يقوم المشرف باقتياد الزائر إلى فناء الطيور كي يرى أعمال الحفر والتنقيب، وهي عنصر الجاذبية الأساسي. وفي معظم الحالات، كما يبدو، تنتهي الزيارة هنا. ومع ذلك، عندما تكون الإكرامية سخية، يقتاد المشرف الزائر إلى غرفة آركانخيلا ويريه، كمكافأة، صورة فوتوغرافية معلقة على الحائط، تظهر فيها جثة: إنها صورة أم الأختين بالادرو، التقطت لها وهي ممددة في التابوت، بين أربعة شموع.

بانتهاء الزيارة والعودة إلى الشارع، لا بد للزائر من أن يستدير بنظره كي يلاحظ أمرًا مهمًّا: لا يوجد في شارع الاستقلال سوى بيتين اثنين من طابقين: كازينو الدانسون والبيت المجاور له، وكان ملك السيدة آورورا بينابيديس التي أمضت ست سنوات في السجن، بسبب هذا الوضع المتميز لبيتها.

٦
حـادثتان وزلَّة

1

افتتحت الأختان بالادرو كازينو الدانسون في ليلة الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦١. وكان بين من حضروا حفل الافتتاح المجاز كاناليس، السكرتير الخاص للحاكم في ولاية بلان دي آباخو، والمجاز سانابريا، السكرتير الخاص لحاكم ولاية ميسكالا، والنائب ميدرانو، المسؤول في شركة الخطوط الحديدية، وقائدان فلاحيان، والمدير العام لمصرف ميسكالا - فرع سان بيدرو دي لاس كوريينتس -، وعدد من التجار ومالك حظيرة تضم ما يزيد على مئة بقرة، واثنان من ثلاثة رؤساء بلديات جرت دعوتهم ووصلا في الساعة الثانية فجرًا، فور انتهاء مراسم صرخة الاستقلال في بلديتيهما، إلخ... كانت الأختان بالادرو قد وصلتا إلى ذروة مسيرتهما الاجتماعية، ولكنهما لم تكونا تعرفان ذلك، بل كانتا تظنان أن قممًا كثيرة مازال عليهما بلوغها.

في الساعة الثانية عشرة ليلًا - الحفلة بدأت متأخرة - فُتحت الواجهة الزجاجية للشرفة وظهرت عليها آركانخيلا تحمل جرسًا في يدها، والمجاز كاناليس، يحمل العلم الوطني. قرعت آركانخيلا الجرس كي تلفت الاهتمام، فصفق الموجودون في الأسفل. وعندما ساد الصمت، هز المجاز كاناليس الراية وصرخ بما يلي:

- تحيا المكسيك، يحيا الاستقلال الوطني، يحيا الأبطال الذين منحونا الحرية، تحيا الأختان بالادرو، يحيا كازينو الدانسون!

من كانوا بالأسفل ردوا صارخين بتأييد ما قاله المجاز كاناليس. ويقولون إن آركانخيلا أمسكت الجرس بكلتا يديها وأعادت قرعه.

(كان هذا هو الحدث الأول. وقد رأى النائب ميدرانو وأحد القادة الفلاحيين أن هتاف «يحيا» لأبطال الوطن وللأختين بالادرو يشكل مزجًا تجديفيًّا، وذهبا بهذه النميمة إلى الحاكم كابانياس الذي بادر على الفور إلى إلغاء صداقته للمجاز كاناليس وإقالته من الوظيفة، قاطعًا بهذه الطريقة الدعم الوحيد الذي كانت تحظى به الأختان بالادرو في القصر الحكومي ببلان دي آباخو).

في حفلة الافتتاح، ارتدت الأختان بالادرو للمرة الوحيدة في حياتهما ملابس طويلة - تصف سيرافينا ثوبها بأنه بَرَّاق - واستقبلتا ضيوفهما في صالة الطعام في البيت، وعندما اكتمل جمعهم أدخلتا الجميع إلى الكباريه. الانطباع الذي خلّفه الديكور لا يُنسى. وعندما هدأت عبارات الإعجاب، دخلت الفتيات، جيدات الملبس والزينة. وفي هذه اللحظة أعلنت سيرافينا أن كل شيء مجاني في تلك الليلة. أحدث هذ الإعلان اضطرابًا: فالمدعوون فهموا أن كل شيء مجاني، بما في ذلك النساء، أما هن بالمقابل، ففهمن الأمر بأنه إذا كان المدعوون لن يدفعوا ثمن الشراب الذي يستهلكونه، فهذا يعني أنهن غير ملزمات بالنوم مع أحد منهم.

بعد صرخة الاستقلال، تقول الشهادات، إن آركانخيلا اقتادت المدعوين إلى قاعة بغداد، حيث أقيم لأول مرة عرض التنوع، بمشاركة ثلاث نساء. وقد

استثير بعض السادة أكثر مما هو مقدر وكان يمكن لهم المشاركة في الاستعراض لو لم تمنعهم آركانخيلا. وعند عودة الجماعة إلى الكباريه، بدأ الجميع الرقص ووقعت الحادثة الثانية.

جرى ذلك كما يلي: المجاز سانابريا الذي لم يكن هنالك من يلحظ أن لديه أية ميول عكسية، أحس بدافع عاطفة غامضة ودعا إسكاليرا إلى الرقص - وكان هذا الأخير قد دخل إلى الكباريه كي يوصل رسالة -. رقص الرجلان رقصة دانسون - «نيريداس» - من البداية حتى النهاية أمام نظرات الحضور المذهولة - لم يتجرأ أحد سواهما على الرقص -. وعند انتهاء المعزوفة، قدم إسكاليرا شكره وانصرف. حاول المجاز سانابريا الرقص مع عدة سادة آخرين، لكنهم لم يوافقوا على دعوته، فأدرك أنه قد تصرف بصورة مضحكة، واحتفظ إلى الأبد بسوء نية تجاه جميع من شهدوا عاره، وبصورة خاصة تجاه الأختين بالادرو، لأنهما وضعتاه في التجربة. وسيكون لسوء النية ذاك دور مهم في هذه القصة، كما سنرى فيما بعد.

2

وصف زلة:

كيف حدث أن خطر للحاكم كابانياس أن يُقدم على عمل شيء لم يخطر ببال أحد، في بلان دي آباخو، خلال مئة وأربعين عامًا من حياة الاستقلال: حظر البغاء؟

من أجل تفسير هذه الأحجية هنالك عدة روايات تشير إلى أسبابٍ ما هي إلا فروع تنشأ عن الجذر نفسه، وهو ما يلي: لقد كان كابانياس بين كل الحكام الذين مروا على بلان دي آباخو، الحاكم الأكثر طموحًا والأشد صمودًا. فبينما كان الآخرون سياسيي أقاليم وصلوا إلى قصر الحُكم مُستَنفدين، وصل هذا الحاكم طازجًا، ولديه رغبة في المواصلة قُدمًا والوصول بعيدًا أكثر فأكثر. ظرفه المواتي، إضافة إلى التمعن في أن هذه البلاد لم يحكمها خلال مئة وبضعة وعشرين عامًا حاكمٌ أصله من بلان دي آباخو، جعله يشعر أنه «شخصية رئاسية».

نظم الولاية كجمهورية مصغرة - أُطلق على مكتب الإيرادات تسمية أمانة المالية، وعلى مجلس التطوير تسمية أمانة الأشغال العامة، وهكذا دواليك - وحاول أن يُثبت أنه قادر على حكم الأولى (الولاية) وسوف يكون قادرًا على حكم الثانية (الجمهورية) إذا ما منحته «السلطات العليا» الفرصة.

وفضلًا عن تبديل أسماء المؤسسات، بادر كابانياس إلى البدء بعدة مشاريع معمارية ضخمة - بناء قصر، وشق طريق عام، وحفر نفق - كلفت مبالغ طائلة وأدت إلى عجز في الميزانية. ومن أجل تعويض العجز، كان على كابانياس أن يزيد الضرائب.

أراد عمل ذلك بأقل الطرق إيلامًا للمكلفين، ولهذا نظم أيام رجال الأعمال، وتتمثل في أن الحاكم شخصيًّا يصل إلى المدن، يجمع تجار المقاطعة في

كازينو كل منطقة، ويبين لهم أن ما يدفعونه من ضرائب للولاية هو مبلغ بائس، ومن الملحّ أن يدفعوا أكثر. رد التجار على هذا النداء بالقول إن الولاية حظيرة خنازير وهي لا تساوي ما يدفعونه لها، وأعربوا عن تذمرهم من كل شيء، ابتداء من سعة قطر المجارير غير الكافي ونقص الماء حتى في كهوف الرذيلة التي توجد بكثرة و«بتسامح من السلطات». فكانت حصيلة تلك الحملات أن زاد كابانياس الضرائب، ولكي يُرضي المتذمرين جزئيًّا صحح من بعض العيوب التي عُرضت، أي تلك التي يكون علاجها أقل كلفة. وأمر بإغلاق بيوت الدعارة.

قانون الأخلاق الحميدة في بلان دي آباخو الذي يحظر الدعارة والقِوادة ويُجرم حتى من يُسلّمون مشروبات مرطبة لبيوت الدعارة، قُدم بمبادرة من الحاكم كابانياس أمام مجلس الولاية، ونُوقش خلال نصف ساعة وتمت الموافقة عليه بالإجماع والتصفيق، في يوم الثاني من آذار/مارس ١٩٦٢.

تطبيق القانون الذي لم يكن هناك من يتوقعه، أثر على حواليّ ثلاثين ألف شخص تعتمد مصادر دخلهم، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على الدعارة، وعلى حكومات المقاطعات التي تعتمد مداخيلها، بنسبة ثلاثين أو أربعين بالمئة، على الضرائب التي تدفعها المواخير، فضلًا عن مئات الموظفين العامين الذين يتلقون إكراميات من محلات البغاء. لم يعترض أيٌّ من المتضررين:

من المعروف أن آركانخيلا، يرافقها المجاز ريندون، قد حضرت إلى مكتب القاضي بيرالتا وعرضت عليه خمسة آلاف بيزو مقابل توفير الحماية لها.

فوصف القاضي رده عليها على النحو التالي:

«حاولتُ أن أُري السيدة بالادرو أن ما تطلبه مني ليس حماية بالضبط، وإنما وسيلة قانونية تمنحها حصانة من قانون وافق عليه الكونغرس. وقلت لها أيضًا إنه على الرغم من أن ما تطلبه مني سوف يكون حماية فإنه ليس بمستطاعي توفيرها لها بأي ثمن، لأن السيد الحاكم شخصيًّا قد طلب من القضاة عدم عرقلة تطبيق هذا القانون، لأنه يوليه أهمية خاصة».

3

جرى تطبيق قانون الأخلاق الحميدة بصرامة لا سابق لها في ولاية بلان دي آباخو. وفي نهاية شهر آذار لم يعد هناك أي ماخور مفتوح.

استجابت سيرافينا وآركانخيلا بالادرو بدافع حدس يمكن أن يبدو كنبوءة، فأخرجتا الأثاث من بيت الطاحونة، بينما تركتا بالمقابل كازينو الدانسون على حاله، حيث كانت الأَسِرّة مرتبة عندما قام موظفو المحكمة بوضع الأختام على الأبواب. وتقول المرأتان إنه كان لديهما إحساس بأن الرب سوف يمنحهما قريبًا جدًّا معجزة إعادة فتح ماخورهما النموذجي العزيز على قلبيهما.

في يوم الإغلاق بشارع الطاحونة، في بيدرونيس، حدثت مشاهد مؤثرة. كانت هناك ست شاحنات مملوءة بالأثاث والنساء - إذ كان هناك ثلاثة مواخير في كتلة أبنية واحدة -. وحدثت مشاهد وداع حزينة جدًّا بين النساء، لأن

الأختين بالادرو نقلن إحدى عشرة امرأة منهن إلى شخص لديه أعمال في غواتابارو. امتلأت المقاعد بالفضوليين، أناس لم تطأ أقدامهم ماخورًا من قبل ويريدون أن يروا ما يوجد في الداخل. الشرطيون الذين يحفظون النظام كانوا يخفضون نظرهم ويتحركون بمزاج سيئ، لأنهم يخسرون الراتب الإضافي. وعندما جاء المجاز أبالوس ليضع الأختام، قال لسيرافينا:

- لا تسيئي الظن بي يا سيدة سيرا، إنني أفعل هذا لأنهم يجبرونني عليه.

فخلال أربعة أعوام، كانت تمنحه خمسمئة بيزو شهريًّا.

عندما خُتمت الأبواب وحُمِّلت الشاحنات، اقتربت امرأة من أهالي القرية من سيرافينا وشكرتها، باسم الجيران، لأنها دفعت تكاليف تبليط الرصيف.

4

النساء، الكراسي، الأَسِرة، الطسوت، الفرش، حزم الملابس، وصلت جميعها إلى سان بيدرو دي لاس كورينتيس في شاحنات، عند غروب يوم كئيب. وجاءت المالكتان في سيارة، وبمزاج أسود.

كانت الأيام الأولى صعبة، إذ كان لا بد من إسكان سبع وعشرين امرأة حيث كانت تعيش أربع عشرة في السابق، مما اضطرهم إلى تقسيم الغرف، فصارت ضيقة جدًّا. وما تقاضاه معلم البناء بدا لآركانخيلا سعر تجويع. لقد ظلت محبطة جدًّا لأسابيع، تظن أنهن سيتحولن إلى البؤس. بل إنها بدأت مفاوضات مع سيدة تدعى أوخينيا، لديها أعمال في ميسكالا، كي تحول إليها ثمانية نساء أخريات، ولكنها صفقات لم تُنفذ، لأن السادة بدأوا بالمجيء، بعضهم من الزبائن القدامى الذين كانوا يعيشون في بلان دي آباخو، يجتازون حدود ولايتهم بحثًا عن التسلية والإنفاق، وآخرون هم زبائن جدد، من بلان دي آباخو أيضًا، أناس لم يدخلوا المواخير من قبل قطّ، ولكنهم حين يرونها مغلقة ومحظورة تداخلهم الغواية. تدفق الغرباء بحثًا عن متع كانت محظورة في أمكنة أخرى، كان له تأثير مشجع على الرجال الذين يعيشون في سان بيدرو دي لاس كورينتيس، ودفعهم إلى التردد أكثر فأكثر على الكباريه. فكانت سيرافينا تقول: «الرجال مثل الذباب، كلما رأوا اجتماع كثيرين منهم، يزدادون اجتماعًا».

وفي «**المكسيكو ليندو**»، كانت هناك جموع تتوافد كل ليلة. وفي ليالي السبت لم تعد النساء يعرفن الراحة. قررت سيرافينا شراء جهاز موسيقى جديد ودفعت هي نفسها ثمنه. رأى النقيب بيدويّا أن أحوال الأختين بالادرو تزدهر في سان بيدرو دي لاس كورينتيس، فبدأ القيام بإجراءات انتقاله إلى الكتيبة التي توجد قاعدتها في ذلك المكان - أشد ما كان يزعجه من كونه يعيش في كونثيبثيون دي رويث وسيرافينا في سان بيدرو، هو الرحلة التي على كليهما أن يقوما بها يوميًّا في حافلات السهم القرمزي: ووصل به الأمر إلى حد الاقتناع بأنه سينهي حياته ضحية حادث سير على سفح جبل الكلب

-. أما آركانخيلا فوصلت إلى حد القول إن أمور تجارتهما لم تعرف قطّ أوضاعًا أفضل مما هي عليه، وأن ما انتزعه الرب منها ومن أختها بيد بدأ يعيده إليهما باليد الأخرى. وفي أثناء ذلك حلَّ شهر كانون الأول/ديسمبر ووقعت حادثة بيتو.

٧
حـياة

1

ينزل الرجل المنحدر بذراعين متصلبين، وقبضتين مطبقتين، ورأس منحن، وساقين متخشبتين حينًا ومترهلتين حينًا، وتجد قدماه الأرض في منتصف الطريق أو أنهما تفقدان أرضية الدرجات وتضطرانه إلى التعثر. (من رآوه يمر ظنوا، كما عُرف فيما بعد، أنه مخمور).

إنها التاسعة ليلًا. طلعة السانتواريو هي شارع مرصوف بأحجار، مع وجود أدراج كلما استدعت الحاجة وجودها، وعلى الجانبين بيوت من طبقتين، جدرانها ملونة وأبوابها مغلقة. هنالك مصباح إنارة كل مئة متر. عند أسفل المرتفع توجد أنوار المركز. السماء تضاء كل لحظة بالألعاب النارية التي تُطلق في ساحة كونثيبثيون. تُسمع فرقعة أسهم نارية، وعزف فرق موسيقية: سيمفونية، مارياتشي، أصوات، صرخات ابتهاج رانتشيرا، نباح كلاب. إنه يوم الثامن من كانون الأول/ديسمبر.

ليس لدى الرجل حماسة لمعرفة أي شيء عن ذلك كله. فنظرته الزائغة مصوبة إلى الأرض، إنه منهمك في الوصول إلى الهدف. الكلاب التي ترى مروره تنبح عليه وتقترب بعد ذلك لتشم دمًا يبصقه. على بعد نحو خمسين مترًا صعودًا على السفح، يمضي متتبعًا خطواته اثنان من شرطة العدلية، يتوقفان كلما توقف ليلتقط أنفاسه، مستندًا إلى جذع شجرة دردار، ويواصلان المسير عندما يتابع طريقه بعناد.

عند وصوله إلى حافة الرابية تأتي التجربة الأشد خطورة. يتوقف الرجل عند الناصية، ودون أن يرفع بصره، كما لو أنه يعرف أحجار الأرضية، يقوم بالالتفاف نحو اليمين ويمضي في شارع ألليندي، سائرًا بخطوات أكثر تباطؤًا. يرى الناس مروره، تعثره، ارتطامه بالجدار مخلفًا لطخة لا يتعرف أحد عليها حتى اليوم التالي.

- هنا خلّف الميت دمًا - ستقول النساء وهن يشرن إلى بقعة ضاربة إلى السواد.

يمضي الرجل من تعثر إلى آخر، يفقد القدرة على التوجه، يجتاز الشارع المائل ويصطدم ببسطة مقالي عند عتبة أحد البيوت. تتداعى المنضدة، والفرن النقال، وجمار الموقد، والمقلاة والمقالي وتنفصل بعضها عن بعض بدوي صاخب ويسقط كل منها في جهة، على الشارع المرصوف. يواصل الرجل طريقه، مع ازدياد تعثره في كل خطوة، وكذلك تعجله. يفتح الناس له الطريق. صاحبة منضدة المقالي تلحق به، تصل إليه، تبدأ بمطالبته، ولكن الشحوب الذي تراه فيه يكبحها وترجع يائسة لتجمع قطع المقالي.

«**مكسيكو ليندو**»، هذا ما يقوله الإعلان الضوئي. يبذل الرجل جهدًا فائقًا، يصعد درجة المدخل، يزيح رقائق الستارة الطولانية عند الباب الصغير، يدخل إلى الكباريه المليء بالدخان، يدفع زبونين جانبًا، يستند إلى إحدى المناضد فينظر إليه شاغلوها دون أن يتعرفوا عليه، يقلب كأسًا فيسقط على الأرض.

يتوقف صخب الأحاديث عندما تصرخ إحدى النساء. يتزاحم الناس. تبدأ آله الموسيقى بعزف موسيقى مامبو. يقوم شخص رصين بفصل الجهاز عن التيار. هنالك صمت. سيرافينا التي تجلس على الصندوق، تجتاز حلبة الرقص، تشق طريقها بين الفضوليين وتصل إلى المكان الذي يشكل مركز الاهتمام. تنتبه إلى أن الجثة التي على الأرض هي جثة ابن أختها.

2

ما يُعرف عن حياة أومبيرتو باريديس بالادرو، ابن آركانخيلا، فيه كثير من الثغرات مثل ما هو معروف عن موته.

ولد عام ١٩٣٩، في بيت الطاحونة. أمه آركانخيلا وأبوه رجل مجهول كل شيء عنه باستثناء أن كنيته باريديس. (لدى سؤال آركانخيلا عن ذلك الشخص تتصنع الصمم).

تقول سيرافينا إنها قبل شهور من مولده التقت بأختها في السوق ولاحظت أنها حبلى، لكنها لم تجرؤ على التعليق حول الأمر، إذ بدا لها أن فعل ذلك «سيكون إساءة احترام». وعرفتْ أن آركانخيلا قد وضعت مولودها عندما دُعيت لحضور تعميده. وهي متأكدة من أن الأم لم تأتِ في ذلك الوقت ولا في أي وقت تالٍ آخر على ذكر اسم أبي الوليد.

ترعرع الطفل في الماخور، ولكن آركانخيلا قررت أن تجعل منه رجلًا مفيدًا. كان محظورًا عليه - تقول كالافيرا - الخروج إلى الفناء، وصعود الدرج، والدخول إلى الغرف أو الإطلال على الفناء. ومنعت آركانخيلا الموظفات من أن يشرحن للطفل ما الذي يسعى إليه الرجال الذين يدخلون إلى البيت. وكان لهذه الممنوعات مفعول جيد، بحيث أن أومبيرتو باريديس دخل إلى مدرسة خوسيفا أورتيس دي دومينغيث وهو جاهل تمامًا. في يوم الدروس الأول، علمه زملاؤه الصغار الذين يعرفون من يكون. حين رجع الطفل إلى البيت سأل كالافيرا، «هل أنت عاهرة؟»، فأجابته كالافيرا بنعم، فسألها الطفل إذا ما كانت أمه عاهرة، فردت عليه كالافيرا أن لا، وأنها أم كبيرة.

في يوم الدروس الثالث، سمعت مديرة المدرسة صرخات إيقاعية في الباحة فخرجت لترى ما الذي يجري. رأت ثلاثين طفلًا يتقافزون في دائرة «مثل هنود من ذوي البشرة الحمراء» وهم يصرخون «ابن البالادرونا». وفي وسط الحلقة كان التلميذ باريديس بالادرو يبكي.

أُرسل أومبيرتو إلى بيته بمرافقة آذن المدرسة، ومغلف فيه الثلاثون بيزو التي كانت آركانخيلا قد دفعتها للتسجيل، وتوصية من المديرة ترجو الأم بأن ترسل الطفل إلى مدرسة أخرى.

حين قرأت آركانخيلا تلك الرسالة أدركت أن الوقت قد حان لتنفصل عن ابنها. وبهدف إبعاده عن الرذيلة، سجلته منذ ذلك اليوم في مدارس بمدن بعيدة، حيث لا يعرف أحد اسم الأم ولا يخامر الشك أحدًا في مهنتها.

تلك هي الفترة التي صارت فيها آركانخيلا تكتب لابنها رسائل أسبوعية،

طويلة جدًّا، بحبر أخضر على ورق مُسطر، تقدم له فيها نصائح، بأن يدهن ما وراء أذنيه بدهن للحماية من البرد، وأن ينام وقدماه باتجاه الجنوب لتجنب الإصابة بالعين، وغير ذلك، مما لا تحفظه سوى من ضاع منها ابنها. وكان يرد عليها برسائل مقتضبة، يطلب نقودًا - من غير المعروف من أين خرجت آركانخيلا بفكرة أن النقود هي أسوأ مفسد للقاصرين -. لم يكن لتلك الرسائل أي تأثير، لكن آركانخيلا مازالت تحتفظ بها حتى تاريخه في علبة صغيرة مزركشة.

بدل الطفل مدرسته الداخلية عدة مرات. في المرة الأولى، حين اكتشف المشرف بمدرسة إغناثو ألليندي، في مورداغو، وجود ثقبين في جدار الحمام الذي تستخدمه زوجته. وحسب ما كشف عنه عدة تلاميذ داخليين، عند استجوابهم، فإن الثقبين في ممر قلما يُستخدم، أحدثهما التلميذ باريديس بالادرو - كان في الثانية عشرة من العمر -، وكان يتقاضي من زملائه قطعة عملة من فئة تيستون مقابل رؤية زوجة المشرف وهي في حوض الاستحمام، وعشرين سنتافو مقابل رؤيتها جالسة على مقعد المرحاض.

بعد سنة من ذلك، شكا عدة تلاميذ في مدرسة خوان إسكوتيا، بمدينة كويفانو، لإدارة المدرسة من أن التلميذ باريديس بالادرو يستغلهم. يتقاضى بيزو أسبوعيًّا من كل واحد منهم، وإذا لم يدفعوا له، يجعل التلميذ غوتييريس كاراسكو - الشهير بالغوريلا - بضربهم.

يُعرف عنه أنه دخل كلية الطب في كويفاس، ولكنه لم ينه السنة الأولى. فقد انقطعت دراسته فجأة يوم وجه طعنة سكين إلى أحد زملائه - لم يُعرف السبب -. الواقعة جرت في إحدى قاعات الدرس، وقد جاءت الشرطة، وكانت هنالك مشكلة كبيرة. فكان على آركانخيلا أن تتدخل. دفعت تكاليف علاج الجريح وقدمت لعائلته تعويضًا كبيرًا كي يسحبوا الادعاءات - وقد حالفها الحظ بأنها تعاملت مع أناس فقراء وعقلانيين -، اشترت شهودًا، واشترت القاضي، ولم تسترح إلا بعد أن رأت ابنها طليقًا، في الشارع. أقنعها المجاز ريندون بأنه من الأفضل ذهاب أومبيرتو إلى الولايات المتحدة ريثما تنقضي الفضيحة.

أمضى أومبيرتو باريديس سنة في لوس أنجلوس. وكانت الأم تأمل بأن يتعلم الإنجليزية، وبهذه المعرفة يمكن له أن يستقر بالعمل في التجارة. فكانت توقعاتها نصف خاطئة: رجع أومبيرتو إلى سان بيدرو دي لاس كورينتيس دون معرفة كلمة إنجليزية واحدة، ولكنه أحضر معه بالمقابل بذور الخشخاش التي ستشكل مصدر دخله المستقبلي خلال السنوات القليلة المتبقية له في الحياة.

واصل أومبيرتو باريديس العيش في «**مكسيكو ليندو**»، ولكنه بتعليمات من مشغليه - كما يبدو - استأجر بيتًا في شارع لوس بريدونيس، حيث كان، ظاهريًّا، يشتري ويبيع بذورًا. أما في الواقع فلا بد أنه كان يخبئ المخدرات ويقوم بالمضاربات. ومن المناسب التنويه أن الشرطة لم تجد في البيت شيئًا يشير إلى التورط بعد موت أومبيرتو، ولم تتوصل إلى اكتشاف من الذين كان يتواصل معهم.

3

في صور أومبيرتو باريديس الثلاث المحفوظة، يظهر الوجه العريض والمسطح نفسه، الفك المتين الذي ورثه عن أمه، والشعر السبط كشعر هندي وتصعيرة المتسلط: أشبه بنوع من بينيتو خواريث الرعاع Benito Juárez. في الصورة الأولى يبدو المذكور وراء مقود سيارة البويك المكشوفة - الحمراء بلون الدم، كما يقول من رأوها - اشتراها كأول حصيلة لعمله وشكلت الترف الوحيد الذي حصل عليه في حياته. في عمق الصورة شجرة أكاسيا. وفي الصورة الثانية يظهر في لقطة جانبية بكنزة مخططة. يحمل في يده اليمنى مسدس إسكوادرا عيار ٣٥، وكان يحمله في الحقيبة اليدوية عند اغتياله. وعلى الرغم من أن آركانخيلا تؤكد أنها لم تر ابنها يستخدم سلاحًا ناريًّا قطّ، إلا أن السور الذي يظهر في عمق الصورة هو سور ملهى «**المكسيكو ليندو**» بلا ريب. في الصورة الثالثة يظهر أومبيرتو بملابس السباحة، شعره مبلل. يبتسم وهو ينظر إلى الكاميرا ويحيط بذراعه خصر امرأة، جميلة ريفية، شعرها مجعد في حلقات مصطنعة، وترتدي ملابس استحمام استعراضية.

4

تقول إنها كانت قد رأته في السيارة الحمراء، ولم تستلطفه إذ بدا لها أنه «لا يريد سوى لفت الانتباه إليه». كان أومبيرتو يرتدي قميصًا أحمر ويضع نظارة خضراء، يفتح عادم المحرك، ويضغط على النفير بكثرة، إلخ.... في أحد الأيام كانت تريد اجتياز الشارع عندما ظهر بسيارته، وقام باستدارة مفاجئة وكان على وشك أن يصدمها. حين رآها مرتعبة، أوقف السيارة، وبدل أن يعتذر، فتح الباب ودعاها إلى الصعود. لكنها واصلت طريقها لأنها شعرت بالإهانة. سار وراءها بالسيارة، على مقربة شديدة منها، دون أن يقول أيًّا من الأشياء التي يقولها الرجال للنساء في مثل هذه الحالات. أثار ذلك استغرابها. ظل وراءها بالسيارة حتى طلعة السانتواريو، حيث لا يمكن المرور إلا مشيًا على الأقدام. حين رأى أنها اتخذت طريق الصعود ترك السيارة المكشوفة ولحق بها عن بُعد، دون أن يحاول إدراكها والوصول إليها، «دون أن يقول لها أشياء بذيئة ودون الاقتراب منها بنية لمسها». وصلتْ إلى بيتها، دخلتْ، أغلقتْ الباب، صعدتْ إلى حجرتها وأطلت من النافذة لتراه، كان يقف قبالة البيت، تردد هنيهة ثم بدأ ينزل المنحدر. في الأيام التالية وصفته لعدد من صديقاتها فقلن لها ما يقال عنه: إنه ابن بالادرو، وإنه طعن فتى بمدية، وإنه كان في السجن، وإنه اضطر إلى مغادرة البلاد ريثما تنقضي الفضيحة، وإنه يتاجر بالمخدرات، فضلًا عن عدة جرائم متخيلة.

وصل الشرطي ديمتريو غييّمار إلى بيدرونيس بتعليمات محددة. مهمته تتمثل في الكشف عن الوسيط بين مزارعي الخشخاش ومن يقومون بعمليات التكرير والتنقية، وأن يجمع أدلة لبدء محاكمة. ولأن هنالك شكوكًا بأن

الوسيط يتمتع بحماية السلطات المحلية، كانت لدى غييّومار أوامر بعدم الاتصال بتلك السلطات وعدم الكشف عن سبب زيارته. سجل نفسه في الفندق الفرنسي على أنه وكيل مبيعات عقود تأمين على الحياة وأمضى عدة أسابيع في المنطقة دون التوصل إلى نتائج. وفجأة اكتشف شيئًا. لا يُعرف ما هو ولا كيف هو: ربما باقتفائه أثر بيدويّا - الذي كان قد اكتشف حقول الخشخاش وأحرق المحاصيل - وتوصل إلى أومبيرتو باريديس، الذي ظهر اسمه أول مرة في أرشيف الشرطة القضائية يوم ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر، في تقرير غييّومار.

تقول إنها تعاني كثيرًا. وإنها لا تعرف إذا ما كان عليها أن تصدق ما يقوله الناس: عن أن أومبيرتو رجل خبيث، أو ما يقوله لها قلبها: أنه لا يمكن أن يكون شريرًا من هو بمثل تلك العاطفة. ما زالت تحتفظ بإبريق خزف من كويفاس أهداه هو إليها، وتقول «حب صادق». لم توافق على الصعود معه قطّ في السيارة، حتى عندما دعاها لتناول مثلجات عند مورداغو، أولًا: لأن السيارة مكشوفة، ويمكن للناس أن يروها، وثانيًا: لاعتقادها أن ركوبها السيارة وحدها مع شاب سيُفقدها بكارتها التي كانت مصممة على الحفاظ عليها حتى الزواج. هذه المحظورات لم تترك للثنائي من سبيل آخر سوى التمشي وتبادل الحديث عبر الشوارع القريبة من النهر، وفي شوارع مشجرة ومنعزلة. في تلك المشاوير، كان أومبيرتو يروي لها أشياء عن حياته لا تتوافق مع ما يقوله الناس، مما يجعل كونشيتا ترتاب فيما إذا كان ما يقوله هو الحقيقة أم أنه يخدعها. كانت تحدثه عن المستقبل، عن مخططاتها في الزواج، عن الأبناء الذين ستنجبهم، وأية أسماء ستطلقها عليهم وأي تربية ستوفرها لهم. لم تكن تدرك أن مثل هذه الأحاديث تستثير غيظه إلى أن أمسك ذراعها بقوة ذات يوم واقتادها إلى منحدر، فطرحها أرضًا ونزع عنها سروالها الداخلي. بعد فعل ذلك، ظل أومبيرتو للحظات كمن هو خائف، فانتهزت كونتشيتا الفرصة لتخرج راكضة. لم يلحق بها. وفي اليوم التالي، كان أومبيرتو ينتظرها حيث يعرف أنها ستمر - لأن كونتشيتا تعطي دروسًا في مدرسة تديرها الراهبات - وطلب منها الصفح. فقالت له إنها لا تريد رؤيته ثانية.

قام الشرطي غوييّومار بعدة رحلات إلى سان بيدرو كورينت وتبادل الحديث عدة مرات مع أومبيرتو باريديس. ومن المحتمل أنه قد ذهب إلى البيت الذي في شارع لوس بريدونيس. ليس معروفًا ما قالاه. ربما يكون الشرطي قد تظاهر بأنه يريد أن يبيع أرضًا مزروعة أو شراء مخدرات. وربما لم يتظاهر بأي شيء وقال بكل بساطة من يكون. هناك احتمال قوي بأن العشرة آلاف بيزو التي سحبها أومبيرتو من المصرف في اليوم الأول من كانون الأول/ديسمبر قد انتهت إلى يدي الشرطي غييّومار. في الأيام التي تلتْ، توفرت لأومبيرتو كما يبدو فرصة أخيرة للهروب، ولم يستغلها.

تقول إنها تعبت من إلحاحه ووافقت على الذهاب معه إلى مركز الاستجمام البحري **إلغاراّيون**، فوضعت في البدء شرطًا بأن يقوما بالرحلة في حافلة عامة وليس بالسيارة، ولكنها بدلت رأيها حين رأت أن الحافلات تمضي

مزدحمة جدًّا، فذهبا بالسيارة. وقد عاملها أومبيرتو باحترام شديد ولم يحاول استغلالها. التقط لهما مصور جوال محترف الصورة التي تحتفظ بها. أمضيا اليوم سعيدين. وعند عودتهما إلى سان بيدرو دي لاس كورينتيس، وبينما هو يفتح لها باب السيارة لتترجل، مرَّ أخواها الاثنان. وتقول كونتشيتا إنها خشيت للحظة أن يتهجم أخواها على أومبيرتو - فقد حظرا عليها الخروج مع رجال -، ولكنهما واصلا سيرهما على الرصيف، دون أن يقوما بمجرد الالتفات، كما لو أنهما لم يريا شيئًا. هذا ما ظنته هي نفسها، ولكنها حين رجعت إلى البيت، كانا بانتظارها غاضبين. وبخاها بقسوة ومنعاها من العودة لرؤية «ابن بالادرونا».

- «إذا ما عاد هذا الرجل إلى الاقتراب منك، سوف يموت»، قال أحدهما.

بعد ذلك، رأت كونتشيتا أن أخويها قد أخرجا مسدسيهما اللذين يحتفظان بهما في أحد الأدراج، وبدآ مسحهما بالزيت.

في يوم السابع من كانون الأول/ديسمبر وصل إلى بيدرونيس الشرطي باتشيكو، وانضم إلى الشرطي غييّومار وسلّمه التعليمات التي جاء بها من المكتب المركزي لتنفيذ الاعتقال.

تقول إنه في صباح اليوم الثامن من الشهر - يوم عيد قديسها - طرق الباب رجل مجهول - من خلال الوصف يُستنتج أنه تيتشو - ومعه علبة ملفوفة كهدية أرسلها أومبيرتو باريديس. رفضت كونتشيتا تسلمها. فقد قررت عدم العودة لرؤية أومبيرتو، لأن أخويها حظرا عليها ذلك.

كان الشرطيان غييّومار وباتشيكو على وشك القيام باعتقال أومبيرتو باريديس في الساعة السابعة ليلًا، أثناء خروجه من حانة الغَلِيون يرافقه عدد من عازفي المارياتشي. لم يُقدما على اعتقاله خشية أن تكون جماعة المارياتشي أصدقاء للمتهم وأن يُبدوا مقاومة. وقررا الانتظار قليلًا وأن يُلاحقا عن قرب الجماعة التي مضت صعودًا على طلعة السانتواريو.

تقول إنها عندما سمعت عازفي المارياتشي يعزفون لحن «الجاحدة» أحست بغم كبير. كانت تعرف أن الأغنية موجهة إليها وأن أومبيرتو هو الذي يوجهها. كانت تود أن تطلب من أومبيرتو أن ينصرف، لأن أخويها في البيت وهما مسلحان. ولكنها لا تستطيع الخروج إلى الشارع لأن لديها زائرات جئن لتهنئتها وعليها أن تكون معهن. تقول إن المارياتشيين عزفوا عدة أغنيات - «خيانة»، وأغنيات أخرى - والأشخاص الذين كانوا في بيتها سألوها، بخبث:

- لمن يعزفون هذه السيرناتا يا كونتشيتا؟

تقول إنها رأت أخويها يخرجان من الصالة وينزلان إلى الفناء. وبعد قليل من إنهاء المارياتشيين عزف الأغنية الأخيرة، أطلتْ من النافذة، واستطاعت رؤيتهم يمشون نزولًا على المنحدر، وليس معم أومبيرتو، وعندئذ سمعت طرقًا على الباب، فلم تستطع تحمّل المزيد وقررت الذهاب لرؤية ما الذي يحدث. كانت تنزل على الدرج عندما سمعت صوت الطلقات. (يبدو أن الأخوين ثامورا كانا متمترسين وراء بعض الأصص. فتحا الباب بشد حبل وأطلقا النار باتجاه من كان عند العتبة، وقد كان أومبيرتو).

واصل الشرطيان غيّومار وباتشيكو متابعة من سيقبضون عليه، عن بُعد، عندما نزل المنحدر وعندما اجتاز شارع ألليندي. وعندما رأياه يدخل كباريه «**مكسيكو ليندو**»، أعطيا إنذارًا للشرطي سيغوبيانو، وكان يقف عند الناصية.

٨

الليلة المشؤومة

1

خرجت إحدى النساء من الكباريه لتخبر أمه. بانتهاء هذه الحركة، يصبح المشهد أشبه بلوحة فنية. الجميع ينظرون بافتتان إلى الجثة. ليس هناك من يتحرك إلا من يريدون الرؤية بصورة أفضل. صمت. وفجأة يُسمع الصفير. إنه الشرطي سيغوبيانو يعلن عن نفسه من الناصية. خلال هنيهة تنكسر اللحظة الحرجة. بعد التأمل المفتون والوقور للموت يأتي الرعب. الصفير يذكر جمع الزبائن بأن الشرطة موجودة ويجعلهم يندفعون نحو الباب. لا أحد يريد الظهور ضمن قائمة الشهود الذين رأوا ما حدث في الملهى. تزاحم، انتزاع الأوراق، تقويض الحاجز، الخروج إلى الشارع والتفرق. أكثر تحوطًا وحذرًا يمضون دون أن يلتفتوا إلى الوراء حتى الوصول إلى ساحة السلاح. عندما تنتهي الفوضى ويدخل الشرطي سيغوبيانو إلى المحل لا يجد سوى الجثة والنساء والنُدل. يطلق صفيرًا آخر ويقول:

- لا أحد يتحرك. أغلقوا الأبواب.

ما يلي ذلك هو شيء ما بين المحزن والممل: بينما يُنتظر مجيء الطبيب الشرعي والنائب العام، تأتي الأم التي كانت في حجرتها تسجل ملاحظات في دفترها الصغير، تدخل إلى الكباريه لترى ما الذي يحدث - أخبروها بحدوث أمر فظيع، لكنهم لم يجرؤوا على القول ما هو - وحين ترى ابنها ميتًا على الأرض، تطلق ولولات غريبة، غير مفهومة، حلقية، لم يسمع مثلها أحد من قبل ولن يُسمع مثلها فيما بعد. لا تقترب من الجثة، ولا تحتضنها بين ذراعيها، ولا تنظر إليها باكية، مثلما يمكن الافتراض، وإنما تتراجع، تجلس على حافة كرسي، تضع يديها على ركبتيها، تغمض عينيها وتصرخ.

وكيل النائب العام يوجه الأسئلة الضرورية من أجل كتابة المحضر: «أين كنتِ حضرتكِ حين سمعتِ طلقات الرصاص؟»، «لم أسمع إطلاق رصاص»؛ «كيف علمت إذًا بأن شيئًا غريبًا يحدث؟»، «رأيت ميتًا على الأرض»، إلخ...

يصل الطبيب متأخرًا، بقبعة ولفاع - إنه مزكوم -، يضع الحقيبة على الأرض ويجس نبض الجثة. يتوجه بعد ذلك إلى الهاتف ويطلب سيارة إسعاف، يغلق الهاتف، يتناول حقيبته ويمضي إلى بيته.

أشعلت النساء شمعدانات ووضعنها حول أومبيرتو. أما الوجه المتجه نحو الأعلى فغطينه بمنديل حريري أزرق. وصل طاقم سيارة الاسعاف ومعهم المِحفة، وضعوا الجسد فوقها - قالبين في أثناء ذلك شمعدانين - وخرجوا يحملونه. هنالك حشد من الناس في الشارع على الرغم من أن الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف ليلًا. وكيل للنيابة العامة يواصل الاستجواب: «وحضرتك، ماذا لاحظت؟».

2

جرى السهر على أومبيرتو باريديس بغيابه. فبينما كان جسده في المستشفى المدني، فوق منضدة، ينتظر تشريحه الطبي، اجتمعت النسوة الباكيات، متشحات بالسواد، في قاعة الطعام، وضعن الطاولة في أحد الأركان، أشعلن شموعًا، ركعن على الأرض وصلين بالمسبحة تقودهن كالافيرا التي كانت متدينة ورعة في شبابها. لم تحضر آركانخيلا السهر على الجثمان الغائب. أمضت الليلة هادئة، وحيدة وناعسة، في حجرتها المظلمة، بفضل مغلي أوراق خس أعدته لها كالافيرا لتشربه. أما النقيب بيدويّا الذي أخبرته سيرافينا هاتفيًّا بالحدث، فوصل إلى سان بيدرو دي لاس كورينتيس في الحافلة الأخيرة لشركة السهم القرمزي، دخل إلى قاعة الطعام في منتصف ترتيلة «أبانا الذي» فخلع قبعته، وجثا بركبة واحدة على الأرض ورسم إشارة الصليب، وهو ما لا يفعله إلا في حالات نادرة لأنه ملحد. بعد هنيهة، حين انتبه إلى أن المتوفى غير موجود في الغرفة، جلس على كرسي.

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، تقدمت سيرافينا، يرافقها النقيب بيدويّا والمجاز ريندون، بطلب إلى رئاسة البلدية لمنحها تصريحًا بإخراج جثمان ابن أختها من المستشفى المدني. عندئذ أخبرها رئيس البلدية، وكان صديقًا لها، بأن أمرًا قد وصل بإغلاق «**المكسيكو ليندو**». ثارت حفيظة سيرافينا أول الأمر، ولكن فيما بعد، توصل النقيب بيدويّا والمجاز ريندون إلى إقناعها بأن ما قاله رئيس البلدية لا يمكن أن يكون صحيحًا: لأنه يعادل خرق دستور الدولة.

في الساعة الرابعة مساء، بينما كان موظفو وكالة الدفن يُخرجون التابوت من البيت، وصل كاتب المحكمة ومعه التبليغ: يُسحب من آركانخيلا **بصورة نهائية** تصريح عمل «**المكسيكو ليندو**» لأن المحل لا يلتزم بأنظمة الصحة في ولاية ميسكالا: عرض نافذة مراحيض الرجال ثمانون سنتمترًا بدل أن يكون مترًا وعشرين سنتمترًا، كما يشير القانون. تُمنح المالكة مهلة أربع وعشرين ساعة من أجل إخلاء المحل.

عندما وقَّعت آركانخلا أسفل الوثيقة لتؤكد اطلاعها عليها، لم تكن تدري ما تفعله، لأن الألم شوشها. أخبر المجاز ريندون بالحدث عن طريق سيرافينا ووعد بالذهاب للبحث عن حماية. خلال موكب التشييع، تعطلت العربة التي تحمل التابوت. وقد رفض الأب غراخاليس، كاهن الدفن، أن يتلو الصلوات المعهودة، لأنه اعتبر أن المتوفى قد عاش في الخطيئة ومات دون أن يبدي أي علامة ندم صادقة. عندما ألقى عمال الدفن أول رفش تراب، أغمي على آركانخيلا.

3

عندما عادت المحزونات من المقبرة، في الساعة السادسة مساء، وجدن المجاز ريندون الذي قال لهن إن أيًّا من قضاة البلدة لم يوافق على منحهن الحماية. ولدى دخولهن إلى «**المكسيكو ليندو**» انتبهوا إلى أن القاضي توريس قد أقام مكتبًا مرتجلًا في الكباريه. وكان معه الكاتب بالعدل وطابعو آلة كاتبة. فصل القاضي الأختين بالادرو عن موظفاتهما، وجعل هؤلاء الأخيرات يدخلن الكباريه، ويجلسن على كراسٍ كان قد أمر بوضعها، متعمدًا، في أحد الأركان، وأن ينتظرن هناك دورهن للانتقال إلى الجهة الأخرى المقابلة من الصالة، حيث كان يجلس هو نفسه ومعه الكاتب بالعدل وطابعو الآلة الكاتبة. كان القاضي يوجه أسئلته بصوت خافت ويطلب من كل امرأة أن ترد بصوت خافت أيضًا على كل سؤال يوجهه إليها القاضي، ثم تخرج من الكباريه.

الأسئلة التي وجهها القاضي إلى كل واحدة من النساء هي: منذ كم من الزمن تمارسين البغاء، منذ متى تعملين مع الأختين بالادرو، هل تلقيتِ سوء معاملة، وهل تمارسين المهنة بإرادتك أو مجبرة بضغط من أشخاص آخرين.

السبع والعشرون امرأة اللاتي مررن بالاختبار أَجَبْنَ بأنهن لم يتعرضن لسوء المعاملة وأنهن يمارسن الدعارة بإرادتهن. وقد أُجري هذا الاستجواب في ظروف مناسبة تتيح للنساء أن يجبن بقول الحقيقة. وأهمية ما يعنيه هذا الكلام تتأتى من أن النساء المستجوبات أنفسهن صرحن بكلام مناقض تمامًا بعد أربعة عشر شهرًا من ذلك.

التقرير الأصلي لهذا الاختبار محفوظ في أرشيف محاكم سان بيدرو دي لاس كورينتيس.

(في الوثائق المتعلقة بموت أومبيرتو باريديس تظهر ثلاثة أمور غير نظامية: التقرير الذي رفعه النائب العام يوحي بأن العاطل عن العمل قد مات نتيجة تبادل إطلاق نار جرى داخل «**المكسيكو ليندو**»، على الرغم من أن أحدًا ممن كانوا هناك لم يقل إنه سمع صوت طلقات نارية؛ لم تجر أي محاكمة للأخوين ثامورا؛ التحريان غييّومار وباتشيكو يوافقان على أنهما قد نزلا المنحدر ملاحقين الشخص الذي لديهما أوامر بالقبض عليه، ولكنهما لا يقولان إنهما انتبها إلى أنه كان يحتضر. لا وجود لأدلة على أن السلطات قد عثرت في «**مكسيكو ليندو**» أو في بيت شارع لوس بريدونيس على أدلة تثبت أن أومبيرتو باريديس بالادرو قد عمل في تجارة المخدرات).

4

في تلك الليلة، في قاعة الطعام، تناقشت سيرافينا مع النقيب بيدويّا حول ما يجب عمله في اليوم التالي، عندما يُخلون البيت، ويبدو أن آركانخيلا لم تشارك في ذلك الحديث.

يؤكد النقيب بيدويّا أنه، بالنظر إلى أن كافة بيوت الأختين قد أُغلقت، فإنه

نصح سيرافينا بأن تصرف العاملات وأن توجه اهتمامها إلى العمل في أعمال أخرى.

يقول إن سيرافينا رفضت اتباع نصيحته لسببين اثنين. السبب الأول هو وجود قاض حاضر، وسوف يجبرها بكل تأكيد على دفع تعويض لكل واحدة من المسرحات من العمل. والسبب الثاني هو أن المجاز ريندون يرى أن إغلاق «**المكسيكو ليندو**» كان قرارًا لا مسوغ له وأنه لن يكون نهائيًّا. وسوف يبدأ المجاز ريندون الإجراءات من أجل إلغاء القرار، ووعد سيرافينا بأنها سوف تتمكن هي وأختها، خلال شهرين أو ثلاثة شهور على أبعد تقدير، من إعادة فتح مكان أعمالهما.

بعد استبعاد فكرة تسريح النساء، تبادلت سيرافينا الحديث مع النقيب حول أين سيأخذونهن ريثما يعود «**المكسيكو ليندو**» إلى العمل. درسا عدة احتمالات، ابتداء من الذهاب مع ست وعشرين امرأة إلى فندق، واستبعدا هذا الاحتمال لأنه مكلف، حتى احتمال توزيع النساء على عدة مواخير في المنطقة، وقد رفضته سيرافينا، بسبب خطورة أن المواخير المُضيفة سوف ترفض فيما بعد إعادة البضاعة. أما الحل الذي تبنياه فكان غير قانوني ولكنه بسيط جدًّا: الخروج من ماخور مغلق للدخول إلى ماخور مغلق آخر. قررا أخذ النساء إلى كازينو الدانسون، وهو بيت فيه كل وسائل الراحة، خمس عشرة غرفة، حيث يمكنهن قضاء شهرين أو ثلاثة شهور دون أن يراهن أحد. لا حاجة إلى نزع الأختام الموضوعة على الأبواب، لأنه يمكن الدخول إلى البيت بالقفز من السطح المجاور، وهو للسيدة آورورا بينابيديس، امرأة طيبة القلب لا يمكن لها أن ترفض تقديم هذا الجميل للأختين بالادرو.

5

تقول آورورا باوتيستا إن سيرافينا قد جمعتهن على سطح البيت المجاور وقالت لهن:

- هذه الليلة بالذات سنغادر. أحضرن ما تلبسنه فقط، واتركن في غرفكن كل ما عدا ذلك، لأننا سوف نرجع بعد شهرين.

وعلى الرغم من كثرة أسئلتهن لها، لم تشأ إخبارهن إلى أين ستأخذهن.

يقول النقيب بيدويا إن إسكاليرا هو صاحب فكرة أن يجلس هو، أي بيدويّا، بجانب نافذة السيارة، ويعتمر قبعة الزي العسكري، لأن شرائط الرتبة الثلاثة تحظى بالاحترام في حال قام بإيقافهم أحد من شرطة الطرق، إذا ما بدا له غريبًا رؤية قافلة من خمس سيارات على الطريق العام، عند الفجر، ممتلئة بنساء مكدسات.

تقول آورورا باوتيستا إنها كانت تجلس في السيارة، إلى جانب إسكاليرا، خارج «المكسيكو ليندو»، عندما خرج النقيب من البيت، فتح باب السيارة وجلس.

يقول النقيب بيدويّا إن الرحلة لم تكن مريحة، ولكنها بلا منغصات. وبالمقابل،

عند وصولهم إلى كونثيبثيون دي رويث وإلى شارع الاستقلال، طرقوا باب البيت رقم ٨٣ لمدة تقارب الساعة، قبل أن تستيقظ السيدة بينابيديس وتفتح لهم الباب.

تقول آورورا باوتيستا إنها رأت سيرافينا تعطي النقيب بيدويّا النقود التي أخرجتها من حقيبتها وقام النقيب بيدويّا بتوزيعها على السائقين قائلًا لهم: انسوا ما رأيتموه هذه الليلة، وإذا تذكرتموه عليكم أن تتذكروا هذا أيضًا - ووضع يده على المسدس الذي يحمله معلقًا بحزامه.

يقول النقيب بيدويا إن إحدى أشد لحظات حياته خطورة عندما كان عليه أن يقفز من سطح إلى آخر وهو يمسك بيد آركانخيلا، لأنها رفضت القفز وحدها. وكانا على وشك السقوط كلاهما.

تقول آورورا باوتيستا إنهم عندما وصلوا إلى كازينو الدانسون كان التيار الكهربائي مقطوعًا، ولم تكن لديهم شموع ولم يحملوا معهم شيئًا يأكلونه. استلقوا في الظلام ونامت امرأتان في كل غرفة. في الصباح التالي، خرج تيتشو قافزًا عبر السقف وذهب إلى السوق. فتناولوا الغداء في الساعة الثانية مساء.

6

هذا اليوم، العاشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢، عقدت السيدة آورورا بينابيديس والسيدة سيرافينا بالادرو اتفاقًا شفويًّا، توافق الأولى بمقتضاه على أن يقوم إوستيكيو ناتيرا (تيتشو) بإحداث فجوة في الجدار الذي يفصل بين بهو بيت السيدة بينابيديس وغرفة طعام بيت الأختين بالادرو، بهدف تمكين النساء اللاتي كنّ يعشن في البيت رقم ٨٥ في شارع الاستقلال أن يدخلن ويخرجن إلى الشارع عبر باب البيت رقم ٨٣، دون حاجة إلى أن يقفزن عن السطح. ومقابل تقديم هذا الجميل، تعهدت السيدة بالادرو أن تقدم للسيدة بينابيديس مبلغ مئتي بيزو في اليوم الأول من كل شهر.

في هذا اليوم بالذات جرى عقد اتفاق آخر تُوافق بمقتضاه السيدة بينابيديس على أن يقوم المدعو إوستيكيو ناتيرا بوصل سلك من تمديداتها الكهربائية من أجل إيصال التيار إلى البيت الملاصق، مقابل مبلغ عشرين بيزو شهريًّا.

جرى احترام التدبيرين كليهما من قبل الجانبين خلال ثلاثة عشر شهرًا انقضت منذ الاحتفال بالتعاقد وحتى اليوم الذي عثر فيه النقيب تيودولو كويتو على الجثث المدفونة في الفناء.

٩
الحياة السرية

1

الأبنية المعتبرة في كونثيبثيون دي رويث هي تلك الموجودة حول ساحة السلاح: القصر البلدي، المحاكم، مركز التفتيش الشرطي وفندق غوميس. تنمو في الساحة ثمان وثلاثون شجرة غار، يعتبرها كثيرون الملمح الأجمل في القرية - أما الكنائس، فالجميع يوافقون على أنها لا تساوي شيئًا -. خمس مرات في كل عام يقوم بستاني بتقليم تلك الأشجار لمنحها شكلًا اسطوانيًّا متقنًا، في محاكاة للأشجار الموجودة في حديقة الدستور، بكويفاس التي هي عاصمة الولاية.

إنها قرية صغيرة، فيها اثنتان وأربعون كتلة أبنية. ابتداء من مركزها لا يمكن المشي، في أي اتجاه، أكثر من أربعة شوارع دون الوصول إلى المزابل. وحسب دليل الهاتف، يوجد في كونثيبثيون دي كروث ثمانية وعشرون مشتركًا، أحد عشر منهم يحملون كنية غوميس.

إذا ما وقف أحدهم في أحد شوارعها ونظر نحو الشرق أو نحو الجنوب، يرى في المنظور جدران الطين، والشارع الترابي، وتتبدى له عند الأفق حقول البرسيم. أما إذا نظر باتجاه الغرب والشمال، فيرى أن الأبواب متماثلة، جميعها من خشب شجر الميسكيتي، وجميع النوافذ مختلفة، وكلها من الحديد. وهذه صنعها حداد من أهالي القرية يُقدر أنه لم يكرر أي تصميم قطّ.

وفضلًا عن النوافذ وأشجار الغار، لا يوجد أي شيء يميز هذه القرية، إذ لا تصنع فيها حتى الحلويات المغطاة. والحلويات التي تباع فيها تُجلب من مورانغاتو.

هنالك أربعة بيوت من طابقين: القصر البلدي، وفندق غوميس، و**كازينو الدانسون** وبيت السيدة بينابيديس. البناءان الأولان شُيدا في وقت واحد وجرى تدشينهما في العام ١٩١٠، خلال الاحتفالات بالذكرى المئوية. وقد مضت خمسون سنة دون أن يشعر أي من أهالي كونثيبثيون دي رويث بالحاجة إلى إضافة طابق ثان إلى بيته، إلى أن جاءت الأختان بالادرو وشيدتا كازينو الدانسون. وحين كان البناء في منتصف تشييده، قررت السيدة بينابيديس إضافة طابق آخر إلى بيتها، ليس لأنها بحاجة إلى مزيد من الغرف - فهي أرملة وتعيش وحدها - وإنما لأنها لا تتسامح مع أن يكون بيت أي من جيرانها أكثر ارتفاعًا من بيتها.

شارع الاستقلال هو الثاني ابتداء من ضفة النهر. عند الزاوية القريبة من **كازينو الدانسون** توجد مطحنة لذرة النيستامال وملحمة. وأقرب قليلًا، بعد اجتياز الشارع، يوجد كشك صغير. أصحاب هذه المحلات التجارية الثلاث كانوا يعرفون أن النساء قد رجعن وأنهن يعشن في البيت المغلق. لم يقدم أي منهم إبلاغًا إلى الشرطة.

2

لوحظت إشارات على وجود حياة في **كازينو الدانسون** من قبل الجيران ما بين ١٠ كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٦٢ ومنتصف كانون الثاني/يناير عام ١٩٦٤:

- امرأة تعيش في البيت المجاور تقول إنها كثيرًا ما كانت تسمع في الفناء أصواتًا وضجة من يغسلون ملابس. وذات مرة سمعت أصوات عدة نساء يغنين أغنية «حمامة كورّوكوكو».

- وتقول فتاة إنها قررت ذات مساء أن تقفز عن الجدار - جدار البيت الذي تظنه شاغرًا - كي تلتقط ثمار أفوكاتو. وكانت قد اعتلت الجدار، عندما رأت أن هناك نساء منحنيات، قد سبقنها إلى الثمار.

- موظف في شركة الكهرباء والطاقة يقول إنه كلما مر من شارع الاستقلال في الليل، يستغرب رؤية ضوء في نوافذ قاعة الطعام - وهي النوافذ الوحيدة المطلة على الشارع - لأنه هو نفسه قد كُلف بقطع النور عن ذلك البيت في اليوم الذي أمرت السلطات بإغلاقه.

- صاحب مطحنة ذُرة النيستامال التي عند الناصية يقول إن المرأة المدعوة كالافيرا اعتادت على المجيء إلى المتجر الذي يملكه كل يوم، وتطلب منه أن يطحن لها ستة كيلوغرامات من النيستامال وأحيانًا سبعة كيلوغرامات.

- امرأة تعيش في بيت مقابل تقول إنها في بعض الأحيان، صباحًا، بينما هي تكنس الرصيف، ترى خروج ثلاث نساء من بيت السيدة بينابيديس، يحملن سلالًا ويمضين مشيًا باتجاه السوق. وهي تعرف أن أيًّا من الثلاث ليست السيدة بينابيديس التي تعرفها جيدًا.

- الشاهدة نفسها تقول إنها تستغرب أن رجلًا عسكريًّا يتردد بكثرة على زيارة السيدة بينابيديس، وهي سيدة محافظة وشريفة، وعضو في جمعية الشمعة الأبدية.

- بيدرو تالافيرا، تاجر، يقول إنه في إحدى المناسبات التقى في حانة الأخوين باراخاس بالشخص المدعو تيتشو، الذي عمل في إحدى الفترات مراقبًا لمائدة القمار في كازينو الدانسون. ويقول إنه سأله: «وأي عمل تمارسه الآن يا صاح»، فرد عليه الآخر، «لدي بعض الدجاجات»، قال هذا وحمل كيسًا يزن ثمانين كيلوغرامًا ومضى. وقبل خروجه من بوابة الحانة، سقطت من الكيس بضع حبات فاصولياء - وهذا ليس طعام دجاجات -.

- ويقول وكيل متجول إنه التقى في محطة الشاحنات بثلاث نساء كان قد تعرف عليهن في «**المكسيكو ليندو**» ويعرف أنهن كن عاهرات. سألهن أين يعملن، بنية الذهاب لزيارتهن، فأجبنه بأنهن قد تركن تلك الحياة ويعملن الآن كعاملات، ولكنهن لم يعرفن أن يقلن في أي مصنع يعملن، مما أثار استغرابه.

- (حسب شهادات أخرى، يستخلص منها أنه حتى أيلول/سبتمبر كانت موظفات الأختين بالادرو يخرجن إلى الشارع، في مرات نادرة، في جماعات من اثنتين أو ثلاث. ولا تأتي أي من الشهادات على ذكر أنهن

يشغلن آلة الموسيقى، ولا يعرف أن أي رجل قد دخل، خلال الفترة محل اهتمامنا، إلى كازينو الدانسون بصفة زبون).

تقول كالافيرا:

في الأيام الأولى التي أمضيناها في كونثيبثيون دي رويث، بعد عودتنا، لم ترفع السيدة آركانخيلا رأسها. كانت تقضي الأيام والليالي مستلقية في سريرها، تنظر إلى السقف، في الغرفة شبه المظلمة. لم تكن نائمة ولا مستيقظة. لا تتكلم مع أحد ولا تأكل. تشرب فقط فناجين الشاي التي أُعدّها لها. وكانت السيدة سيرافينا تتولى تدبر الأمور كلها. هي من تعطيني النقود، فأمضي إلى السوق ثم أقدم لها الحسابات.

مضى على هذه الحال حوالى أسبوعين. عندئذ، نزلتُ ذات صباح إلى المطبخ لأشعل النار وسمعتُ ضجة. كانت السيدة آركانخيلا قد سبقتني، وجدتها بالقرب من الموقد، تشوي بعض قرون الفلفل الحار. نظرتْ إليّ وقالت:

- إنني جائعة.

تبدل كل شيء. سألتني كم ننفق. أرادت رؤية الحسابات.

- إنكم تبددون النقود - قالت.

تحولت إلى الاقتصاد. بدا لها سيئًا شرائي ألواح الصبار في أحد الأيام.

- إذا كان هنالك الكثير منه في جبل بالدي، فلماذا تأتين به من السوق حيث يكلف نقودًا؟ رافقي ثلاث نساء، فهن لا عمل لديهن على أية حال، واجعليهن يقطفن ألواح صبار حتى يملأن دلاء ويحملنها ويأتين بها.

لقد هيمن سوء المزاج على الفتيات، لأنهن لا يعملن.

- انظري إليهن - قالت لي ذات يوم حين رأت بعضهن يغسلن -. إنهن مثل فراخ عصافير خرجت لتوها من القشرة. يفتحن أفواههن فقط، بانتظار تقديم الطعام لهن.

في كل ليلة تسجل في كتابها ما تأكله كل واحدة من الفتيات.

(كتاب آركانخيلا هو دفتر من النوع الإيطالي، بغلاف قاس، من تلك التي يمكن الحصول عليها من أي دكان قرطاسية. محتوياته مؤرخة من حزيران/يونيو ١ حتى أيلول/سبتمبر ١٩٦٣. وتكتب آركانخيلا فيه بخط غير منمق، لكنه مقروء، وبحبر أخضر. في الصفحات الأولى تظهر حالة الحسابات الأسبوعية للموظفات: في العمود الأول الأسماء، وفي العمودين التاليين الـ «دائن/له» - أي ما تكسبه كل امرأة كعمولات في الكباريه وعمل في الغرفة -، والـ «مدين/عليه»، وحسومات مختلفة: تحت بند إيواء، طعام، ملبس، نقود معطاة. وفي الأعمدة الأخيرة تظهر الأرصدة الأسبوعية، فإذا كانت سلبية تسبب دفع فوائد بنسبة ثلاثة بالمئة شهريًا. خلال الشهور التي عاشتها النساء في كازينو الدانسون المغلق، بلا أي دخل، تراكمت عليهن ديون هائلة، تصل إلى أكثر من نصف مليون بيزو. وضعت آركانخيلا حسابات صارمة لما تدين لها به موظفاتها حتى أواسط أيلول/سبتمبر، وهي الفترة التي فقدت فيها الأمل بتقاضي الديون).

في شباط/فبراير - تواصل كالافيرا - قالت السيدة آركانخيلا إنها لا تستطيع

الاستمرار في إعالة ذلك العدد الكبير من البليدات البطالات، وقررت نقل إحدى عشرة منهن إلى دون سيرينيو بانتوخا الذي لديه أعماله في خالوستي وكان منذ زمن قد قال للسيدة إنه مستعد لشراء النساء اللاتي لا تريدهن. ولسوف أقول الحقيقة، فالسيدة باعت لدون سيرينيو أسوأ ما لديها، أشدهن مشاكسة وأكثرهن قبحًا. عندما ذهبن أحسسنا بالسعادة. يقال إن دون سيرينيو قد أعطى السيدة أحد عشر ألف بيزو.

بدأ المجاز ريندون، ممثلًا للأختين بالادرو، بالإجراءات القانونية التالية: ثلاثة التماسات متتالية ضد موظفين عامين مكرسة لإثبات أن إغلاق «**المكسيكو ليندو**» كان إجراءً مخالفًا للدستور، وجائرًا وغير لائق. أخفقت هذه الالتماسات الثلاثة لأن القاضي الذي نظر فيها اعتبرها، بدوره، غير لائقة. عندئذ طلب المجاز ريندون من المحكمة أن تحدد الغرامة التي على موكليه دفعها كي يعيدوا فتح «**المكسيكو ليندو**». تأخرت المحكمة طويلًا في التداول حول هذه الغرامة، حتى أن رواية هذه القصة ستنتهي قبل معرفة قرارها. وحين رأى أن الوقت يمضي بلا فائدة، طلب المجاز ريندون للأختين بالادرو تصريحًا لفتح محل آخر لا يكون «**المكسيكو ليندو**». رُفض طلبه بسبب عدم دفع الغرامة التي على المتقدمتين بالطلب أن تدفعاها من أجل «**المكسيكو ليندو**». هذا يعني أنهما لا تستطيعان فتح محل جديد لأنهما لم تدفعا الغرامة، ولا يمكنهما دفع الغرامة لأنهما لا تعلمان ما هي قيمتها. رفض القاضي قبول أي تأمين أو إيداع. وأخيرًا حرر المجاز ريندون كتابًا موجهًا إلى حاكم ميسكالا وموقعًا من الأختين بالادرو، مترعًا بصيغ الاحترام والتبجيل، يطلب منه تصريحًا لفتح مركز ليلي «في مدينة من الولاية تتولى حضرتك تحديدها». تنقلت هذه الورقة بصورة بطيئة من مكتب إلى آخر وعادت بعد عدة شهور إلى يدي المجاز ريندون مع كتابة باليد تقول: «يُرفض أي طلب تقدمه الموقعتان»، مع توقيع المجاز سانابريا - الرجل الذي رقص مع إسكاليرا -، السكرتير الخاص للحاكم.

المساعي القانونية التي قامت بها الأختان بالادرو في بلان دي آباخو وجدت نجاحًا أكبر. ففي شهر آذار ١٩٦٣ حررتا بيت الطاحونة وباعتاه إلى صانع سروج حوّله إلى ورشة. وتمكن النقيب بيدويّا من إقناع الأختين بوجوب استثمار المال الذي تلقتاه من الصفقة في مزرعة.

اسمي رادومير رينا راثو، من أهالي كونثيبثيون دي رويث. أنا من بعتُ للأختين بالادرو مزرعة لوس آنخيلس، ولكنني أنبه إلى أنني حين وقّعت الوثائق كنت أجهل من تكونان، وأي تجارة تمارسان، ولم أتخيل قطّ الاستخدام الذي ستحددانه للأراضي التي بعتها لهما.

حدث الأمر كما يلي: كنت بحاجة إلى دفع دين ولم يكن لدي المال، فقررت أن أبيع جزءًا من ممتلكاتي. وقد عرضتُ نيتي هذه على عدة أشخاص، وذات مساء، في حانة فندق غوميس، اقترب مني النقيب بيدويّا الذي كنت أعرفه بالرؤية فقط، وقال لي:

- كم تعطيني عمولة إذا ما حصلت لك على مشترٍ لهذه الأراضي التي تعرضها للبيع؟

قدمتُ له عرضًا، ووافق عليه وبعد يومين جاءت إلى بيتي، بسيارة من القرية، السيدتان بالادرو.

لم أتخيل قطّ أن تكونا قوادتين. بل على العكس، رأيت أنهما جديتان جدًّا فدعوتهما للدخول إلى الصالون وعرفتهما على زوجتي. كانتا ترتديان السواد. الكبرى، وهي من بدا أنها تتمتع بسلطة أكبر، كانت ترتدي عباءة، كمن ستذهب لقضاء المساء كله في الكنيسة، وتهتم بأختها كما لو أن هذه الأخيرة آنسة صغيرة. فعندما قاطعت أصغرهما ساقيها، قالت لها الكبرى: - تستري يا سيرافينا -. فأنزلت الأخرى ثوبها إلى أن غطى ركبتيها. تشكل لدى زوجتي انطباع جيد عنهما إلى حدّ أنها قدمت إليهما شراب فيرموت مع بسكويت، وقد تعاملتا معها أيضًا بكثير من الوقار، دون أن تتلفظا بأية كلمات غير مهذبة أو تكثرا من الشراب. عرضتُ عليهما بعد ذلك أخذهما إلى الأرض ورافقتنا زوجتي. من كان يمكن له أن يقول لي إنني كنت وزوجتي في السيارة نفسها مع قوادتين؟

يوم وقعنا الأوراق، جاءتا إلى مكتب توثيق العقود ومعهما كيس ورقي ملطخ ببقع دهون وأخرجتا منه مئة وخمسين ألف بيزو بأوراق نقد من فئة الخمسمئة بيزو، وسلمتاني المبلغ. كان النقيب بيدويّا حاضرًا، لكنه أومأ لي بألا أعطيه عمولته أمام السيدتين. خرجنا إلى الشارع بذريعة ما، وعندئذ دفعت له العمولة.

بعد توقيع العقود، حين غادرتا ومعهما النقيب، أخبرني موثق العقود الذي كان يعرفهما، أي نوع من النساء هما. ولكن بعد فوات الأوان، فالأوراق قد وُقعت، وأنا أحمل النقود بيدي وكنت مستعجلًا.

تقول إولاليا بالادرو دي بينتو:

كان زوجي تيوفيلو قد أضاع للتو كل ما كنا نملكه للمرة الثالثة. وعندما وصلتْ الرسالة من أختيَّ كان المجازون يصادرون أثاث الصالون. الرسالة تقول ما يلي:

العزيزة إولاليا:

نظرًا إلى أن التجارة التي عشنا عليها لسنوات طويلة تصبح في كل يوم أشد صعوبة، قررنا العمل في الزراعة. نريد من تيوفيلو، وهو الذي يعرف الكثير عن المزارع، أن يشرف لنا على، إلخ...

الرسالة كتبتها آركانخيلا، ولكنها تحمل توقيع الاثنتين. رأيت أنا وتيوفيلو فيها بارقة أمل، وفي اليوم التالي أعددنا الحقائب وذهبنا إلى كونثيبثيون دي رويث. (تقول إنهما بتعليمات من أختيها، نزلتا في فندق غوميس. تدعي أنها خلال سبعة شهور تالية من التعامل المتواتر بكثرة، لم تنتبه هي أو زوجها إلى أن أختيها تعيشان في كازينو الدانسون. وفي مساء يوم وصولهما بالذات ذهبا لرؤية المزرعة مع الأختين بالادرو، بسيارة إسكاليرا).

- في قطعة الأرض الصغيرة هذه - قالت آركانخيلا لتيوفيلو - أريدك أن تزرع زهورًا لنضعها على قبر بيتو في يوم الموتى.

كان ذلك في بداية موسم المياه وكانت أشتال الذرة قد بدأت بالظهور - تقول إولاليا -، لكن المكان بدا لي معزولًا. (تصف بيت المزرعة، مستودع المحاصيل

خرب ومتهالك، وقرميد السقف مخلع، ومشاعر الكآبة التي داهمتها حين نظرت إلى ما حولها وأدركت أن البصر غير قادر على رؤية بيت آخر مسكون).

وضع تيوفيلو - تقول إولاليا - مخططًا لما يجب عمله كي تكون المزرعة منتجة، وميزانية لما ستكون عليه التكاليف. بدا المخطط جيدًا جدًّا لأختيّ، ولكن الميزانية مرتفعة جدًّا. قدمتا لزوجي، قليلًا قليلًا، على دفعات، أقل من نصف المبالغ الضرورية، ولهذا تمكن من إصلاح البيت، ولكنه لم يستطع دفع نفقات إيصال الماء والكهرباء. استطاع إصلاح مستودع الغلال، لكن النقود لم تكن كافية لشراء الأبقار، استطاع زرع الذرة ولكنه لم يستطع زراعة البرسيم. ومقابل كل شيء كان ينقصنا قدمتا إلينا شيئًا لا نحتاج إليه.

وذات صباح جاءت أختاي إلى المزرعة ومعهما حزمة متطاولة، ملفوفة بورق جرائد. وضعتها آركانخيلا فوق منضدة المطبخ وطلبت من تيوفيلو أن يفتحها. إنها البندقية.

- إنني أقدمها لك - قالت لتيوفيلو - كي تضرب بنارها من يحاول أخذ الأبقار.

لم تكن هنالك أبقار آنذاك، ولم توجد أبقار فيما بعد.

يوم ١٤ تموز/يوليو أقامت الأختان بالادرو يومًا ريفيًّا في مزرعة «لوس آنخيليس». دعتا كاهنًا قام بمباركة الأرض المشتراة وعمدها باسمها الجديد - كانت المزرعة في السابق تسمى «إلبيتايو» -. قائمة الرجال الذي حضروا تلك الحفلة تعكس التبدل في قدر الأختين بالادرو. فبدلًا من وجود برلمانيين محليين، ورؤساء بلديات، وقادة عماليين ومدراء مصارف، كان هناك النقيب بيدويّا، ومساعد له يدعى نيكولاس الشجاع، وإسكاليرا، وتيتشو وتيوفيلو بينتو. وحضرت أيضًا خمس عشرة امرأة. وبينما هم ينتظرون وصول الكاهن الذي سيبارك الأرض، شكل الرجال والنساء فريقين مختلطين ولعبوا كرة قدم بطابة يحملها إسكاليرا في صندوق سيارته.

عندما غادر الكاهن - كان عليه الذهاب إلى حفل تعميد - فتح الحاضرون زجاجات الخمر وشربوا أنخابًا، ثم تناولوا الطعام في وقت متأخر، وكان يتألف من صلصة حمراء أعدتها كالافيرا وأرز من إعداد إولاليا. عزف إسكاليرا على الجيتار، وغنت النساء. لم يهطل مطر.

بعد ثلاثة أيام من ذلك ماتت بلانكا.

١٠
قصة بلانكا

1

(بلانكا ن: تيكومان، ١٩٣٦ - كونثيبثيون دي رويث، ١٩٦٣.)

الرمل في تيكومان أبيض، متفكك، القدمان تغوران فيه عند المشي. الشاطئ عريض. هنالك نهر كثير الحجارة يصب في البحر. في سرير ذلك النهر حفر أهالي المنطقة آبارًا في أزمنة الجفاف منذ أقدم الأزمنة التي تصل إليها الذاكرة. أهالي تيكومان هم أناس من الأراضي الداخلية ويعيشون مولين ظهرهم للبحر. الرجال يعملون في حقول الذرة التي عند أذيال الجبل، والنساء يضعن العلف للخنازير التي في الحظيرة. لا أحد يعرف أي شيء، لا أحد يجرؤ على التوغل في البحر، لا أحد ينتظر شيئًا منه. الشيء الوحيد الذي يستغلونه من البحر هو الحطب: ينتظرون أن يحمل النهرُ الحطبَ في أزمنة ارتفاع الماء ويسحبهُ إلى البحر وأن يعيد البحر قذفه إلى الشاطئ.

في البحر المنسي يظهر، من بعيد، بروز كتلتين صخريتين، وأبعد منهما سفن تمر ولا تصل مطلقًا إلى تيكومان.

العائلات كبيرة العدد. والرجال البالغون يقولون عندما يسكرون إنهم يريدون الذهاب للعمل في مكان آخر. والأبناء الذكور، حين يكبرون، يذهبون. النساء يبقين، إنما ليس جميعهن.

يمكننا أن نتخيل أن بلانكا، وهي طفلة، فعلت ما تفعله في تيكومان من هنّ في مثل سنها: تمشت على الشاطئ مع الكلب، التقطت حطبًا من شاطئ البحر، سحبت ماءً من البئر، وغير ذلك من الأعمال، إلى أن جاءت خفية إلى تيكومان امرأة عجوز، صارت تجلس في الأمسيات على كرسي من الخيزران وتظل تتطلع إلى البحر. رأت مرور الطفلة حاملة حزمة من الحطب.

ومن شاطئ البحر، تقفز القصة إلى سوق أوكامبو الريفي. إنه سوق يحضره كثير من الناس المتدينين، يذهبون للوفاء بنذور نذروها لعذراء أوكامبو. بعضهم من أجل التوبة، ينزلون حاملين أعمدة خشبية ثقيلة من الصومعة - وهذه موجودة عند ينبوع الماء المعجزة -، آخرون يمشون مقطعًا من الطريق حفاة على ألواح صبار، والنساء يجتزن على ركبهن فناء الصومعة التي أرضيتها من حجر خفان وطولها يزيد على مئة متر. القضية هي في الوصول نازفين إلى أمام التمثال الموقر: بهذه الطريقة فقط يتأكد كل منهم من أنه قد نال المغفرة أو أن معجزة ستتحقق له.

كثيرون لا يذهبون إلى السوق لدوافع دينية، وإنما للتجارة التي تجري هناك. ففي أوكامبو يباع ويشترى كل شيء خلال المهرجان: بخور، شموع الفصح، تمائم معجزات فضية، وصلوات تريدوس التي تستمر ثلاثة أيام، وخيول، وديوك مصارعة، وفدان جواميس، وامرأة.

في مهرجان أوكامبو عام ١٩٥٠، باعت خوفيتا إني، المرأة التي تجلس في الأمسيات على كرسي الخيزران وتظل تنظر إلى البحر، باعت للأختين آركانخيلا وسيرافينا بالادرو طفلة في الرابعة عشرة من العمر، تدعى بلانكا،

مقابل ثلاثمئة بيزو.

وعلى حدّ قول كالافيرا التي حضرت الصفقة، جرى الأمر في إحدى العربات التي توجد في أوكامبو ويأوي إليها الحجاج. الأختان بالادرو فحصتا الطفلة جيدًا قبل إتمام الصفقة ولم تجدا فيها سوى عيب وحيد هو أن أسنانها ملطخة بسواد - هكذا هم جميع أهالي تيكومان، لأنهم يشربون الماء الذي يستخرجونه من الآبار المحفورة في سرير النهر -، وكان ذلك سببًا للمساومة. السيدة خوفيتا طلبت أربعمئة بيزو.

في ذلك اليوم بالذات حدث شيء، حسب ما تتذكر كالافيرا بعد سنوات طويلة، له كافة خصائص فأل الشؤم. جرى الأمر كما يلي. في النزل الذي كانت تأكل فيه الأختان بالادرو خلال الأيام التي أمضتاها في أوكامبو، اعتادت الذهاب إلى النزل نفسه فتاتان أختان وصلتا إلى تلك القرية برفقة أبيهما الذي كان يؤدي مهمة. في تلك الأثناء كانت سيرافينا بحاجة إلى نساء من أجل بيت الطاحونة، وقد رأتهما حسنتي المظهر، واستغلت وقتًا كان الأب فيه غائبًا لتبدأ حديثًا معهما. قالت لهما إنها تملك متجر أحذية في بيدرونيس وإنها بحاجة إلى بائعات. عرضت عليهما العمل، وأجرًا مقداره مئتا بيزو في الشهر، وبيتًا وطعامًا. بدا على الفتاتين القادمتين من بويبلو بييخو أن إمكانية الذهاب للعيش في بيدرونيس تستثير اهتمامهما واتفقتا على حسم الأمر في اليوم التالي. هذا يعني في اليوم الذي اشترت فيه الأختان بالادرو بلانكا. فبعد شرائهما هذه ودفع ثمنها، أخذتاها لتناول الطعام في النزل. كُنَّ أربع نساء - الرابعة هي كالافيرا - وكنَّ يأكلن رزًّا، حين وصل الرجل الذي يؤدي مهمة، يرافقه بدلًا من ابنتيه، رجلا شرطة اقتادا سيرافينا جَرًّا. ظلت محبوسة في السجن البلدي أربعًا وعشرين ساعة، متهمة بمحاولة إفساد قاصرات. فكان على آركانخيلا أن تدفع مئتين وخمسين بيزو كي يطلقوا سراحها. نذير الشؤم، كما أوضحت كالافيرا، يتمثل في أن أول يوم أمضينه مع بلانكا انتهى بأول ليلية قضتها سيرافينا في السجن.

2

طبع بلانكا.

كانت مبعدة عن أسرتها بخدعة، مباعة ومشتراة، وبادئة الدعارة وهي في الرابعة عشرة، ومع ذلك، كل ما فيها يشير إلى أنها سعيدة.

ليس معروفًا ما الذي قدمته السيدة خوفيتا لبلانكا - أو ما قدمته السيدة خوفيتا إلى والدة بلانكا وما قدمته الوالدة إلى بلانكا - لحثها على مرافقة خوفيتا على امتداد أربعمئة كيلومتر تفصل تيكومان عن أوكامبو. من المرجح أنها لم تنجز وعدها، ومع ذلك، في لحظة الخيبة، عندما قامت الأختان بالادرو بتفحص بلانكا وسط منصات سوق الحجاج، لم تبدِ هذه، كما قالت كالافيرا بتقدير، أي ملمح يشير إلى الشعور بالمفاجأة أو الخجل، وقد ذهبت مع الأختين بالادرو دون اعتراض عندما قالت لها خوفيتا، بعد إبرام الصفقة:

«اذهبي مع السيدتين»، ولم تفقد شهيتها عندما اقتاد الشرطيون سيرافينا: بل كانت الوحيدة التي وجدت ما يكفي من الحماسة لتناول الحلوى. بعد أيام من ذلك، في «**المكسيكو ليندو**»، عندما شرحت لها آركانخيلا ما الذي ستكون عليه واجباتها - وهي اللحظة التي تبكي فيها كثيرات على حدّ تعبير كالافيرا -، أجابت من دون أي تردد، «مثلما تقولين حضرتك».

خلال سنوات ممارستها الدعارة لا يُذكر أنه كانت هناك أية شكوى منها، بل على العكس، كثير من الإطراء والمديح.

كانت لها عدة أسماء. ففي سجل مكافحة الأمراض الزهرية بولاية ميسكالا، كانت مسجلة باسم ماريا دي خيسوس غومس، وماريا إيلينا لارا، وبيلار كاردونا، ونورما ميندوسا، ثم بالاسم الذي احتفظت به أخيرًا حتى وفاتها ويجري تذكرها به حتى الآن: بلانكا مِدِينا.

(وإذا كانت لم تواصل تغيير اسمها، تقول كالافيرا منبهة، فليس السبب افتقادها الرغبة في ذلك، وإنما لأن الدكتور أربيّانو، المسؤول عن سجلات إحصاء النفوس، غضب غضبًا شديدًا، وقال لها باستياء إنها لا تستطيع مواصلة تغيير اسمها).

يبدو أن تنوع الأسماء وتعددها كان يتوافق مع مظاهر مختلفة من شخصيتها التي على الرغم من كونها بدائية، إلا أنها تعددية. فحسبما يصفها من عرفوها، تتلخص موهبتها الكبرى وسر نجاحها في مهارتها بأن تُبرز أمام كل رجل مواصفات معينة ينتظرها ويرغب فيها هو نفسه، دون أن يدري. وإلى ذلك ترجع التناقضات في روايات المعجبين بها. فقد جعلت أحدهم ينتظر ساعتين على منضدة الكونتوار في البار وحيدًا، بينما هي تجلس إلى إحدى الطاولات، وحيدة أيضًا، متظاهرة بانتظار «خطيبها»، وهو شخص لا وجود له ولم يأتِ بالطبع قطّ. ثم تظاهرت بأنها غاضبة، وتوجهت إلى من كان يجلس إلى منضدة البار، اقتادته إلى غرفتها واستسلمت له بنزق إيروتيكي بدا له رائعًا. ولكنها مع شخص آخر بالمقابل، وهو محام، قامت بتمزيق ربطة عنقه وهي تعريه، ثم دفعته إلى السرير وانقضت عليه. وقد خرج هذا الزبون راضيًا أيضًا.

البعض يقولون إنها تعرف كيف تستمع باهتمام وصمت، وإن لديها ما يكفي من الصبر لسماع القصص التي يروونها لها، مهما بلغ طولها. آخرون يصفونها بأنها محدثة مفوهة: فالمتهتك على سبيل المثال، يقول إنه كلما ذهب لزيارتها، على امتداد عدة شهور، كانت تروي له حلقة جديدة من قصة مختلقة. وأكثر ما يقدّره المتهتك هو أن بلانكا، خلال الفترة نفسها، كانت تروي قصة أخرى مختلفة تمامًا ومختلقة كذلك لصديق له يتردد عليها أيضًا. وبالمقابل، هنالك مهندس مناجم زار بلانكا مرة واحدة، يؤكد أنهما خاضا صراعًا لا يُنسى، استمر ساعتين، لم تتلفظ خلالهما بكلمة واحدة.

زميلاتها يتذكرنها بتقدير ومحبة. ومع أنها كانت تكسب أكبر عدد من الفيشات، فإن ذلك لم يكن مسوغًا للحسد. تنوه بخدمات زميلاتها الأقل حظًّا وتفسح المجال لأي واحدة منهن للحصول على فرصة. ليس هناك من يتذكرها تشد شعر فتاة أخرى بدافع الغيرة أو الجشع. وكانت تهدي ملابسها

لأخريات في وقت تكون فيه تلك الملابس لا تزال في حالة جيدة. كانت المعلمتان وكالابيرا يعبدنها.

كان معروفًا أن الأمر الذي يثبط بلانكا هو أسنانها الملطخة، وهو ما سيفسح المجال لترفها الوحيد. لقد ادخرت نقودًا على امتداد سنوات، وعندما توافر لديها ما يكفي ذهبت إلى طبيب أسنان مشهور من بيدرونيس ركّب لها أربعة أسنان ذهبية بدل القواطع العلوية. لا بد أن هذا الأمر المستجد قد غيّر من مظهر بلانكا، ولكنه لم يشوهها. وحسب رأي المتهتك الذي عرفها بأسنانها الملطخة، وبلا أسنان - خلال الأيام التي انتزعوا بها بعض الأسنان لتركيب الأسنان الأخرى -، وبأسنان ذهبية، لا يستطيع أن يقول بأي حال تعجبه أكثر. بريق الذهب لم يفعل شيئًا سوى إبراز جمالها العجيب: لقد كانت بلانكا زنجية.

3

القصة التي روتها بلانكا للمتهتك:

قالت بلانكا إنها كانت قد خرجت إلى الشارع، ووصلت إلى ساحة السلاح وجلست على مقعد هناك. مر رجلٌ بدا لها وسيمًا جدًّا، وعاد للمرور ثم عاد للمرور، إلى أن جلس على المقعد المقابل وظل ينظر إليها. رجعت بلانكا إلى البيت، دون أن يتجرأ الآخر على التكلم معها. في اليوم التالي رجعت بلانكا إلى ساحة السلاح وعاد الرجل للمشي قبالتها، والجلوس والنظر إليها. في اليوم الثالث اقترب الرجل منها وقال إنه لاعب كرة قدم وسألها من تكون. فقالت له إنها نادلة في أحد المطاعم. قال إنه يريد الزواج منها. فقالت إن ذلك محال، لأن لها أمًّا مريضة (؟).

تلت ذلك فصول بدأ فيها الرجل يلح عليها ويلاحقها، وقد صار على وشك أن يعرف مهنتها الحقيقية. يدعوها إلى مطعم أصداف بحرية، فتتناول عدة كؤوس بيرة، وتفقد الذاكرة، وعندما تستعيد وعيها تشعر بغم عدم معرفتها إذا ما كانت قد قالت خلال غيبوبتها: «آي، يا للعنة، أنا عاهرة!». أو ربما يصل الرجل مع لاعبي كرة قدم آخرين إلى «**المكسيكو ليندو**» وسيكون عليها عندئذ أن تختبئ تحت منضدة، وغير ذلك.

القصة انتهت عندما وصل المتهتك ذات ليلة إلى الكباريه ووجد بلانكا حزينة، يسألها عن سبب الحزن فتقول إن لاعب كرة القدم قد مات. تُتبع ذلك بوصف تفصيلي دقيق طبيعي، حادث دموي وقع على الطريق. منذ تلك الليلة لم تعد بلانكا إلى ذكر لاعب كرة القدم ولم يعد المتهتك يجرؤ على سؤالها عن المتوفى.

4

مرضها:

في شهر سبتمبر ١٩٦٢ - جرى إغلاق مواخير بلان دي آباخو، جميع النساء كن يعشن ويعملن في «**المكسيكو ليندو**» - انتبهت بلانكا إلى أنها حبلى. لم تكن المرة الأولى. وكما في مناسبات سابقة، طلبت مساعدة كالافيرا التي قامت، حسب تصريحها، بإعداد مغلي أوراق عشبة القيسوم الذكر مع عشبة السذَّاب، وتناولته المريضة ساخنًا، مقدار فنجان، وثلاث مرات في اليوم. هذا العلاج الذي كانت كالافيرا قد أعدته مرات كثيرة وجرى استخدامه بنتائج رائعة من قبل معظم النساء اللاتي يعملن مع الأختين بالادرو، كان يعتبر وسيلة مؤكدة لإحداث الإجهاض. تناولته بلانكا طوال شهرين دون أن يؤدي إلى أي نتيجة، ولهذا قررت أن تستشير الأختين بالادرو بشأن حالتها. نصحتها سيرافينا بالخضوع لعملية وقالت لها إنها ستتولى هي وأختها دفع أتعاب الطبيب.

الطبيب آرييّانو الذي يظهر توقيعه أسفل عدة وثائق كانت بحوزة آركانخيلا، وافق على إحداث الاجهاض مقابل تلك الوثائق، بعد أن توسل وحذر من أن العملية ستكون خطيرة لأن الحمل متقدم جدًّا. أجرى العملية لبلانكا في حجرتها، وبمساعدة كالافيرا، في أحد أيام شهر تشرين الثاني/نوفمبر. كان النجاح جزئيًّا، لأنه أحدث الإجهاض، ولكنه تسبب معه بحالة نزف غزير ومتواصل عزاه الطبيب إلى عدم الاستقرار الدموي لدى المريضة بسبب علاجها المسبق بعشبة القيسوم الذكر والسذاب. ومن أجل إيقاف النزيف اضطر إلى إعطاء المريضة ثمانية حقن فيتامين K. في الساعة الحادية عشرة ليلًا، توقف النزيف وظن الجميع أن بلانكا قد نجت. فغادر الطبيب إلى بيته بعد أن سلمته آركانخيلا وثائقه. ذهبت سيرافينا وآركانخيلا للإشراف على العمل في الكباريه، وكالافيرا للعمل في الغرف. وظلت المريضة وحدها، نائمة. في اليوم التالي، عندما دخلت كالافيرا إلى الحجرة حاملة كأس عصير برتقال، لاحظت أن ملامح وجه بلانكا قد فقدت تناسقها. الفحص الذي أُجري فيما بعد أثبت أن الجانب الأيسر من بلانكا كان مشلولًا.

رفض الدكتور آرييّانو زيارة المريضة، مما دفع سيرافينا إلى الاتصال بالدكتور آبُدوليو مينيسيس. وعلى الرغم من مشيئة آركانخيلا التي تخشى زيادة التكاليف والتعقيدات، فحص الدكتور بلانكا، وبعد أن وجه عدة أسئلة خرقاء حول أصل المرض - ولا بد أنه تلقى أجوبة أكثر خراقة من أسئلته - اقترح نقل المريضة إلى غرفة في مصحته الخاصة، بهدف إخضاعها لعلاج مكثف.

قُبلت بلانكا في مصحة سيدتنا عذار البيلار - المشهورة بتقديمها أفضل رعاية في المنطقة - يوم ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢. وفي وثائق قبول دخولها المصحة، تظهر سيرافينا بالادرو على أنها قريبتها المقربة جدًّا والمسؤولة عن دفع الحساب. في يومي ٥ و٦ قامت عدة زميلات لبلانكا في العمل بزيارتها ووجدوا أنها قد تحسنت كثيرًا، وفي يوم ٧، حمل إليها المتهتك باقة ورود حمراء، ولم يستطع كبح إيماءة ذعر - على حدّ قول ممرضة رأته - لما رآه عليها من تشوه شديد، في ليلة ٨ اغتالوا بيتو، وفي يوم ١٩ أغلق «المكسيكو ليندو»، ويوم ١١ يئس الدكتور مينيسيس من تقاضيه الحساب

وقرر وقف علاج بلانكا وإخراجها من المستشفى.

وثائق خروجها من مصحة سيدتنا عذار البيلار تعطي الانطباع بأن بعض أقرباء المريضة قد أخذوها - هنالك توقيع غير مقروء -. وفي ذلك اليوم بالذات أُدخلت بلانكا إلى المستشفى المدني بسان بيدرو دي لاس كورينتيس باسم ماريا مينديث - الاسم الوحيد الذي حملته وهي حية دون أن تكون هي نفسها من اختلقته -، دون أن يظهر في بطاقة الدخول اسم أي قريب أو اسم الدكتور آبُدوليو مينيسيس.

في كانون الثاني/يناير، أراد المتهتك زيارة بلانكا، فأخبره قسم الاستقبال في مصحة سيدتنا عذراء البيلار بأن المريضة قد أُخرجت من المستشفى وأخذها أقرباؤها. توقع المتهتك أن تكون بلانكا سليمة ومعافاة مع الأختين بالادرو ولم يُلح في البحث عنها. كان واثقًا من أن الأختين لن تتأخرا في الظهور مجددًا، وفتح تجارة لهما في ضواحي سان بيدرو أو في قرية أخرى من قرى المنطقة، وعندما تفعلان ذلك ستتصلان به لأنه أحد أكثر الزبائن مواظبة. نسيت الأختان بالادرو بدورهما بلانكا لبعض الوقت، بتأثير غمّ أم بيتو، وإغلاق «**المكسيكو ليندو**» وبلبلة الانتقال. وعندما تذكرتاها أخيرًا، افترضتا أنها في مصحة سيدتنا عذراء البيلار، مع قائمة حساب طويلة جدًّا كانت سيرافينا قد وعدت بتسديدها. هذا الاعتبار الأخير جعلهما تتخليان عن محاولة زيارتها أو التقصي عن حالتها.

وهكذا حلّ شهر آذار/مارس، وهو الشهر الذي اضطر فيه المتهتك للذهاب إلى كونثيبثيون دي رويث لقبض نقود طالت المماطلة في دفعها - من بيع قطع غيار للسيارات -. وبعد إنجازه العمل التجاري، في لحظة نوستالجيا إيروتيكية، رغب في أن يرى مرة أخرى واجهة كازينو الدانسون. ترك السيارة في ساحة السلاح، ومشى حتى شارع الاستقلال، وكان يقف قبالة الباب المغلق، عندما رأى متفاجئًا أن كالافيرا تخرج من باب البيت المجاور، وكانت ذاهبة لشراء سمن. تعانقا كأصدقاء قدماء، أخبرته كالافيرا بأكذوبتين - إنها خارجة من زيارة للسيدة بينابيديس التي هي صديقتها، وأنها هي والنساء الأخريات يعشن في مويرداغو -. سألها المتهتك عن بلانكا، فقالت له إنها في مصحة سيدتنا عذراء البيلار... وهكذا انتبهوا إلى أن بلانكا قد اختفت. وبينما هما يمضيان معًا باتجاه محل اللحوم قررا البحث عنها، وخطر للمتهتك إخبار الشرطة، فتوسلت إليه كالافيرا ألا يفعل - ولكي توضح له سبب كل ذلك التكتم، اضطرت إلى إخباره بالمكان الذي تعيش فيه الأختان بالادرو وهي نفسها والنساء الأخريات -. تدخل المتهتك للبحث عن بلانكا بنفسه، بتكتم والإبلاغ عن النتائج، حين يحصل عليها، عبر هاتف محل السيارات الذي يعمل فيه إسكاليرا.

بعد ثلاثة أيام من هذا الحديث وجد المتهتك بلانكا في أول مكان بحث عنها فيه: في قاعة النساء في المستشفى المدني. لم تكن مجرد ظل للمرأة التي كانت عليها حين عرفها: كان وجه المريضة قد تحول إلى حالة مضحكة وقدراتها الذهنية قد تأثرت، وتجد مشقة في المعرفة والتعرف. أما كلامها،

بسبب شلل نصف فمها، فيكاد ألا يكون مفهومًا.
أصيب المتهتك بالذهول نتيجة بحثه، فأخبر كالافيرا عبر الطريقة التي اتفقا عليها، ولم يشأ معرفة المزيد عن بلانكا.

5

زارت كالافيرا بلانكا في اليوم التالي. وعندما رأى مدير المستشفى أن هناك زائرًا لدى المريضة ماريا، استدعى كالافيرا جانبًا وقال لها إن الحالة ميؤوس منها، ورجاها أن تخبر أقرباءها بأن يأتوا ليأخذوها، لأن هناك حالات في الانتظار تستحق السرير أكثر منها.
في اليوم التالي جاءت الأختان بالادرو إلى المستشفى المدني في سيارة إسكاليرا، وقعتا الأوراق، وحملتا بلانكا لتعيش معهما في بيت كازينو الدانسون.
وحسب الشهادات، كانت امرأتان تُنزلان بلانكا في الصباح من غرفتها وتوصلانها إلى الفناء حيث تتركانها تتلقى أشعة الشمس لبعض الوقت، متقوقعة على نفسها فوق دكة خشبية، ثم تصعدان بها بعد ذلك إلى حجرتها. كانت هيكلًا عظميًّا، تتغذى على عصيدة من دقيق الذرة تُعدها لها كالافيرا، ولا تبدي ما يشير إلى أنها تفهم ما تسمعه، ولا يُفهم ما تقوله هي.
في شهر أيار، وكانت آركانخيلا تشكو بصورة دائمة من النفقات الكثيرة التي عليها أن تدفعها لإقامة أود كل تلك الأفواه مع غياب المداخيل، فقررت، بما أن بلانكا لا تستطيع المضغ، أن من الأفضل انتزاع أسنانها الذهبية وبيعها، كتعويض عن الأمور التي تحدث بسببها. ولهذا الغرض دخلت في صباح أحد الأيام إلى حجرة بلانكا وأرادت أن تنزع أسنانها الذهبية، ولكن الأخرى أطبقت فمها بطريقة اضطرت معها آركانخيلا، بعد أن حاولت لبعض الوقت، إلى التخلي عن مسعاها.
في يوم ٥ حزيران قامت كالافيرا برحلة إلى بيدرونيس واستشارت السيدة توماسا ن، وهي مداوية مشهورة، عن علاج للشلل. وكانت توماسا ن هي من شرحت لها طريقة العلاج التي ستُرى فيما بعد وأوصت بها باعتبارها طريقة فعالة. لدى عودتها إلى كونثيبثيون دي رويث، طلبت كالافيرا من سيدتيها أن تسمحا لها بمحاولة تجريب طريقة في العلاج ووافقتا على طلبها.
(مرت عدة أيام وكالافيرا ونساء أخريات منكبات على تهيئة صلصة المولي [الفلفل الحار] الذي سيُستهلك في حفلة مباركة المزرعة).
حلّ يوم السابع عشر من تموز/يوليو. جمع تيتشو قوائم ثلاث طاولات كي يمنحها صلابة ويضعها في وسط الكباريه، وهو المكان الذي اعتبرته كالافيرا الأكثر ملاءمة من أجل تطبيق المداواة. وبإنهاء هذا العمل، يخرج تيتشو إلى الشارع وهو لا يدري ما الذي سيحدث بعد ذلك. في الساعة الحادية عشرة يتم إشعال النار في مجمرين ويوضعان على جانبي المناضد. مارتا وروسا وإيفيليا وفيليثا اللاتي يقمن بدور المساعدات لكالافيرا، يُنزلن المريضة من

حجرتها، يعرينها ويضعنها فوق المناضد الثلاث. وبينما تضع المساعدات ست مكاوٍ حديدية لتسخينها فِي المجامر، تقوم كالافيرا بتدليك جسد المريضة بصباغ من قشر شجر الكاثهواتي. تقيّد المساعِدات المريضة إلى المناضد بملاءتين. الأختان بالادرو تشاهدان العلاج من الشرفة التي في الجزء العلوي من الكباريه. تغطي المعاونات جسد المريضة بملاءة خفيفة من الفانيلا. مارتا التي تحمل إبريقًا في يدها، مكلفة بتضميخ الملاءة بالماء، وفوق الملاءة تقوم كالافيرا بوضع المكاوي الساخنة، وروسا هي من تبدل المكاوي كلما بردت، وعلى إيفيليا وفيليثا أن تُثبِّتا المريضة عندما تتلوى.

الوصفة تقول: وضع المكوى وهو ساخن جدًّا، على الملاءة الرطبة، فوق الجانب المشلول من المريضة، إلى أن تكتسب الملاءة لون قهوة قاتمًا.

بدا في البداية أن العلاج سوف ينجح. فالمريضة لم تصرخ فقط بتماسك أكبر مما كانت عليه لدى التكلم خلال الشهور الماضية، وإنما لوحظ لدى وضع المكاوي عليها أنها تحرك عضلات في جسدها كانت مشلولة لوقت طويل. بعد ذلك فقدت المريضة الوعي. من يعالجنها حاولن جعلها تعود إلى وعيها بإعطائها قليلًا من الكوكا كولا، ولكنهن لم يستطعن جعلها تبتلع الشراب: كان السائل ينزلق من بين شفتيها. فترددت كالافيرا للحظات ما بين وقف العلاج أو المتابعة قُدمًا. اختارت الخيار الثاني وواصلت وضع المكاوي إلى أن اكتسبت الملاءة لون القهوة القاتمة الذي أوصت به السيدة توماسا. حاولن مرة أخرى إعطاءها كوكا كولا بلا جدوى. وحين سحبوا الملاءة عن جسد المريضة رأين، باستهجان، أن الجلد قد التصق بالقماش.

- غطينها، غطينها! - يقولون إن سيرافينا صرخت بهن من الشرفة.

ذهبت إحدى النساء راكضة لإحضار ملاءة أخرى. قامت الآخريات بفك أربطة تثبيت المريضة. وعندما غُطي بدنها من جديد، تعاونَّ لحملها فيما بينهن والصعود بها إلى حجرتها ووسدنها في السرير. لم تعد إلى وعيها. من حاولن علاجها والسيدتين رافقنها حتى الساعة الثانية عشرة ليلًا، وهو الوقت الذي توقفت فيه عن التنفس.

١١
رؤى متعددة

1

تقول ماريا ديل كارمن ريغوليث إن كالافيرا قالت لها ولثلاث نساء أخريات، في ذلك اليوم، بعد تناول الغداء:

- اخرجن للنزهة، قمن بجولة مشي، وإذا توافر لكنَّ فائض من الوقت اذهبن إلى السوق وتأملن الخضار لبعض الوقت. لا ترجعن إلى هذا البيت قبل الساعة الخامسة مساء.

أعطت كل واحدة منهن بيزو كي يأكلن. استغربت النساء الأمر، ولكنهن أطعنها. مضت النساء الأربع مشيًا عبر شارع كواوتيموك ومررن أمام ورشة ميكانيك حيث يعمل ثلاثة فتيان يعرفونهن، وحين رأى الفتيان مرورهن ساروا خلفهن «وهم يتلفظون ببذاءات». خرجن من القرية ومضين باتجاه عين الماء، حيث أدركهن الشبان و«استغلوهن» وراء بعض القصب. وبعد أن تناولن الطعام في السوق، تجولن في الساحة حتى الساعة الخامسة.

عندما رجعن إلى كازينو الدانسون. دخلن إلى المطبخ بنية إخبار كالافيرا بأنهن قد رجعن. لم يكن هناك أحد في المطبخ، ولا أي أثر لطعام، ولم يكن الموقد مشتعلًا، ولم يكن ثمة فحم في الموقد.

خرجت ماريا دل كارمن إلى الفناء لتأتي بملابس تركتها معلقة على حبل الغسيل. لاحظت أن دكة بلانكا الخشبية ليست موجودة تحت شجرة الليمون، وإنما إلى جانب باب الكباريه المغلق.

حين رجعت إلى المطبخ وجدت نساء أخريات كن قد خرجن كذلك إلى الشارع ورجعن - في ذلك اليوم خرجت إحدى عشرة امرأة إلى الشارع، وهو أمر لا يحدث إلا في حالات نادرة جدًا -.

تقول إنها حين صعدت إلى حجرتها سمعت أصواتًا في حجرة بلانكا، فشعرت بالفضول، ولكنها لم تجرؤ على الدخول إذ بدا لها أن بين الأصوات يُسمع صوتا السيدتين ربتي العمل. ظلت في حجرتها لبعض الوقت، بعد ذلك سمعتْ ضجة في الممر، ففتحت الباب قليلًا ورأت من خلال الفتحة آركانخيلا وكالافيرا تمضيان باتجاه السلّم. وسمعت آركانخيلا تقول:

- أنت المذنبة.

في تلك الليلة لم يكن هنالك عشاء، شاي من أوراق البرتقال وحسب. عدة نساء سألن فيليثا عما حدث، ولكنها لم تشأ إخبارهن. انتشرت إشاعة أن حالة بلانكا قد ساءت. عندما صعدت إلى حجرتها - تقول ماريا دل كارمن - لاحظتُ أن الدكة الخشبية لم تعد موجودة إلى جانب باب الكباريه.

تقول إنها نامت هنيهة، لكن الجوع أيقظها. سمعت أصواتًا ووقع خطوات. أرادت النهوض لترى ما الذي يحدث، ولكنها قبل عمل ذلك استغرقت في إغفاءة عميقة مرة أخرى.

في الصباح، استيقظت ماريا دل كارمن باكرًا - وجائعة مرة أخرى - فنزلت إلى المطبخ. كانت كالافيرا قد أشعلت الأضواء وكانت تقدم لتيتشو وجبة فطور

من قطع لحم رقيقة مع صلصة خضراء. سألتهما ماريا دل كارمن عما إذا كانت بلانكا قد ازدادت مرضًا فردت عليها كالافيرا:

- إنها مريضة إلى حدّ اضطررنا معه إلى حملها إلى المستشفى مرة أخرى.

وتقول ماريا دل كارمن إنها صدقت طوال عدة أيام أن ما قالته كالافيرا هو الحقيقة.

2

يقول تيتشو، مشيرًا إلى الأحداث التي جرت في النهار والليلة السابقين، إنه بعد ربط قوائم المناضد الثلاث حيث أمرته كالافيرا، طلب إذنًا منها ليذهب إلى العمل. (منذ إغلاق «**المكسيكو ليندو**» لم تعد الأختان بالادرو تدفعان أجرًا لتيتشو، وبالتالي كان عليه أن يقوم بأعمال التحميل كي يحصل على أجر).

يروي أنه ذهب إلى مستودع الأخوين باراخاس وقام بتحميل صناديق طماطم، وأكياس فلفل مجفف وأجولة بطاطس، من غرف يقطر فيها الماء إلى غرف أخرى جافة، وأنه توقف عن العمل في الساعة الثانية مساء ليجتاز الشارع إلى السوق ويأكل هناك شطيرة تاكو أحشاء، ثم رجع إلى المستودع وظل يُحمّل حزمًا وأكياسًا حتى الساعة الثامنة ليلًا، وهو الوقت الذي أعرب فيه المسؤول عن رضاه وأعطاه عشرين بيزو كان قد وعده بها.

يقول إنه عند عودته إلى كازينو الدانسون لم يجد أحدًا ليخبره بأنه قد رجع - وهو يعني الأختين بالادرو أو كالافيرا -، فدخل إلى المطبخ، ورأى أنه لا يوجد طعام ودخل إلى دهليز الفحم، حيث يقيم. استلقى على الفراش الضيق ونام. ويقول:

- لا أعرف أن أقول كم كانت الساعة عندما استيقظت. كانت كالافيرا عند باب دهليز الفحم تحمل مصباح النفط في يدها. قلت لها «كالافيريتا» وبدأت أرفع تنورتها. ولكنها لم تشأ. لم تقل لي سوى «تعال» وذهبتْ. ظننت أنها ستقدم لي طعامًا فمشيت وراءها، ولكنها بدل أن تأخذني إلى المطبخ اقتادتني إلى حظيرة الفناء، وهناك توقفت وقالت لي:

- اذهب إلى الخزانة وأحضر رفشًا ومعولًا.

عندما رأتْ كالافيرا أنني قد جئت حاملًا الأدوات، بدأتْ المشي ولحقتُ بها. لم يكن هنالك ضوء سوى نور المصباح؛ وهو لا يتيح لي أن أرى أبعد من تنورة كالافيرا. وصلنا إلى الجانب الآخر من الفناء (الزاوية الشمالية الشرقية) حيث وضعتْ المصباح على الأرض وقالت لي:

- أريد منك أن تقوم بالعمل بصمت. (أمرته أن يحفر حفرة مستطيلة، خطوتان طولًا وخطوة واحدة عرضًا، وبعمق يكون إبطا تيتشو على مستوى سطح الأرض وهو واقف في الحفرة. بعد أن أعطت هذه التعليمات، عادت كالافيرا إلى البيت. حفر تيتشو بسهولة في أرض الحظيرة الطرية، ولكن عندما بدأ المعول يضرب في طبقة صلبة من الحجر الخفاني، خرجت آركانخيلا وكالافيرا من البيت وأمرتاه بأن يوقف العمل). لم يكن عمق الحفرة قد وصل إلى متر واحد بعد. ويواصل تيتشو:

- السيدة آركانخيلا قالت: دع الحفرة على ما هي عليه. فالأسوأ أن يستيقظ الجيران.

أخذتني كالافيرا إلى المطبخ، أعدت لي بيضة مقلية وقدمت لي فنجان

شاي من أوراق البرتقال، أضافت إليه رشفة خمر. وعدت أنا إلى القول لها «كالافيريتا» وعاودت هي عدم الموافقة، ولهذا رجعتُ إلى دهليز الفحم ونمت من جديد.

استيقظتُ مع بدء انتشار الضياء. كانت كالافيرا عند باب مستودع الفحم تحمل مصباح بترول في يدها. قلت لها «كالافيريتا» مرة أخرى فعادت إلى التفلت والقول لي «تعال».

ذهبنا إلى الجانب الآخر من الحظيرة. انتبهت إلى أن هنالك من يلقي التراب في الحفرة التي حفرتُها، وقد ردم نصفها تقريبًا.

أريدكَ أن تكمل ردم هذه الحفرة - قالت لي كالافيرا - وأن تسوي الأرض وتدكها بجذع الميسكيتي. وإذا زاد بعض التراب، اسمعني جيدًا، أريد منك أن تنثره بالرفش في المكان، بحيث لا ينتبه أحد إلى أن حفرة كانت توجد هنا.

أنجزتُ العمل مثلما أمرتني. وعندما رأت كالافيرا أن الحفرة قد رُدمت، وأن الأرض قد دُكت وسُويت وأن بقية التراب قد نُثرت في الحظيرة، كان النهار قد طلع. أخذتني إلى المطبخ وقدمت لي فطورًا من قطع لحم مقلية بالشحم الذي كانت قد أعدّته للتو. وبينما أنا آكله، دخلت إلى المطبخ إحدى الفتيات وسألت كالافيرا عن حال بلانكا. فأجابتها كالافيرا بأن مرضها قد تفاقم واضطررنا إلى أخذها إلى المستشفى مرة أخرى. عندئذ فهمت ما الذي كانت تفعله طوال الليل.

يقول النقيب بيدويّا:

يوم ١٧ تموز/يوليو حاضر في ذهني لأنه كان يوم مشاغل كثيرة. فالرائد مارين الذي يأتي بالرواتب تأخر يومين ووصل إلى ثكنة كونثيبثيون دي رويث في الوقت نفسه الذي وصلتْ فيه شاحنة النقود، وكان وصولها مقررًا في اليوم العشرين من الشهر. (يوضح أن عملية التفريغ تأخرت لأن أنظمة المفرزة تستدعي الانتظام في صفوف وإجراء تفقد قبل تلقي الرواتب). خرجتُ من الثكنة قبل وقت قصير جدًّا يكاد لا يكفي للوصول ركضًا إلى مكتب التلغراف قبل أن يُغلقوا قسم التحويلات المالية. (اشترى النقيب حوالة بخمسين بيزو باسم الطفلة كارميليتا بيدويّا - ابنته - وأرفقها برسالة تقول «مع تهنئة من باباكِ في يوم عيد القديسة التي تحملين اسمها). إنها موجهة إلى شارع في منطقة آتزكابوسالكو. لم يبعث النقيب بيدويّا هدية ولا رسالة إلى زوجته، وهي تُدعى كارمن أيضًا. ويُلاحظ أن النقيب الذي يملك نقودًا في المصرف، يفضل أن ينتظر إلى أن يصل الرائد مارين بالراتب نصف الشهري، ويرسل الهدية إلى ابنته متأخرة يومًا عن الموعد). ومن مكتب التلغراف - يواصل بيدويّا - ذهبتُ إلى بيت سيرافينا.

وجدتها في قاعة الطعام، مرتجفة وخائفة. سألتها عما حدث لها فقالت إنها مرت بيوم عصيب لأن حالة بلانكا حرجة جدًّا. رأيتها شديدة العصبية فودعتها، تناولت العشاء في فندق غوميس وأمضيت الليل في الثكنة. في اليوم التالي قالت لي سيرافينا إنهم اضطروا إلى نقل بلانكا إلى المستشفى.

- آمل أن يكون المدني - قلت لها.

فردت عليّ بأنهم قد أخذوها فعلًا إلى المستشفى المدني.
كان النقيب بيدويّا يرى على الدوام أنه من الجنون أن تنفق الأختان بالادرو نقودًا على بلانكا. فعندما أدخلوها إلى مصحة الدكتور مينيسيس، هناك عدة شهود سمعوا النقيب يعلق قائلًا ما يلي:

- إنه تبديد للنقود. قد تتمكن هذه المرأة من العودة للمشي، ولكن لا يمكن لأحد أن يعيد وجهها إلى ما كان عليه، وما نفع مومس تثير رؤيتها الخوف؟

عندما نُقلت بلانكا إلى كازينو الدانسون وهي مريضة، فضّلت سيرافينا ألا تقول شيئًا للنقيب، إلى أن خرج هو نفسه في أحد الأيام إلى الفناء ووجد المشلولة مضجعة في المذود الخشبي، تحت شجرة الليمون.

- ما هذا؟ - يقولون إنه سأل عدة نساء كنّ هناك قريبات منه.

فقلن له إنها بلانكا. عندئذ قال النقيب:

- هذه المرأة لم تعد تنفع. ما عليهم عمله هو استدعاء تيتشو ليحملها في الليل إلى المزابل ويتركها هناك، كي تأكلها الكلاب.

(ربما كانت تعليقات النقيب تلك هي السبب في أن سيرافينا فضلت عدم الكشف له عن مصير بلانكا).

يقول النقيب:

في إحدى ليالي بدايات آب/أغسطس، بينما نحن في الفراش، وكان الظلام قد خيم، قالت لي سيرافينا إنها آخذة بفقدان الأمل بالقدرة على إعادة فتح تجارتها. وقد راق لي أنها بدأت ترى الحق. لأنني كنت قد فقدت ذلك الأمل منذ زمن بعيد. ولكن لم يخطر لي أن أسألها عن سبب تحولها إلى التفكير على هذا النحو.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ بمزاج رائق، ارتديت البنطال والسترة الخفيفة وخرجت إلى الممر لتنفس هواء الصباح البارد. كان يومًا بلا غيوم، كما لو أنه أحد أيام فصل الجفاف. ولهذا نظرتُ إلى السماء ورأيت العقبان. كانا عقابين اثنين يحلقان في دوائر، حول نقطة تبدو كما لو أنها فوق رأسي.

أقسم لك أنني ملحد، ولكن راودني شعور شديد القبح جعلني أرسم إشارة الصليب.

مقطع من المواجهة بين آورورا باوتيستا وإوستيكيو ناتيرا، الشهير بتيتشو:

آورورا باوتيستا: أليس صحيحًا أنك بينما كنت تدخل إلى البيت في أحد الأيام حاملًا على ظهرك كيس فحم، قالت لك دونيا آركانخيلا، «اقطع غصنًا من شجرة كاثاهواتي واذهب لإفزاع تلك الحيوانات التي في الفناء»، أليس صحيحًا أنها قالت لك هذا الكلام؟

تيتشو: لا أتذكر الأمر.

آورورا باوتيستا: ألا تتذكر كذلك أنك ذهبت إلى الشجرة وقطعت غصنًا كبيرًا وذهبت معها إلى حيث كانت العقبان وأخفتها، فحلقت عاليًا ثم عادت تحط على الأرض؟

تيتشو: في سنوات حياتي التي عشتها أفزعت العقبان مرات عديدة. ولا

أدري أي مرة منها التي تريدين أن أتذكرها.

آورورا باتيستا: المرة التي أصاب اليأس فيها دونيا سيرافينا، فأخرجت المسدس، وأعطتك إياه وقال لك، «اقتل هذه الطيور بالرصاص»، عندئذ خرجت آركانخيلا إلى الممر وقالت لكما، «ما الذي تسعيان إليه، بث الذعر في الجيران؟» ألم تعد تتذكر؟

تيتشو: أظن أنني لم أكن أنا الموجود هناك.

آورورا باوتيستا: ولست أنت كذلك من كنت في المطبخ مع كالافيرا، ولوث ماريا ومعي أنا، عندما دخل النقيب بيدويّا ليطلب إبريق ماء، وبعد أن شربه قال، «لا أدري من أين تأتي هذه النتانة»، وردت عليه كالافيرا، «من الكلب الذي مات في البيت المجاور»؟ ألست أنتَ من كنت جالسًا هناك، وكنت تأكل عجة؟

تيتشو يرد متهربًا من هذا السؤال ومن أسئلة آورورا باوتيستا التالية:

أليس صحيحًا أنك في مساء أحد الأيام جئت ومعك علبة مدورة وسألتكَ دونيا آنخيلا: «كم دفعت ثمن البنزين»؟

ألا تتذكر أنك في تلك الليلة أخرجت رفشًا ومعولًا ورحت تنبش في حظيرة الفناء؟

... وأنك في ليلة تالية أشعلت نارًا استمرت طويلًا وطلع الصباح في اليوم التالي عابقًا بعفونة؟

تيتشو: أظن أنك تتكلمين عما رأيتِهِ في أحلامك. عن شيء لم يحدث قطّ.

١٢
الرابع عشر من أيلول/سبتمبر

1

الرابع عشر من أيلول/سبتمبر ١٩٦٣ التقت الأختان بالادرو مع السيد سيرينيو بانتوخا - مالك بيوت دعارة في خالوستي - بهدف محاولة بيع آخر خمس عشرة امرأة متبقية لديهما. هذا القرار من جانبهما يشير إلى أنهما فقدتا كل أمل في العودة إلى فتح أعمال جديدة.

عُقد الاجتماع في محل مثلجات ببيدرونيس يدعى «سبيريا»، الساعة الحادية عشرة صباحًا. كانت الأختان بالادرو متخوفتين من أن تكون لدى دون سيرينيو شكوك في أنهما تعيشان في كازينو الدانسون - الصفقة السابقة، عندما باعتا لهذا السيد نفسه إحدى عشرة امرأة، تم إبرامها على مقعد على رصيف شارع آلاميدا في بيدرونيس - دون أن يدور بخلدهما، ربما، أن النساء المبيعات يعرفن هذا السر.

ويبدو أن السيد سيرينيو، في المرة الثانية، أراد الحصول على شروط أفضل - فهما من سعتا إليه هذه المرة لتقترحا الصفقة وليس هو، ومثلما حدث في المرة الأولى -. تعلل بأنه تحمل نفقات عالية جدًّا مؤخرًا وعرض ثلاثمئة بيزو مقابل كل امرأة. رفضت الأختان بالادرو العرض وقامتا بحركات وإيماءات كما لو أنهما ستنسحبان غاضبتين. عرض دون سيرينيو أربعمئة. ظلت الأختان بالادرو في محل المثلجات تساومان. عندما عرض دون سيرينيو ستمئة بيزو ووافقت الأختان على البيع، كانتا قد ضيعتا فترة الصباح، مع ما ترتب على ذلك من النتائج التي ستتكشف في ما يلي.

2

الشرفة التي في كباريه الدانسون لا تظهر في المخطط الأصلي الذي وضعه المهندس المعماري، وهي تكسر الوهم الذي يهدف بقية الديكور إلى إحداثه في الناظر - وهم الإحساس بأنه في أعماق البحر - وقد استثارت، كما يقال، احتجاجات مؤثرة من جانب مهندس الديكور الشاب الذي قدم المشورة للأختين بالادرو ببناء الماخور. وعلى الرغم من كثرة العيوب والنواقص، فإنهما تقفان على الشرفة.

لقد كانت فكرة سيرافينا التي رأت من الشارع، أثناء رحلتها إلى آكابولكو، ولم تنس ذلك قطّ، ثلاثة مغنين يحملون جيتارات، يغنون من فوق شرفة، بينما بعض السائحين يتناولون الطعام في فناء فسيح. فخطر لها أنه في ليلة احتفالية - أي عندما تأتي شخصية سياسية أو شخص مهم مع أصدقائه، ويكون من الضروري إغلاق المحل أمام الجمهور - سيكون جميلًا التعاقد مع ثلاثي مغنين، وفي لحظة لا تخطر ببال من هم في الأسفل، تُفتح الشرفة، ويظهر المغنون ويغنون أغنية «الصباحات» لمن سيدفع الحساب.

الشرفة بُنيت، ولكن لم يصل إليها المغنون قطّ. استُخدمت كي تظهر عليها

آركانخيلا والمجاز كاناليس في يوم الافتتاح، عندما أطلق هذا الأخير الصرخة التي كلفته فقدان عمله، واستخدمتها آركانخيلا وسيرافينا لمشاهدة كيف جرت معالجة بلانكا، كما أنها استخدمت في ما سنعرفه تاليًا.

من المناسب التنبيه إلى أن الحاجز الحديدي المشبك الذي على الشرفة لم يُركَّب بصورة جيدة قطّ. فالحداد الذي صنعه نبَّه معلم البناء إلى أن الحاجز موضوع بصورة سيئة؛ وبعد أن تأكد بالفعل من أن الحاجز مُركب بصورة سيئة، أمر أحد البنائين بأن يعزز تمتينه، فوعد البنّاء بأن يعزز تمتينه ولم يعززه قطّ.

بعد شهور من ذلك، وكان العمل في البناء قد انتهى، علقت آركانخيلا:

- من الضروري تثبيت هذا الحاجز الحديدي، لأنه غير ثابت. وإذا ما استند شخص عليه بهدف التطلع إلى أسفل فسوف يسقط برأسه على الأرض - وهي أربعة أمتار إلى أسفل.

بعد هذا التعليق لم يعد هناك من يعود إلى تذكر حاجز الشرفة حتى يوم ١٤ أيلول/سبتمبر.

3

من أجل الوصول إلى الشرفة يجب المرور عبر الممر المؤدي إلى الغرف. وفي الممر كانت المرأتان في بداية النزاع، على حدّ قول من رأوهما.

الصورة هي كما يلي إلى هذا الحد أو ذاك: هناك امرأتان وجهاهما قريبان أحدهما من الآخر، تقفان متقابلتين وجهًا لوجه، كل منهما تتشبث بكلتا يديها بشعر الأخرى. ملامح وجهيهما ممتقعة، عيونهما تكون مغمضة أحيانًا بفعل الألم، وفي لحظات أخرى تكون زائغة، الفم معوج، يسيل من كلتيهما لعاب زبدي، ملابس كلتيهما مهلهلة وممزقة - من خلال فتحة الصدر تطل مزق من حمالة صدر -. تتحركان في آن واحد، متلاصقتين جدًّا، كما لو أنهما ترقصان: ثلاث خطوات إلى هناك، خطوتان إلى هنا، وبين حين وآخر دوس على الأقدام، ركلات، تأوهات، لهاث، وتسمع بين لحظة وأخرى كلمة مقتضبة سيئة الوقع «عاهرة»، وغيرها.

عندما بدأ النزاع كانت المرأتان وحدهما، ولكنه استمر طويلًا بحيث انتبهت جميع النساء اللواتي يعشن في البيت إلى أن شيئًا غريبًا يحدث ورحن يقتربن من الممر لرؤية المشهد. (في ذلك الوقت كانت كالافيرا في السوق).

ثلاث عشرة امرأة يتأملن اثنتين تمزق كل منهما الأخرى دون أن تتدخل أي منهن للفصل بينهما، لأن من تتشاجران هما «صديقتان حميمتان»، هذا يعني أنهما عشيقتان، والأخريات يقدرن أن نزاعهما مسألة خاصة يجب ألا تتدخل الأخريات بها. ولهذا السبب شاهدت النساء بصمت واهتمام صراعًا شاقًّا ولكنه متعادل - دفش من هنا، شدّ إلى هناك -، وكن يعتقدن أن ذلك الصراع سينتهي عندما تستنفد قوى المتشاجرتين. كان يمكن لنهاية النزاع ألا تكون دامية لو أن الأختين بالادرو، وكانتا خارج البيت في ذلك الوقت، أسرعتا قليلًا وهما تترجلان من سيارة إسكاليرا، ووصلتا في الوقت المناسب لتطلقا صرخة قوية وتفرضا السلام. أو لو أن سوء الحظ لم يجعل المتشاجرتين تقتربان من

حاجز الشرفة، بينما كانت إحداهما تدفع الأخرى بقوة أكبر، فترتطم مؤخرة الأخرى بالحاجز الحديدي، فيفلت الحاجز وتهوي الاثنتان وكل منهما تمسك بشعر الأخرى، وتسقطان على رأسيهما على الأرض. اصطدمت جمجمتاهما بالأرضية الإسمنتية وتهشمتا مثل بيضتين. في تلك اللحظة أنهت الاثنتان حياتيهما. كان اسماهما إيفيليا وفيليثا.

4

دخلت الأختان بالادرو عبر باب بيت السيدة بينابيديس، وكانتا تجتازان الفتحة التي تصل بين البيتين وتدخلان إلى المطبخ عندما سمعتا وقع خطوات، وتعثرات، ولهاثًا. كانت آركانخيلا على وشك أن تسأل «ما الذي يحدث؟»، حين سمعت، في البدء صدمة صماء - ارتطام مؤخرة بالحاجز الحديدي -، وبعد ذلك صريرًا - انفلات الحاجز الحديدي -، صدمة مدوية - ارتطام الحاجز بالأرض -، وخبطة صماء - اصطدام رأسين بالأرضية الإسمنتية. من الممكن أن تكون واحدة ممن شهدن ما حدث قد صرخت، وأن واحدة أو عدة نساء قد نزلن على الدرج راكضات، ولكن الموت ينتهي في جميع الأحوال إلى فرض الصمت على من يتأملونه.

يمكن لنا أن نفترض عندئذ أنه عندما فتحت الأختان بالادرو الباب المؤدي إلى بيت الكباريه، كان الصمت يسود كل شيء. دخلتا من ركن ممتلئ بغبار كلسي وراحتا تميزان، في البدء الحدائد الملتوية، وبعد ذلك الميتتين، وأخيرًا، رفعتا نظرهما، إلى محيط الشرفة التي بلا حاجز، خمس... ست نساء أو أكثر كنّ ينظرن إلى أسفل.

يمكن لنا أن نتسامح مع الأخطاء - من دفعتهما؟ -، رد الاتهامات - أنتن مذنبات لأنكن لم تفصلن بينهما -، إلخ. وكان لا بد للأختين بالادرو من الانتهاء إلى إدراك أن المسؤولية كلها تقع على عاتق الضحيتين. اكتشفتا كذلك، في إحدى الجثتين، السبب المحتمل للنزاع: أسنان بلانكا الذهبية. كانت إيفيليا تضع أسنان بلانكا الذهبية في حمالة صدرها: الجزء الوحيد من ملابسها الذي يمكنها أن تخبيء فيه شيئًا، لأنها تستخدم أثوابًا من قطعة واحدة واسعة فتحة الصدر، بلا أكمام وبلا جيوب.

قصة أسنان بلانكا الذهبية هي التالية: حاولت آركانخيلا أن تنتزعها من فم صاحبتها حين كانت هذه مريضة، ولم تستطع؛ وعندما ماتت بلانكا، كانت آركانخيلا قلقة جدًّا، فنسيت انتزاع أسنان الميتة؛ ولكن عندما كان لا بد لها من إعادة استخراج الجثة من أجل حرقها، تذكرت أركانخيلا الأسنان وقررت استعادتها. فكان أن اكتشفت عندئذ أن الأسنان قد اختفت.

لم تقل شيئًا، ولكنها أمضت أسابيع وهي تفكر وتتأمل. لا بد أن إحدى النساء اللاتي يعشن في البيت قد سرقت أسنان بلانكا. هي - آركانخيلا - وكذلك سيرافينا، وتيتشو وكالافيرا فوق الشبهات - لأن أركانخيلا رغبت في التفكير على هذا النحو -؛ وبالتالي، لا بد أن تكون المذنبة واحدة من النساء

اللاتي شاركن في العلاج ثم في الدفن بعد ذلك. لدى الوصول إلى هذه النقطة من التأمل العقلاني تعطل ذهنها، ولهذا لم تستطع حلّ اللغز الغامض: فالمذنبة ليست ممن يأوين تحت سقف البيت الذي شيدته هي وأختها بأموالهما وحسب، بل إنها تأكل من الخبز والعجة التي تشتريها هي وأختها. وقد أقدمت على سرقة الأسنان الذهبية التي هي من حقها هي بالذات، كتعويض عادل عن تضحياتها - والنفقات الرهيبة - التي اضطرت إلى إنفاقها أثناء مرض بلانكا.

تكشف هذا السر في ذلك اليوم الرابع عشر من أيلول/سبتمبر. كانت الأسنان ظاهرة قليلًا من حمالة صدر إيفيليا الميتة. وقد رأتها آركانخيلا وهي تمشي بين الأنقاض، فأخذتها وخبأتها في حقيبتها ثم باعتها لجواهري في بيدرونيس بعد خمسة عشر يومًا بمبلغ خمسمئة بيزو. أما المذنبة، بعد اكتشافها، فلم تتلقَ جزاء سرقتها فقط، بل تلقت العقوبة كذلك.

5

النهاية الفظيعة غير المتوقعة أبقت جزءًا من القصة في الغموض. حيث لا يمكن التوصل إلا إلى افتراضات. العلاقة بين إيفيليا وفيليثا استمرت عشر سنوات، على حدّ قول زميلاتهما. كانتا عاشقتين دائمتين ووديعتين، تُعرضان كنموذج مثالي وتحسدهما العاملات الأخريات. وحسب الوصف، كانتا تنجزان واجباتهما في الماخور بإخلاص، ولكنهما تعيشان كزوج وزوجة - فيليثا تحمل طبق إيفيليا إلى المنضدة وترفو لها ثيابها، وإيفيليا تخبئ النقود التي تكسبها فيليثا -. بعد عشر سنوات من العيش في انسجام تام، دون أن تبديا ما يشير إلى الخلاف - على حبل الغسيل كانت منشورة ثياب إيفيليا الداخلية التي غسلتها فيليثا -، وانتهى بهما المطاف إلى قتل كل منهما الأخرى.

ربما لا بد لنا من البحث عن تفسير لتلك النهاية في أسنان بلانكا الذهبية.

قبل سنوات من ذلك، عندما اخترعت بلانكا التنوع الذي يجب أن تشارك فيه ثلاث نساء، اختارت كزميلتين لها في التمثيل كلًّا من إيفيليا وفيليثا. ويبدو أن علاقة قد استقرت بين الثلاثة، واستمرت أكثر من التنوع وأكثر من حالة بلانكا الصحية. قامت إيفيليا وفيليثا بزيارة بلانكا في مستشفى الدكتور مينيسيس، وساعدتا إسكاليرا في إدخالها إلى السيارة، بعد أن وقّعت سيرافينا على أوراق إخراج المريضة من المستشفى المدني في سان بيدرو دي لاس كورينتيس، وكانتا هما أيضًا من تولتا حمل بلانكا وإنزالها من حجرتها كل صباح لوضعها على الدكة الخشبية الموجودة تحت شجرة الليمون، ثم حملها مرة أخرى في المساء صعودًا إلى حجرتها، وقد شاركتا كذلك في العلاج - فيليثا هي من كانت تحاول أن تعطي المريضة جرعة من الكوكاكولا لإنعاشها، وإيفيليا هي من ذهبت للبحث عن الملاءة -.

فرضية: إحدى الاثنتين، إيفيليا أو فيليثا، انتزعت أسنان الميتة عندما كانت ممددة، في لحظة ظلت على انفراد معها، لم تقل شيئًا لأحد، وبعد ثلاثة

شهور، من لم تكن تعرف أي شيء وجدت الأسنان بحوزة صديقتها، اعتبرت السرقة والتكتم عليها خيانة وشدت الأخرى من شعرها.
فرضية أخرى: أثناء اشتداد مرض بلانكا وتأكدها من أن آركانخيلا سوف تنتزع أسنانها، فضلت أن تمنح الأسنان وهي حية للصديقة التي تحبها أكثر من الجميع - إيفيليا أو فيليثا -، وعندما علمت الأخرى مَنْ منهما كانت المفضلة لدى بلانكا، داهمتها نوبة غيرة مع ما رافقها من نتائج رأيناها.
يمكن للأمر أن يكون قد جرى على هذا النحو.

6

يجب العودة الآن إلى اللحظة التي دخلت فيها آركانخيلا وسيرافينا إلى الكباريه، بعد أن فتحتا الباب، ورأتا الميتتين وسط غمامة الغبار، والحاجز الحديدي الملتوي، وأسنان بلانكا الذهبية، الخ... ترفعان نظرهما إلى أعلى وترياان على الشرفة التي صارت بلا حاجز خمسة... ستة... سبعة.. حتى الوصول إلى ثلاثة عشر وجهًا لنساء ينظرن إلى أسفل.
في هذه اللحظة، دون أن تنتبه أي من المتأثرات، كانت العلاقات بين مالكتي البيت وموظفاتهن تتبدل بصورة جذرية. النساء المطلات من الشرفة شاهدات على أن هناك في الأسفل ميتتين وعلى ما سيُفعل بالجثتين فيما بعد. الأختان بالادرو هما مالكتا البيت، مديرتا الجماعة، وبالتالي هما المسؤولتان عمَّا يحدث في البيت.
في الظاهر يبدو أن كل شيء بسيط. لا ضرورة، على سبيل المثال، القيام بالدفن في منتصف الليل، ومحاولة عدم إحداث ضجيج للحيلولة دون إيقاظ النائمات. في الساعة السادسة مساء، عندما يعود تيتشو من عمل يؤديه - تحميل أكياس إسمنت -، ستقوده كالافيرا إلى زاوية الفناء، على بعد أمتار قليلة من قبر بلانكا، وتأمره بأن يحفر قبرًا مزدوجًا، بعمق متر وثمانين سنتمترًا، دون أن يهتم بأن الفأس والعتلة سيصدران ضجة عند الضرب على الطبقة شبه الصخرية القاسية. تيتشو يطيع وفي الساعة الثانية عشرة ليلًا تكون إيفيليا وفيليثا قد دُفنتا.
في تلك الليلة، بسبب مسألة لها علاقة بالخدمة، لم يذهب النقيب لزيارة سيرافينا، كما أنه لم يذهب إليها في ١٥ سبتمبر، لأنه اليوم السابق للعرض العسكري ولأن الفرقة مستنفرة في الثكنة. في يوم ١٦ ليلًا، وصل النقيب إلى البيت منهوكًا: فحصانه الأبلق شبّ واقفًا على قائمتيه الخلفيتين خلال تقدم العرض في منتصف جادة خواريث، ببيدونيس، وكاد يسقط عن صهوته. أحس بأنه بدا مضحكًا أمام الجنود الذين تحت إمرته ومئات المشاهدين. فقد سقط سيفه على الأرض، فتناوله طفل وأعطاه إياه، مما أشعره بمزيد من المهانة.
- أريد أن أشرب كي أنسى عاري. هذا ما قاله النقيب وهو يمشي مطرقًا، ويضع يديه في جيبيه، متوجهًا نحو شارع الاستقلال.

بينما هو في تلك الحالة المعنوية، قدمت له سيرافينا الخبر عن موت إيفيليا وفيليثا وأنهما في حظيرة الفناء. (سيرافينا التي لم تكشف لبيدويّا قطّ أي شيء مما حدث لبلانكا، أحست بتأنيب الضمير حين رأته جاهلًا كل الأمور، يتساءل عن الشيء الذي تفوح منه رائحة الموت). بدأت سيرافينا الحديث قائلة:

- سأخبرك بأمر، لأنني لا أريد أن تكون هناك أسرار بينك وبيني، هكذا.

وعندما أخبرته بالأمر، ردّ النقيب:

- جيد جدًّا. لم يعد ينقصك الآن سوى أن تموت الثلاث عشرة امرأة المتبقيات من أجل دفنهن في حظيرة الفناء.

بعد شهور من ذلك، خلال المحاكمة، صرح النقيب أنه قال تلك الجملة على سبيل السخرية، ولم يصدقه القاضي.

في الثامن عشر من أيلول/سبتمبر اتصلت سيرافينا هاتفيًّا بدون سيرينيو بانتوخا وقالت له، «مع الأسف الشديد»، إن أختها قد بدلت رأيها وقررت عدم بيع النساء حسب اتفاقهما. ويقول دون سيرينيو إنه من خلال صوت سيرافينا أدرك أنه من غير المجدي تقديم عرض أفضل. وفكر بأنهما لا بد أن تكونا قد باعتا لمشترٍ آخر أو أنهما مصممتان على عدم البيع مهما كان السعر.

١٣
القانون العرفي

1

كل عام، في اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر، اعتادت إحدى النساء، وتدعى ماريا دِل كارمن ريغوليث، أن تزور أمها التي تُسمى ميرثيديس.

في اليوم السابق لهذا التاريخ تطلب ماريا دل كارمن الإذن من سيرافينا كي تعفيها من العمل في ليلة ٢٤ من الشهر المذكور، وتطلب من آركانخيلا نقودًا، سواء مما تملكه هي نفسها «محفوظًا» لديها، أو دَينًا، إذا كان رصيدها منخفضًا جدًّا. تقول ماريا دِل كارمن إنها لم تكن تواجه أبدًا، حتى العام الفائت، أية صعوبات: فسيرافينا اعتادت أن تمنحها الإذن دومًا وآركانخيلا تعطيها النقود. وفي يوم ٢٣ تخرج كارمن من الماخور إلى السوق، تشتري باقة أزهار، وتفضل أن تكون أزهار سيف الغراب، تصل على الدوام إلى ذراعي المحتفى بها المفتوحين، وقطعة قماش لصنع ثوب، أو شالًا أو حذاء. في اليوم التالي تبدأ تحركها مع أول أشعة الشمس، لأن على ماريا دل كارمن أن تركب ثلاث حافلات كي تصل إلى المزرعة حيث تعيش أسرتها. تنزل من الحافلة الثالثة عند تلة جرداء وتمشي في درب يكاد لا يُرى إلى أن تصل إلى نبتة صبار ذات أذرع ضخمة. ومن هناك تُلمح البيوت ومزارع الصبار.

في كل عام لا تتعرف الكلاب على ماريا دل كارمن، وفي كل عام تخرج الأم وزوجات الإخوة من المطبخ لتهدئة الكلاب وطمأنتها، وفي كل عام حين ترى النسوة أنفسهن مجتمعات مرة أخرى، ينخرطن في البكاء. في كل عام يدخلن إلى المطبخ، يجلسن حول المجمر ويتحدثن - أحدهم قد مات، وطفل جديد قد ولد، المحصول ضاع -. يرجع الرجال من الحقول عند الأصيل، تجلس الأسرة لتناول الطعام، ماريا دل كارمن تساعد في إعداد المائدة. الأم وحدها هي من تعرف مهنة ابنتها - مثلما كانت هي نفسها عندما باعوها -، بقية أفراد الأسرة يظنون أنها تعمل خادمة. في الليل يشربون شاي أوراق البرتقال مع كحول ويسكرون.

في اليوم التالي، مع شروق الشمس، تنطلق ماريا دل كارمن في رحلة العودة إلى الماخور.

في ذلك العام، في يوم ٢٢ سبتمبر، طلبت ماريا دل كارمن الإذن من سيرافينا كي تذهب إلى المزرعة، فرفضت سيرافينا، لأول مرة، منحها الإذن قائلة لها:

- أختي قررت عدم خروج أحد إلى الشارع باستثناء من يذهبن مع كالافيرا إلى السوق لشراء الطعام.

لم تشرح سبب المنع، ولم تقل كم سيستمر سريان مفعوله. لم تتجرأ ماريا دل كارمن على السؤال عن أي من الأمرين لأنها مثل جميع الموظفات لدى الأختين بالادرو، تخاف من السيدتين المالكتين. ولكنها بالمقابل تحدثت مع زميلاتها عن أن سيرافينا منعتها من الذهاب إلى المزرعة وأنها قالت لها إنه لن يخرج أحد سوى النساء اللواتي يذهبن مع كالافيرا إلى السوق - وهنّ

النساء أنفسهن على الدوام اللاتي يستطعن الخروج إلى الشارع. هذه الأحاديث، المكرورة مرات كثيرة في خمول الماخور المغلق، جعل الإحدى عشرة امرأة المستثنيات من امتياز الخروج يشعرن بأنهن سجينات، والأهم من ذلك، شعورهن بأنهن متحدات.

2

روسا ن ومارتا ن هما المرأتان اللتان تخرجان من البيت، ترافقان كالافيرا لشراء الطعام. تظهر روسا في وثائق سجل إحصاء النفوس في سان بيدرو دي لاس كورّينتيس بأسماء متتالية هي، مرغريتا روسا، وروسا دي لاس نييفيس، وماريا دل روسال. في الماخور ينادونها روسا وحسب. وهي تتمتع بسمعة أنها مطيعة. عندما كانت المواخير مفتوحة - يقول من تعاملوا معها - كانت أول من تنزل من غرفتها وتمثل أمام ربة عملها - سيرافينا أو آركانخيلا، لأنها عملت مع الاثنتين - كي تمنحها الموافقة على مظهرها. أما إذا وجدت فيها عيبًا ما - كأن يكون طلاء الأظافر قد تقشر، أو أن خصلة الشعر المتدلية لا تتناسب مع لون الثوب -، فترجع روسا عندئذ، بكل طِيبة، إلى حجرتها - وهو ما لا تفعله أي واحدة أخرى - وتحاول إصلاح الأمر. في المواخير المغلقة، كانت روسا تتميز بقيامها بالأعمال المُجهدة، غير المستحبة أو غير الضرورية، مثل جلي ظاهر القدور التي تتراكم عليها الوساخة، أو حمل أثقل سلة عند الذهاب إلى السوق.

السمعة الأخرى التي اشتهرت بها روسا هي أنها واشية - فَسَّادة -. وهذه سمعة تستند إلى حادثتين: في إحدى المناسبات نزع زبون سكران ساعة يده ووضعها على المنضدة، فأخذت إحدى النساء، وكانت تجالسه، الساعة وخبأتها. الشخص الوحيد الذي شهد تلك الواقعة هي روسا. وقبل أن تنتهي السهرة، تدخلت آركانخيلا، وأجبرت المذنبة على إعادة الساعة، وفرضت عليها عقوبة هي عبارة عن غرامة احتاجت الأخرى ستة شهور لتسديدها. وفي مناسبة أخرى، قام كارميلو ن، وكان نادلًا في بيت الطاحونة في أحد الأوقات، باختراع طريقة لخداع سيرافينا: وتتلخص الطريقة بإعطائه عدة نساء متواطئات معه فيشات استهلاك مشروبات وهمية، فتسلّم النساء تلك الفيشات إلى سيرافينا، ويتقاضين عمولتهن عنها ويعطين جزءًا منها للمدعو كارميلو. وقد استمرت هذه التجارة الخاصة إلى أن ارتكب كارميلو خطأ دعوته روسا لتكون جزءًا من تنظيمه. ففقد عمله في اليوم التالي.

وفضلًا عن كونها مطيعة وواشية، لم تكن روسا تتمتع بأية مزايا أخرى. فهي عفنة، تعاني من زكام دائم - عندما تنف أنفها، كما تقول آركانخيلا «تبدو كبُوق الأوامر»، ولها ملامح شهيد. الرجال الذين يقتربون منها يفعلون ذلك لأنهم مخمورون أو لأنهم لا يرون جيدًا على أضواء الكباريه المخادعة. وعند الجلوس إلى الطاولات، كما تقول البنات اللواتي عرفنها، يكون موضوع حديثها المفضل هو السوء الذي عاملها به القدر - «لقد لعبت الحياة معي لعبة غير عادلة»،

تردد هذه العبارة بكثرة - قلة هم الرجال الذين كانوا يجرؤون على الصعود إلى حجرة روسا وقلة هم الذين دخلوا إليها مرتين.

تحملت الأختان بالادرو روسا مدة عشر سنوات ونصف، من جهة لأنها مطيعة، ومن جهة أخرى لأنها واشية، ولكن قبل ذلك كله، لأنهما لم تستطيعا التخلص منها. في أول الأمر كانتا تتبادلانها فيما بينهما، وبعد ذلك حاولتا بيعها عدة مرات لشخص ثالث، ولكن المشترين كانوا يرفضون الشراء بمجرد رؤيتها. وأخيرًا استسلمت الأختان بالادرو للأمر الواقع وصارتا تسستخدمانها لتطفيش الزبائن المزعجين أو غير القادرين على الدفع.

وكانت روسا، ذات الدخل الضئيل جدًّا، قد راكمت خلال عشر سنوات أكبر الديون المدونة في سجل آركانخيلا - خمسة وأربعون ألفًا وأربعمئة بيزو -. ربما أن غياب المنطق عن رؤية آركانخيلا الجشعة جعلها تتمسك بأمل أن تتحول روسا إلى امرأة جذابة بين عشية وضحاها وتتمكن من أن تسدد عندئذ كافة الديون المترتبة عليها.

3

سبب ضياع روسا كان في مشيها عبر الممر المؤدي إلى الغرف في وقت كان عليها أن تمرّ من هناك. فآورورا باوتيستا، إحدى النساء اللاتي يعشن في كازينو الدانسون، حين علمت وهي تتبادل الحديث مع ماريا دل كارمن، أنه لم يعد بإمكان أي منهن الخروج إلى الشارع، باستثناء الاثنتين اللتين تخرجان مع كالافيرا إلى السوق، قررت الهروب من الماخور.

عرضت فكرتها على ثلاث من صديقاتها ووافقن على مرافقتها. اجتمعن عدة مرات في حجرة إحداهن لوضع الخطط. قررن أن الهروب يجب أن يتم في الليل، ما بين الساعة الحادية عشرة، وهو الوقت الذي يكون الجميع فيه نائمين، والساعة الثانية عشرة، موعد خروج آخر حافلة ذاهبة إلى بيدرونيس. أما بشأن الخروج من البيت، فلن يكون بإمكانهن فعل ذلك من حيث تخرج الأختان بالادرو، لأنهن سيحتجن إلى مفتاح المطبخ، وهو معلق على الدوام على صدر سيرافينا؛ والقفز عن السور سيعني السقوط في فناء بيت غريب، بين كلاب مجهولة؛ فلا يبقى إذًا سوى استخدام سلّم يدوي من أجل الوصول إلى سطح الكازينو، والانتقال بقفزة إلى سطح بيت السيدة بينابيديس، ومن هناك يمكنهن النزول بسهولة إلى مستوى الشارع، والخروج من الباب الذي يظل مقفلًا من الداخل.

كان هنالك في البيت سلّم يدوي يُحتفظ به في مستودع الفحم، حيث ينام تيتشو. وكان معروفًا عن تيتشو أنه ينام كحجر.

مساء اليوم الذي اتفقت فيه الصديقات على الهروب من الماخور بواسطة سلّم يدوي، سمعن ضجة في الممر، كما لو أن هناك أحدًا خارج المكان الذي يتكلمن فيه. ظلت النساء الأربع صامتات. نهضت لوث ماريا، صاحبة الحجرة، بخفة وفتحت الباب. رأت أنه لا وجود لأحد خارج المكان تحديدًا، ولكن على بعد

عدة أمتار منها، كانت روسا تمشي في الممر بالاتجاه الذي تقف هي فيه...

ظلت النساء يقدرن لبعض الوقت احتمالات أن تكون روسا قد سمعتهن، ولكنهن توصلن في النتيجة إلى أن ذلك غير ممكن. ومع ذلك، ونظرًا لذلك الحادث الغامض، قررن تقديم موعد خروجهن وهروبهن إلى تلك الليلة نفسها.

يمكن لنا أن نتصور الأمتعة، أكياس القنب، صناديق الكرتون المربوطة بالحبال، وغيرها. وضَعتْ كل واحدة منهن ما تفضله من ممتلكاتها - الثوب البرتقالي، سترة الفراء القصيرة، حقيبة اليد المزينة بالخرز، والحذاء اللماع -، مع الأخذ بالاعتبار، عند الاختيار، أنه سيكون عليهن القفز، وربما الركض أيضًا في الشارع. يقلن إن ما جمعنه أربعتهن من النقود يكفي لدفع كلفة السفر إلى بيدرونيس ويزيد لديهن خمسة وأربعون بيزو، يفكرن في مواصلة السفر بهذا المبلغ، دون أن يعرفن في أي اتجاه، ولكن الابتعاد دومًا عن كونثيبثيون دي رويث.

في الليل، عندما كان كل شيء ساكنًا، اجتمعت النساء في الممر، حافيات، نزلن الدرج واجتزن الفناء. إحداهن، تدعى لوث ماريا، تعترفُ بأنها التقطت حجرًا مكورًا كبيرًا، كان عليها أن تمسكه بكلتا يديها لتضرب به تيتشو على رأسه إذا ما رأته يستيقظ. دخلن إلى دهليز تخزين الفحم، وهو بلا باب. لم يستيقظ تيتشو، أما هنّ فأدركن، بالتلمس، أن السلّم غير موجود في المكان الذي كان فيه على الدوام.

خرجن من مخزن الفحم قلقات وذهبن إلى المطبخ في الظلام. وهناك عقدن اجتماعًا وتحدثن بصوت خافت. توصلن إلى نتيجة أن روسا قد وشت بهن. واستثار ذلك حفيظتهن.

لا بد أن المشهد التالي كان على هذا النحو: هنالك امرأة نائمة على سرير كبير، في غرفة مظلمة؛ يُفتح الباب بتكتم - منذ إغلاق الماخور نزعت الأختان بالادرو مغاليق الغرف، بحيث لم يعد بإمكان النساء أن يقفلن الأبواب على أنفسهن من الداخل -، يُرى على ضوء العتبة مرور عدة أشباح؛ ويُغلق الباب من جديد.

ليس معروفًا إذا ما كانت روسا قد استيقظت عندما أشعلت الأخريات النور، عندما اكتشفنها أم عندما بدأن بضربها. بل ليس معروفًا إذا كانت اللواتي هاجمنها قد أشعلن النور أم ضربنها في الظلام. ومن غير المعروف كذلك إذا ما كان الخوف قد أصاب روسا بالبكم، أم أن المهاجمات منعنها من الصراخ أم أنها صرخت بكل قواها ولم يسمعها أحد.

- ضربنها بالأحذية - تقول كالافيرا وهي تصف ذلك الانتقام.

جراح روسا كانت بفعل الأحذية عالية الكعوب التي ضربتها بها الأخريات.

في اليوم التالي، بينما النساء جميعهن، باستثناء روسا، يتناولن وجبة الغداء في المطبخ، صعدت كالافيرا إلى غرفة هذه لترى ما الذي جرى لها. عند اقترابها من الحجرة سمعت الأنين. كانت روسا في السرير، شبه غائبة عن الوعي، مغطاة بدثار. لم تكن مصابة بجروح في الوجه، لكن جسدها، وبصورة خاصة مؤخرتها، كانت مغطاة بكدمات وجراح تفاقمت مع مرور الوقت

وعدم العلاج وتحولت إلى قروح.

4

لم تعرف روسا - أو لم تشأ - أن تقول من الذين هاجموها. والأختان بالادرو اللتان قررتا معاقبة تلك «الفوضى» بصرامة، لم تدريا إلى من تنسبان الهجوم - مما يشير إلى أن روسا لم تكن قد أخبرت عن عملية الهروب التي جرى الإعداد لها وتصادف أن السُّلّم اليدوي لم يكن في مكانه - ولم تجدا طريقة توصلهما إلى المذنبات.

المرأة التي أعدّت في ظهيرة ذلك اليوم مائدة غداء السيدتين، أكدت أن النقيب بيدويّا هو من نصح الأختين بطريقة لكشف هوية المسؤولات. النساء رأينه يتمشى مطرق الرأس في الفناء، وكان ينحني بين حين وآخر، يحمل حجرًا، يروزه، ويصنع كومة من الأحجار المكورة، غير الخفيفة جدًّا أو الثقيلة جدًّا. ثم راح يتفحص أرضيات البيت، إلى أن وصل إلى أرضية المنور التي بدت له الأكثر ملاءمة لما يود عمله. (يقع المنور بين مستودع الفحم والمطبخ، وهو جزء من البناء القديم، أرضيته من رقائق حجرية مصفوفة على شكل أصابع خشنة غير منتظمة).

جمعت الأختان بالادرو النساء في المنور وقالت آركانخيلا:

- أخبرنني من اللاتي ضربن روسا.

لم يرد عليها أحد.

أمرت آركانخيلا النساء بأن يجلسن على ركبهن على الأرضية الحجرية غير المستوية، وعندما انصعن، شرح لهن النقيب الذي كان هناك كيف يجب على كل منهن أن تضع ذراعيها، ممدودين ومتقاطعين وراحتي الكفين ممدودتين كذلك ومفتوحتين إلى أعلى. عندما صرن جميعهن في هذا الوضع، راح النقيب ومعه آركانخيلا يضعان الأحجار التي اختارها قبلًا، في راحة كل يد.

أفلتت إحدى النساء الحجر فوجهت إليها آركانخيلا ضربة بقضيب. (كانت هذه أول عقوبة بدنية تُفرض في كازينو الدانسون.. القضيب الذي ضُربت بها أخريات كان النقيب قد قطعه ذلك المساء من شجيرة كاثاهواتي). ويقال إن المذنبات قد اعترفن خلال أقل من خمس عشرة دقيقة، وأُلغي العقاب عن غير المذنبات.

اقتادت كالافيرا كلًّا من: آورورا باوتيستا، ولوث ماريا، وماريا دل كارمن وسوكورة إلى قاعة بغداد، حيث أُخضعن لعقاب آخر من اختراع النقيب أيضًا. ويتلخص العقاب بأن تقوم كل واحدة من المعاقبات، بالتناوب، بضرب الثلاث الأخريات، إلى أن تضعضعت أجسادهن وأمضين عدة أيام غير قادرات على الحركة.

خلال السنوات الثلاث والعشرين التي قضاها النقيب بيدويّا في الخدمة بالجيش، لا وجود لخبر عن أنه قد فرض أية عقوبة بدنية، ولا يتذكر الذين خدموا معه، أو في محيطه، أنهم رأوه مرتبطًا بأي عمل من أعمال القسوة.

وخلال المحاكمة، عندما استُجوب حول مشاركته في عملية «التكفير» وفي الضرب الذي وجهته النساء بعضهن إلى بعض، اعترف النقيب بأنه هو من تخيل كلا العقوبتين وشرح ذلك:

- قدرتُ أن أولئك النسوة مذنبات بعملٍ تمرد، وأنه من الضروري اكتشافهن ومعاقبتهن بطريقة تجعل منهن أمثولة.
- هل أنت راضٍ عن تصرفك في تلك المناسبة؟ - سأله القاضي.
- أجل يا سيديّ.

5

بدلًا من أن تهدأ النفوس، حدث في اليوم التالي «للعقوبة النموذجية» فعل عصيان وتمرد آخر.

جرى الأمر كما يلي: مارتا إنريكيث دورانتيس، المرأة الأخرى التي يُسمح لها بالخروج من البيت برفقة كالافيرا إلى السوق، كانت في المغاسل تعصر الملابس عندما انتبهت إلى أن عددًا من زميلاتها قد اقتربن وأحطن بها، بصمت، ودون أن يفعلن ما يبرر وجودهن في ذلك المكان.

لم تكد تنتبه إلى الأمر إلا وكنّ قد انقضضن عليها. ولأنهن كن أربع نساء فقد تمكّنَّ من السيطرة عليها بسهولة. طرحنها أرضًا، ثم كممنها وقيّدنها بالملابس المبللة التي غسلتها للتو، أجبرنها على الوقوف، وكنّ على وشك قتلها بطريقة غريبة. ففي ركن من الفناء يوجد مرحاض عادي قديم، لم يعد يُستخدم منذ سنوات طويلة. حملت النساء مارتا جرجرة إلى ذلك البناء، نزعن أغطية المرحاض وحاولن حشرها في الفتحة. (من خلال وصف هذا الحدث يُستنتج أن المهاجمات كنّ ينوين دفن الضحية حية). بدانتها أنقذتها. فمارتا امرأة ذات عظام عريضة جدًّا وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها الأخريات، لم يستطعن تمريرها من فتحة المرحاض. وكن يبذلن الجهد لفعل ذلك عندما وصلت كالافيرا.

لم يكن ثمة عقاب في هذه المناسبة، وإنما فصل وإبعاد. قررت الأختان بالادرو أن تُنقل النساء الأربع اللاتي هاجمن مارتا إلى مزرعة لوس آنخيليس وحبسهن في مستودع الغلال، بينما جرى حبس النساء الأربع اللاتي اعتدين على روسا، كل واحدة في حجرتها، مع قفل على الباب.

ونظرًا إلى أن وجود أربع نساء معزولات يستدعي وجود حراسة ليلية، قام النقيب بيدويّا ابتداء من الليلة التالية بتخصيص جندي ثقة - الشجاع نيكولاس - ليبقى في كازينو الدانسون، مسلحًا، ويكون تحت إمرة الأختين بالادرو، تحسبًا لحدوث أي طارئ.

١٤
ما فعله تيوفيلو

1

تيوفيلو بينتو، زوج إولاليا بالادرو، رجل قليل الكلام، له ملامح مأتمية كوجه من «عمل طوال حياته بنزاهة وبلا راحة، من أجل أن يفقد ثلاث مرات كل ما يملكه وينتهي به الأمر إلى السجن».

عندما قدم شرحًا لتصرفه، قال:

كصفقة تجارية، كانت مزرعة لوس آنخيليس إخفاقًا كاملًا. أختا زوجتي هما المسؤولتان عن ذلك لأنهما لم تعطياني النقود التي وعدتاني بها. قالتا إنهما ستفتحان في المصرف حسابًا باسمي وتودعان فيه مبلغ خمسة عشر ألف بيزو، كي أسحب من المبلغ وفق ما هو ضروري وأنفقه في ما يُعتبر واعدًا. هل رأيت حضرتك الحساب؟ هل رأيت الخمسة عشر ألف بيزو؟ أنا مثلك أيضًا، لم أرَ شيئًا من ذلك.

ترسلان تيتشو كل يوم سبت، ومعه النقود اللازمة لدفع النفقات بالضبط. وإذا كانت هنالك تكاليف طارئة، فعليَّ أن أدفعها أنا من مالي الخاص ثم أرسل لهما بعد ذلك إشعارات مع تيتشو كي تعيدا إلي ما دفعته.

لقد كان الوضع سيئًا، ولكنه صار أسوأ في أواسط شهر تشرين الأول/أكتوبر. حلَّ يوم السبت وحل منتصف النهار دون أن يظهر تيتشو. وكنت أنا، ومعي العمال، نجلس عند نهاية أنبوب الماء، ننظر طوال الوقت إلى الطريق، نرى مرور الحافلات، دون أن تتوقف أي واحدة منها وينزل منها تيتشو حاملًا مغلف النقود. عندما بدأت الشمس تغيب لم أعد قادرًا على تحمل الخجل. ذهبتُ إلى البيت، أخرجتُ من أحد الأدراج النقود التي خبأتها إولاليا تحسبًا لأي إصابة بمرض، ورجعتُ إلى حيث كان العمال وأعطيت كل واحد منهم عشرة بيزوات.

- اصبروا يا شباب - قلت لهم -. يوم الاثنين سأدفع لكم المبلغ المتبقي.

ذهبوا منكسي الرؤوس، وقد بدأ الظلام يخيم، وكل منهم يخبئ العشرة بيزوات.

طوال يوم الأحد ظللت أنتظر أخبارًا من شقيقتي زوجتي، ولكن لم تصل أية إشارة منهما. كنت أود التحدث إليهما وإخبارهما بما يحدث وأن الأمور لا يمكن أن تظل على تلك الحال، ولكنهما لم تقبلا قطّ إخباري عن المكان الذي تعيشان فيه.

رجع العمال يوم الاثنين وظلوا يعملون حتى منتصف النهار، وعند تقدم الوقت إلى تلك الساعة دون رؤية تيتشو آتيًا ومعه النقود، توقفوا عن العمل وغادروا. رجعوا يومي الثلاثاء والأربعاء، ليقبضوا أجورهم، ولأنني لم أستطع الدفع، قاموا في تلك الليلة بعمل خبيث.

كنت قد وضعتُ أربع عشرة صفيحة حجرية مصفوفة فوق أنبوب الري، من أجل تفادي تسرب الماء وتدفقه إلى الطريق. فما كان من العمال، بعد فقدانهم الأمل بتقاضي أجورهم، إلا أن رجعوا في ليل يوم الأربعاء، بينما كنا أنا

وزوجتي نائمين، وأزاحوا الصفائح.

استيقظتُ في اليوم التالي، أطللت من النافذة وكان أول ما رأيته هو مرآة الماء المتلألئة على الطريق. لم يكلفني الكثير من الجهد لأتخيل من هو المذنب في إحداث ذلك الضرر: لا بد من وجود نوايا خبيثة مسبقة من أجل الوصول إلى مكان منعزل جدًّا وحمل أربع عشرة صفيحة.

أظن أن العمال قد عطلوا كذلك الجرار، لأنه في هذا اليوم، الخميس، توقف في منتصف الأرض المنبسطة، وبالرغم من كل ما بذلته من مجهود لم أستطع جعله يتحرك.

رجعتُ إلى البيت يائسًا. وقلت لزوجتي:

- تراودني الرغبة في إعداد حقائبنا، ووقوفنا أنت وأنا مع الحقائب على الطريق، والصعود إلى أول حافلة تمر والرحيل فيها إلى حيث تحملنا، كيلا نعود إلى معرفة أي شيء سواء عن هذه المزرعة أو عن أختيك.

هذا ما كان علينا عمله ولم نفعله.

لم تشأ إولاليا إغضاب أختيها ولم ألح أنا عليها لأنه كان لدي أمل بأن تدفع لي شقيقتا زوجتى النقود التي تدينان بها إلي. كما أنني كنت راغبًا في رؤية نمو القمح الذي كنت قد زرعته.

في يوم الاثنين التالي كنا في المطبخ نتناول الطعام عندما سمعنا صوت توقف سيارة تطلق صفيرًا كما لو أنها تطلب مساعدة. خرجنا إلى البوابة ومن هناك رأينا السيارة: إنها السيارة الزرقاء نفسها التي تتنقل فيها أختا زوجتي دومًا، وقد غاصت في وحول الطريق. كانت ممتلئة بالناس. فكان عليّ أن أحمل أحجارًا وأضعها في الماء كي تتمكن آركانخيلا من الترجل من السيارة دون أن تلوث حذاءها بالوحل. عندما وصلتْ إلى أرض صلبة سألتها لماذا لم ترسل لي نقود الأجور يوم السبت، وأخبرتها أن العمال قد غادروا. فقاطعتني:

- انتظر، ما سأقوله لك أكثر أهمية.

جعلتني أمشي معها بضع خطوات، إلى حيث لا يمكن لمن هم في السيارة أن يسمعونا. عندئذ قالت لي هذه الكلمات:

- يوجد في السيارة فتيات أسأن التصرف كثيرًا. أحتاجُ إلى إبعادهن عن الأخريات كيلا ينقلن إليهن أفكارًا خبيثة. سوف أتركهن هنا بضعة أيام، ريثما يهدأن.

عندئذ انتبهت إلى أن هنالك في مقعد السيارة الخلفي أربع نساء ينظرن إليّ نظرات غريبة. كنَّ مذعورات.

قدمت لي آركانخيلا عدة نصائح:

- استبقهن محبوسات. قدم لهن أي شيء تريده ليأكلنه. وإذا لاحظت أن إحداهن تريد الهروب، أخرج البندقية وأطلق عليها رصاصة.

2

مستودع غلال مزرعة لوس آنخيليس عبارة عن حجرة متطاولة، أرضيتها من

الإسمنت، والجدران من آجر غير مُلبس وسقفها من الكونكريت. الإضاءة فيها ضعيفة وتدخل من كوة فوق الباب. أما الباب فهو من الخشب، ويُقفل من الخارج بأكرة مقرعة وقفل. وعلى الكوة العليا تصالب حديدي لا يمكن لشخص أن يمر من خلال فراغاته.

من أجل تجهيز مستودع الغلال كي تقيم فيه النساء الأربع، أخرج تيوفيلو منه كل ما يمكن له أن يُسَهل الهروب - حبل، مقعد، سُلّم -، أو ما يمكن استخدامه كسلاح - فأس، كرسي، رفش -، وعدم ترك شيء في الداخل سوى بعض بقايا كيزان الذرة منزوعة الحبوب، وكومة من القش.

سلّم تيوفيلو النساءَ عدة حصائر وضعنها على الأرض. وكنَّ قد أحضرن معهن بعض الأغطية، إلا أنهن عانين البرد، إذ لم تكن ثمة طريقة لإغلاق الكوة، لأنه كان شهر تشرين ثاني/ نوفمبر شديد القسوة - هطلت فيه أربع ثلجات -. أصيبت النساء الأربع بالزكام وبعد عدة أيام شفين.

أحد الأجزاء الغامضة في هذه القصة هو أن شخصين يعتزان جدًّا بنزاهتهما كما هي حال الزوجين بينتو، قد تقبلا أن يكونا سجانين، دون أن يبديا أدنى مقاومة. التفسير الجزئي لهذه الأحجية يمكن أن يكون في شيك الألفي بيزو، المسحوب من حساب آركانخيلا بالادرو، والذي حوله تيوفيلو إلى أوراق نقدية في بنك دي آباخو، بمدينة بيدرونيس، يوم ٣ نوفمبر/تشرين الثاني. ومنذ هذا التاريخ، لا يوجد ما يشير إلى أن تيوفيلو قد حاول التعاقد مع عمال جدد. كان جزء لا بأس به من الأراضي المستريحة مسبقًا قد بقي بلا زراعة. النشاطات الزراعية الوحيدة التي أُنجزت قام بها تيتشو - الذي أمرته الأختان بالادرو بأن يذهب كل صباح إلى المزرعة، بدل ذهابه للعمل في أحد المستودعات بتحميل أكياس المؤن، و«يرى ما الذي يمكن الحصول عليه هناك في المزرعة» -. فكان هو من جمع كيزان الذرة التي كانت في الحقل، ووضعها في أكياس وحملها بنفسه إلى البيت، وهو من كان ينتعل جزمة المطاط، ويتناول الرفش ويُمضي النهار وسط الوحول، يسقي القمح المزروع. وفي أثناء ذلك، تسلطت على ذهن تيوفيلو فكرة إصلاح الجرار وتشغيله، فكان يقضي عندئذ ساعات وهو يحاول تشغيل المحرك دون أن يتوصل إلى ما هو أكثر من أصوات فرقعات زائفة.

عاشت النساء الأربع ثلاثة أسابيع في مستودع الغلال، لم يتعرضن خلالها، كما يبدو، لأي سوء معاملة من تيوفيلو أو من إولاليا. حياتهن كانت تمضي على هذا النحو: في الصباح، في وقت مبكر، يفتح تيوفيلو الباب ويسمح لهن بالخروج إلى الحقل لوقت قصير، كي يقضين حاجاتهن ويغسلن وجوههن بماء الناعورة، إذا أردن ذلك. ثم يعيد حبسهن. وفي حوالي الساعة التاسعة يفتح تيوفيلو الباب للمرة الثانية وتدخل إولاليا حاملة قصعات الطعام. السجينات كن يأكلن عجة، وفاصولياء، وصلصة فلفل حار وفنجانًا كبيرًا من شاي أوراق البرتقال. لا يَصلن إلى حدّ الشبع ولكنهن لا يبقين جائعات جدًّا. ترجع إولاليا من أجل أخذ الأواني الفارغة وتقوم هي نفسها بغسلها. تقضي النساء النهار محبوسات. وفي الساعة السادسة مساء يسمح لهن تيوفيلو بالخروج إلى

الحقل مرة أخرى، ثم يعدن بأنفسهن بعد ذلك للدخول إلى مستودع الغلال، يتعشين أنواع الطعام نفسها، بالكميات نفسها التي يتناولنها على الغداء، بعد ذلك تُسحب الأطباق، ثم يقفل تيوفيلو القفل ولا يعود لفتحه حتى اليوم التالي.

العلاقات بين الزوجين بينتو والسجينات كانت حميمة نسبيًّا. وقد نبه تيوفيلو النساء:

- بينكن وبيننا لا توجد عداوة ولا خلاف. إنكن تقضين بضعة أيام هنا لأن هذه هي أوامر دونيا آركانخيلا. الأمر الآخر الذي أصدرته إليَّ هو عدم السماح لكنّ بالذهاب. كن هادئات في هذا البيت، حيث لن يسيء إليكن أحد ولن يهينكن أحد، ولن نواجه أية مصاعب.

تجرأت إحدى النساء على السؤال عن المدة التي سيبقين خلالها حبيسات، فرد عليها تيوفيلو:

- المدة التي تحددها آركانخيلا.

3

يستيقظ تيتشو قبل شروق الشمس - يفعل ذلك بإرادته، فهو يفضل قضاء اليوم في الريف على قضائه في تحميل أكياس في مستوعات المؤن -، يلبس ما يتراوح بين زي مراقب مائدة قمار وفلاح: قميص مُثقب، وبدلة من الكشمير، وصندل رخيص، وقبعة قش كبيرة. ويسافر في أول حافلة تخرج من كونثيبثيون دي رويث. يصل إلى المزرعة مع انتشار الضياء، حين يكون الجميع نائمين باستثناء الكلب الذي لا ينبح. ينتعل الجزمة الموجودة تحت حافة القرميد، ويمضي حاملًا الرفش ليرى كيف يجري الري، وأية أضرار أحدثها الماء وأي تقدم أحرزه خلال الليل.

في اليوم وفي الساعة محل اهتمامنا كان تيتشو يقف عند طرف الأنبوب حيث يتدفق الماء. ويمكن لنا أن نتخيل ما رآه:

الطريق وأنبوب الري يمضيان مبتعدين عنه ومتجاورين. الطريق معطل بأكوام من الوحل وبرك ماء؛ أنبوب الري يمضي فوق حافة ترابية مغطاة بعشب أخضر. هذان العنصران يقسمان المزرعة إلى قسمين. إلى يمين تيتشو توجد الأرض المزروعة والمروية: مسطح فسيح من أرض سوداء مع بروزات دقيقة لنبتات قمح خضراء. إلى يساره تمتد الأرض غير المزروعة المهجورة: سوداء رمادية، مع كتل ترابية ناتئة ومتماسكة أشبه بالصخور. في الجانب الآخر من الأنبوب والطريق، توجد الناعورة، وإلى جانب الناعورة مستودع الغلال، وإلى جانب مستودع الغلال، البيت. البيت مطلي بالأبيض، له بوابة ونافذتان، مستودع المؤن بلون القرميد وله باب مغلق. وعلى بعد بضعة أمتار إلى يسار البيت يوجد العنبر وتحت العنبر الجَرَّار - لونه أحمر -.

الوقت صباحًا باكرًا. لا وجود لغيمة واحدة. الجو بارد.

تخرج هيئة بشرية من باب البيت، تتجه نحو مستودع المؤن، تفتح البوابة

الكبيرة وشيئًا فشيئًا، دون تسرع، تبدأ بالخروج من مستودع المؤونة أربع هيئات بشرية ملتفة بخرق. تتوقف لحظة تحت الشمس، ثم تتجه إلى حيث السياج، يرفعن تنانيرهن ويتخذن وضع القرفصاء، في صف واحد. هيئة الشخص الذي فتح الباب تتجه نحو العنبر، ينحني على الجَرَّار، يقوم بحركة فظة وتظهر كرة دخان بيضاء من مدخنة الجَرَّار. تُسمع فرقعة انفجار زائفة ولا شيء آخر. تظهر هيئة بشرية أخرى من بوابة البيت وتظل واقفة هناك، بلا حراك.

ينشغل تيتشو للحظة، ينحني على الرفش، يحرك كتل التراب كي يجري الماء، يعزز حافة ساقية، إلخ... لا يعود إلى رفع رأسه إلا حين يسمع الصرخة.

عندما يعاود النظر إلى المشهد، يكون الوضع قد تبدل. فالنساء الأربع اللواتي كن يجلسن القرفصاء يركضن الآن في الأرض غير المزروعة. يدرك تيتشو أنهن يسعين إلى اجتياز تلك الأرض بصورة مواربة كي يصلن إلى الطريق العام في نقطة أبعد من المكان الذي يقف فيه. الهيئة التي كانت عند بوابة البيت اختفت، والهيئة التي كانت عند العنبر القرميدي تتحرك باتجاه بوابة البيت. أشباح النساء الأربع اللاتي يركضن عبر الأرض غير المزروعة يتفرقن بعضهن عن بعض. الركض شاق، الأقدام تلتوي، وتغطس بين كتل التراب، يركضن ولا يتقدمن. الهيئتان الأخريان تقفان الآن أمام بوابة البيت. فالهيئة التي دخلت إلى البيت عادت الآن للخروج وأعطت الآخر الذي وصل للتو شيئًا تناوله بكلتا يديه.

هذا الشخص الأخير المنتصب يظل واقفًا بثبات للحظة. لا يُلمح الوميض ولا الدخان. الدوي يفاجئ تيتشو ويجعله يرتعش.

١٥
الريح الخبيثة

1

- يقول السيد دون تيوفيلو إن النساء الأربع اللاتي تُركن في عهدته هربن منه، ولهذا، واستجابة منه للأوامر التي أصدرتِها حضرتكِ إليه، أطلق النار عليهن بتلك البندقية التي أعطيتِه إياها أنتِ نفسك من أجل أن يهتم برعاية الأبقار. إحدى النساء قد ماتت. واحدة أخرى تحتضر. الاثنتان الأخريان استسلمتا واستطعنا إعادة حبسهن. هذا هو الخبر الجديد. يقول دون تيوفيلو أيضًا إنه ينتظر أوامر جديدة تصدرينها إليه.

هذه هي، مع تغيير ما يجب تغييره، الكلمات التي قدم بها تيتشو الخبر إلى آركانخيلا، بعد أقل من ساعة على وقوع الحدث. وبإمكاننا أن نتخيل ما قالته آركانخيلا حين سمعت هذا الخبر. فهي لم توافق، آنذاك ولا فيما بعد، ولا توافق الآن على أن تكون قد نطقت بكلمة «بندقية» فيما يتعلق بموضوع النساء الأربع اللواتي أخذتهن إلى مزرعة لوس آنخيليس.

- قلتُ له أن يعتني بهن، ولا يتركهن يذهبن، ولكن لم أقل له أن يضربهن بالرصاص.

وهي تشير حاليًّا إلى تيوفيلو، ودون تبديل، على أنه «زوج أختي النذل». ومن المناسب التنبيه إلى أن إسكاليرا، الذي أوصل النساء بسيارته إلى المزرعة، وإولاليا التي خرجت مع تيوفيلو لاستقبال السيارة عندما توقفت، قد قالا إنهما لم يسمعا آركانخيلا تتكلم عن بندقية.

ولكن النتيجة هي نفسها: آركانخيلا أعطت تيوفيلو البندقية، وأوصلت النساء إلى المزرعة، وقد أحس تيوفيلو أنه ينفذ بذلك الأوامر التي أعطته إياها آركانخيلا، فأطلق النار عليهن.

بعد قليل من تلقي الخبر شعرت آركانخيلا بالتوعك - مرضت بصورة رهيبة، على حدّ قولها -، واضطرت إلى التزام الفراش وحملتْ إليها كالافيرا، وهي في السرير، فنجان شاي من عشبة الإستافياتي. وبحسب كالافيرا، كانت آركانخيلا قد قالت آنذاك: هذا ما أحتاج إليه يا كالافيريتا، فالكارثة ستجتاحنا.

وريثما تستعيد آركانخيلا قواها، ذهبت سيرافينا وتيتشو إلى مزرعة لوس آنخيليس بسيارة إسكاليرا. وعند وصولهما كانت المرأة الجريحة قد ماتت.

لا وجود لمن يتذكر أن سيرافينا قد أنبت تيوفيلو على تصرفه. اكتفت باتخاذ الترتيبات التي قدّرت أنها مهمة: سارت عبر الحقول على حد قول تيتشو الذي كان يحمل على كتفه رفشًا ومعولًا، إلى أن وجدت مكانًا بدا لها مناسبًا. مكان بعيد عن الطريق العام، أسفل حافة مرتفعة قليلًا، محمي من النظرات الفضولية - على الرغم من عدم وجود من يلقي تلك النظرات - وعند مجموعة من نباتات الصبار، أمرت تيتشو بأن يبدأ الحفر.

وبينما هو يقوم بالعمل، عادت سيرافينا إلى بيت المزرعة. كانت قد وصلت إلى نتيجة أن تيوفيلو وزوجته، على السواء، غير مؤهلين «لرعاية نساء»، فجعلت زوج أختها يفتح مستودع الغلال، ثم أمرت المرأتين اللتين كانتا

محبوستين هناك بأن تصعدا إلى السيارة، ورجعت معهما إلى القرية. وبعد أن تركت كلًّا منهما في حجرتها، محبوستين من جديد، قامت برحلة أخرى إلى المزرعة كي تراقب عملية الدفن.

وُضعت ملابس المرأتين في كومة أُشعلت فيها النار. لُفت الجثتان بأكياس ونقلتا من تحت السقف القرميدي - حيث كانتا مطروحتين - إلى الحفرة، حملهما تيتشو وإسكاليرا وتيوفيلو الذي رفض في البدء المشاركة في العملية المأتمية. وعندما غطى إسكاليرا وتيتشو الحفرة ومحوا الآثار بأفضل ما استطاعا، أبدت سيرافينا رضاها. كان الظلام قد بدأ يخيم. وصار الجو باردًا. دعتهم إولاليا للدخول إلى البيت وأكل شيء ما - كان الرجال جائعين -، لكن سيرافينا رفضت الدعوة وقالت إنه موعد العودة إلى القرية. ذهبوا جميعهم إلى حيث السيارة وهناك تبادلوا الوداع: قبّلت سيرافينا أختها، فتح تيوفيلو باب السيارة وسأل أخت زوجته:

- أية أوامر ستوجهينها إليَّ الآن؟

- لا شيء - ردّت سيرافينا -. عندما تشعر آركانخيلا بالتحسن ستقرر ما الذي ستفعله معك.

قالت ذلك، وانطلقوا راجعين إلى القرية. أما تيوفيلو وإولاليا فبقيا وحيدين في المزرعة، مع جريمتين تثقلان على ضميريهما، جثتان مدفونتان على بُعد خمسين خطوة، عند حافة حدود المزرعة، وإحساس مزعج بأنهما لم ينالا رضا من منحهما عملًا.

2

خلال الأسابيع التالية، انقسم مجتمع كازينو الدانسون وأعيد اصطفافه عدة مرات، وفق تذبذب نزوات آركانخيلا الغامضة.

النساء الأربع اللاتي ضربن روسا جرى فصلهن عن زميلاتهن كالطاعون. وكنَّ خلال بعض الوقت في أدنى درجات التراتبية في الماخور: يعشن حبيسات، كل واحدة منهن منفصلة عن الأخريات، في أشد حجرات البيت ظلمة. وكانت كالافيرا تحمل إلى حجراتهن، مرتين في اليوم، قطع عجة وفاصولياء، بكميات تُبقيهن على إحساس دائم بالجوع. أما النساء الثلاث اللاتي لم يشاركن في أي هجوم، ومعهن مارتا، فكن يتمتعن بالمقابل بحرية التجول في البيت، بل يمكن لهن الدخول إلى المطبخ وإعداد شطيرة عندما يشعرن بجوع مفاجئ. التقييد الوحيد عليهن هو الشارع الذي يحظر على ثلاث منهن الخروج إليه. أما الأخرى، مارتا، فيمكنها عمل ذلك فقط برفقة كالافيرا للذهاب إلى السوق. أما روسا التي مازالت مريضة، غير قادرة على الحركة، فكانت تتلقى معاملة جيدة نسبيًّا، وهي في فراشها. هؤلاء النسوة وسيدتاهما كن يأكلن بطريقة متواضعة، ولكنها كافية: فاصولياء وعجة، لمن يشأن ذلك، وحساء شعيرية بين حين وآخر، وطبيخ لحم مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، لا سيما حين يبقى النقيب بيدويّا لتناول العشاء في البيت - وتقدم له كالافيرا دومًا بيضة مع

الغداء، بيضة ترى النساء الأخريات مرورها محمولة إليه في طبق وحسب -. في الساعة التاسعة ليلًا يأتي الشجاع. وكان النقيب قد أمره بارتداء ملابس مدنية حين يكون في خدمة الأختين بالادرو، ولكن الشجاع لم يكن يملك كمية كافية من الملابس المدنية، فكان يأتي في معظم الليالي بقميص نظامي، يمكن أن تُقرأ على ياقته أرقام، باهتة، ترمز للفوج الذي ينتمي إليه. كانت كالافيرا تتساهل معه. تقدم له على العشاء بيضتين مغمورتين بصلصة فلفل كاسكابيل الحار، وكومة من العجة وفنجانًا كبيرًا من شاي أوراق البرتقال، بهدف أن يتمكن، على حد قول كالافيرا، من الصمود أكثر في مقاومة «البرد». ويقول الشجاع إنه يقوم بالحراسة كيلا تهرب المحتجزات الأربع. والواقع أنه كان يلتف بالمعطف السميك وينام بعمق، في منتصف الدرج، وإلى جانبه بندقية آلية.

عندما قتل تيوفيلو المرأتين تبدل الحال. فالناجيتان من ذلك الحادث انتقلتا لتشغلا المكان الأكثر انخفاضًا على سلم التراتبية في الماخور. لأنهما شهدتا موت زميلتيهما في الهروب، جرت معاملتهما كمجرمتين. تم احتجازهما في «حجرتين أُغلقت نوافذهما بجدران»، وما كان يقدم إليهما من طعام هو البقايا التي يخلفها الآخرون في القدور، أي لا شيء تقريبًا، ولم يسمح لهما بالخروج قطّ. كانت هاتان المرأتان معزولتين بفعالية شديدة، بحيث أن الأخريات اللاتي يعشن في البيت لم يعرفن، إلا بعد شهور عديدة، أنهما سجينتان هناك، ولم يعلمن بأمر ما حدث في المزرعة.

وخلافًا للعقاب والعزلة الصارمة المفروضة على المرأتين اللتين رجعتا من المزرعة، قررت آركانخيلا أن تخفف عقوبة النساء الأربع اللاتي هاجمن روسا - على الرغم من أن هذه الأخيرة مازالت مريضة -، وقررت أن يُسمح لهن خلال النهار بالخروج، وأن يأكلن في المطبخ إلى أن يشبعن، وأن يلتقين معًا ويتبادلن الحديث مع الأخريات. وبعد العشاء يعدن إلى حجراتهن حيث تحبسهن كالافيرا حتى اليوم التالي.

يبدو أن هذا العمل، بإقفال القفل ليلًا وإعادة فتحه في الصباح، جلب لكالافيرا ضغينة الحبيسات، ممن كانت تحتفظ معهن حتى ذلك الحين بعلاقة حميمة نسبيًّا - على الرغم من أنه لم تكن هنالك لحظة شك واحدة في أن كالافيرا هي مؤيدة غير مشروطة لكل ما تفعله الأختان بالادرو، وهي بالتالي معادية لأي نوع من العصيان. يبدو أنه لم يكن هنالك استفزاز ولا خلاف. ولم يكن معروفًا ما الذي تريد النساء الأربع الوصول إليه.

جرت الحادثة على النحو التالي. ذات صباح، بعد تناول وجبة الفطور، كانت النساء الأربع في المطبخ يغسلن الأواني، عندما دخلت كالافيرا. هي قالت إنها أدركت، منذ لحظة دخولها، أنهن كن في انتظارها، بينما تؤكد النساء الأربع بأنهن لم يكن قد اتفقن مسبقًا. وتقول كالافيرا إنها لم تفتح فمها بأي كلام، بينما يقلن إنها شتمتهن بالقول «يا للعاهرات!» (؟). والمسألة هي أنه قبل أن تتمكن كالافيرا من الدفاع عن نفسها، بادرت آورورا باوتيستا إلى نطحها برأسها في وجهها، وقامت أخرى، لا تدري الضحية من هي، بضربها

على رأسها بمغرفة خشبية كبيرة.

يبدو أن كل شيء يشير إلى أن محاولة النساء الأربع كانت ترمي إلى العمل بكالافيرا ما فعلته، من قبل، النساءُ الأربع الأخريات بمارتا: رميها في المرحاض القديم ودفنها حية. (من المهم ملاحظة أن احتمالات نجاح هذه المحاولة كانت أكبر من السابقة، ذلك أن كالافيرا أشد نحولًا بكثير من مارتا، وكان بالإمكان إدخالها من فتحة المرحاض).

من حسن حظ جميع المشاركات أن المحاولة قد أُحبطت. كانت النسوة يمضين في الفناء باتجاه المرحاض القديم، حاملات كالافيرا بين أذرعهن، شبه غائبات عن الوعي، عندما التقين وجهًا لوجه مع آركانخيلا، وكانت عائدة إلى البيت بعد تقديمها العلف للدجاجات. ما حدث حينئذ يكشف عن السلطة التي مازالت تتمتع بها المعلمة على العاملات لديها. ففي لحظة رؤيتهن لها، فوجئت النساء الأربع ولم يحاولن عمل أي شيء سوى الانصياع لأوامرها. ودون أن تضطر آركانخيلا إلى إفلات طبق كانت تحمله في يدها، أمرت الأربع الأخريات بأن يحملن كالافيرا إلى حجرتها، وأن يضعنها في فراشها، وأن يستدعين سيرافينا التي كانت تخيط في قاعة الطعام، كي يطلبن منها أن تحبسهن.

في تلك الليلة قام النقيب بمراقبة العقوبة. جعل المذنبات الأربع يتبادلن الضرب فيما بينهن بالمغرفة الخشبية. وكان في هذه المناسبة أن قامت آورورا باوتيستا، مدفوعة بغريزة غامضة، بضرب سوكورّو عدة مرات على فمها إلى أن حطمت أسنانها. فصرخت ماريا دل كارمن: «ستقتلينها»، وتدخل النقيب وانتزع المغرفة الخشبية من يد آورورا. وخلال المحاكمة، أشار النقيب إلى تصرفه الإنساني ذاك.

أما كالافيرا التي ظل وجهها متورمًا لأكثر من أسبوع، فلم تتدخل تلك الليلة في العقاب، ولم تبدِ فيما بعد ما يشير إلى حقدها على من هاجمنها.

3

في منتصف كانون الأول/ديسمبر، اضطر النقيب بيدويّا إلى القيام برحلة إلى مدينة ميسكالا من أجل تسوية مسألة لها علاقة بالخدمة. وقبل أن ينطلق في الرحلة فكر في مسألتين: الأولى، أن تكلفة غرفة في الفندق ستكون هي نفسها إذا نام فيها وحيدًا أو مع مرافقة، الثانية، أن الحياة في كازينو الدانسون صارت ضاغطة أكثر فأكثر وأن سيرافينا التي عاشت في توتر دائم طوال شهور، تستحق قسطًا من الراحة. فدعاها النقيب لمرافقته، ووافقت سيرافينا.

قاما بالرحلة في حافلة الدرجة الأولى. وكان النقيب لطيفًا: سمح لسيرافينا بالجلوس في المقعد المجاور للنافذة، كما أنه، وهو ما لم يفعله من قبل مع أحد، نزل من الحافلة في إحدى توقفاتها ليشتري ثمار تيخوكوتي مغمسة بالقَطر، وهي حلوى تشتهيها سيرافينا كثيرًا - ودفع هو ثمنها -. كان النقيب

يسافر بزيه العسكري، أما سيرافينا، وكي تتجنب تشعث شعرها، فقد غطت رأسها بمنديل أحمر.

يقول النقيب إنه في لحظة انطلاق الحافلة بدا كما لو أن سيرافينا قد نسيت المشاكل التي في البيت، ودخلت في سكينة، وظلت مستغرقة في تأمل المشهد وكثيرًا ما كانت تعلق بعبارات مثل: «انظر ذلك النتوء الصخري كم هو مرتفع»، أو «أية مشاعر تتملك المرء إذا ما عاش في مثل هذا المكان المنعزل؟»، وهو ما يشير بوضوح، حسب رأي النقيب، إلى تطلعات سيرافينا آنذاك إلى التخلي عن الدعارة والتوجه إلى الزراعة.

في الساعة الثامنة ليلًا وصلا إلى مدينة ميسكالا. وظل النقيب أريحيًّا. استبعد فكرة النزول في أحد الفنادق القريبة من محطة الحافلات، باعتبارها «رخيصة، لكنها في مكان شديد الصخب». ركبا سيارة أجرة - وقد دفع هو - أوصلتهما إلى فندق في وسط المدينة وأنيق نسبيًّا. ولم يغضب النقيب حتى عندما أخبره موظف الفندق بأسعار الغرف. بل ألح على أن يعرضوا عليه عدة غرف كي تختار سيرافينا الغرفة التي تروق لها. وقد اختارا أخيرًا غرفة لها شرفة تُرى منها حديقة صغيرة، فيها مقاعد، وواجهة كنيسة.

نزعت سيرافينا المنديل الأحمر عن رأسها وأخذها النقيب لتناول العشاء في مشرب بيرة مشهور.

في اليوم التالي، أمضى النقيب معظم فترة الصباح في مكاتب قيادة العمليات. وذهبت سيرافينا إلى السوق المقنطر واشترت أصنافًا من حلويات ميسكالا التقليدية لتأخذها تذكارًا لأختها. وفي منتصف النهار، بينما كان النقيب عائدًا إلى الفندق، رآها من بعيد، تطل من الشرفة، تلوح بيديها وتبتسم له. ويقول إنه لم يرها منذ شهور طويلة سعيدة على ذلك النحو.

بعد تناولهما الغداء ذهبا إلى السينما، وبعد الخروج من السينما افترقا: رجع النقيب إلى القيادة، بهدف مواصلة مساعيه وذهبت سيرافينا ماشية باتجاه الفندق. وهي تصف ما حدث لها على النحو التالي. كانت تمضي في شارع لا تتذكر ما هو اسمه، عند الغروب. كان هناك أناس كثيرون. وفجأة، تقول، لمحتْ على الرصيف المقابل شيئًا، لا تستطيع أن تقول ما هو - شبحًا، إيماءة، إيحاء -، استثار قلقها. تقول إنها واصلت المشي، وإنها لم تدر في البدء ما الذي يحدث، وإنها احتاجت لبعض الوقت كي تنتبه إلى أنها قد رأت سيمون كورونا بين الناس. كل الغضب المتراكم طوال تلك السنوات انهال عليها فجأة، أحست بمرارة في فمها واضطرت إلى التوقف كي تبصق. تقول إنها أحست مرة أخرى بمهانة تلك الليلة في أكابولكو، عندما دخلت قلقة إلى المتجر، ورأت الباب الآخر وأدركت أن سيمون قد خدعها. تقول إنها عادت للشعور بالأسى الشديد على نفسها: هي التي كانت طيبة جدًّا، مقابل الخبث الذي جعلها الآخر تدفع الثمن. وتظن لو أنها كانت تحمل المسدس عيار ٤٥ في حقيبتها اليدوية، لكانت أخرجته وأطلقت النار على الناس المارين على الرصيف المقابل. لكنها لم تكن تحمله.

تقول إنها تحولت إلى مجنونة. اجتازت الشارع متفادية السيارات، ضربت

بمرفقها رجلًا بدينًا كان يعرقل تسرعها، ركضت بضعة أمتار، وصلت إلى الناصية، وظلت واقفة هناك، تنظر في كل الاتجاهات، دون أن تتذكر أثر الرجل الذي تكرهه.

تقول إنها ضيعت الاتجاه، وإنها مشت في الشوارع، وكان عليها أن تسأل عن طريق العودة إلى الفندق. وفي ذلك الضياع تضاعفت حدة رغبتها في الانتقام.

- كيف يمكن لمثل تلك الإهانة الرهيبة أن تظل بلا عقاب؟ هذا ليس عدلًا.

يقول النقيب بيدويّا إنه عند عودته إلى الفندق وجد سيرافينا متبدلة. وبدلًا من أن تطل من الشرفة، كما كان ينتظر، رآها، حين فتح الباب، جالسة على كرسي، في ركن شبه مظلم من الغرفة. نظر إليها. بدا جليًّا أنها كانت تنتظره. وما كاد يدخل حتى قالت له:

- هنالك في حياتي شيء لا تعرفه.

من الممكن تخيل النقيب يخلع السترة، يدخل إلى الحمام ويتبول والباب مفتوح، بينما سيرافينا، تقف في منتصف الغرفة وتروي، بصوت مغموم من التأثر، قصة علاقتها بسيمون كورونا - الذي يجهل النقيب كل شيء عن وجوده - تُسمع كلمات «خدعة»، «جحود»، «لا يغتفر»، إلخ... وتنتهي إلى القول:

- من أجل قتل هذا الرجل أريد مسدس الـ 45 الذي بعتني إياه...

ما يحدث بعد ذلك مفاجئ: فبدلًا من أن يقول النقيب بيدويّا لسيرافينا إن ما تقوله مجرد بلاهات، وعليها أن تحاول نسيان الحادث، فإنه يؤيدها ويعدها بالمساعدة في إنجاز الانتقام.

يبدو أن سيرافينا قد أمضت اليوم التالي متجولة في شوارع ميسكالا بحثًا عن سيمون كورونا. لم تجده - وقد علمت فيما بعد أن سيمون كورونا لم يكن في المدينة في تلك الأيام، وأن ما رأته سيرافينا في الشارع كان وهمًا -. أقنعها النقيب، بمشقة، بالعودة إلى كونثيبثيون دي رويث. لم تنس هي النية التي بيتتها، ولا وعد النقيب بمساعدتها، ولهذا انطلقت سيرافينا بعد بضعة أيام، مع النقيب والشجاع نيكولاس وإسكاليرا، في الرحلة إلى سالتو ديلا توكسبانا. (انظر الفصل الأول).

(خلال المحاكمة، أدرك النقيب بيدويّا أن الهدف من الرحلة إلى سالتو ديلا توكسبانا هو «التسبب بلحظة رعب حقيقي» لسيمون كورونا، وليس قتله، كما يمكن أن يكون قد استُنتج من كمية طلقات الأسلحة ذات العيارات القاتلة التي أطلقها كل من سيرافينا والشجاع نيكولاس إلى داخل المخبز. أقوال الشجاع تتفق مع أقوال النقيب: قال إنه رام ماهر، وما كان سيجد صعوبة في إصابة الشخصين اللذين كانا منبطحين على الأرض، وراء منضدة الكونتوار. أما سيرافينا فأجابت على سؤال القاضي «ألا تظن حضرتك أن ذلك الرجل - سيمون كورونا - يستحق الموت لأنه تركها تنتظر عند ناصية، وهو لا ينوي الرجوع إليها؟»، أجابت بنعم واعترفت بعد ذلك أنها حين وقفت عند باب المخبز، أطلقت النار على الأجساد، ولكن المسدس عيار ٤٥ «لم ينصع لها»).

١٦
مجيء الشرطة

1

- هل تشتبه حضرتك بأحد يمكن أن يكون قد قام بهذا الهجوم؟ - توجه وكيل النيابة العامة في سالتو ديلا توكسبانا بالسؤال إلى سيمون كورونا الذي كان مضمدًا ومستلقيًا على سرير في قسم الإسعاف. فأجاب سيمون دون تردد بأنه يشتبه بسيرافينا. وعندما طلب منه الوكيل عنوان المذنبة المزعومة، قدم سيمون عنوان بيت الطاحونة، لأنه لم يكن يعلم بوجود كازينو الدانسون. ابتداء من تلك اللحظة، تابعت التحريات دروبًا بيروقراطية، راحت تتحول إلى أوراق تبقى لأيام كاملة في دُرج مكتب، تتكاثر، ترجع إلى نقطة البداية، ثم يُعاد إرسالها، تصل إلى مكتب آخر، تبقى لأيام أخرى في درج مكتب آخر. وفي هذه الحالة لا يعرف أحدنا بماذا يُعجب أكثر، بتعرجات العدالة أم بعصمتها عن الخطأ. الإجراءات البيروقراطية تبلغ ذروتها عند وصولها إلى يدي المفتش تيودولو كويتو، من شرطة كونثيبثيون دي رويث، على شكل ورقة تقول: «تفضلي بوضع نفسك تحت تصرف النيابة العامة لولاية ميسكالا؛ السيدة سيرافينا بالادرو خواريث، إلخ.».

أول ما فعله مفوض الشرطة عند تلقيه هذا الأمر هو مقابلة مع النقيب بيدويّا في حانة فندق غوميس. المفتش كويتو ينكر أنه أجرى ذلك اللقاء. أما النقيب بيدويّا بالمقابل، فيصف ما قيل في اللقاء على النحو التالي:

قال لي إنه ينبهني إلى أنه قد وصله أمر باعتقال سيرافينا، وهذا يستدعي منها أن تبادر إلى إبلاغ محاميها. فقلت له إنني لا أفهم سبب وجود أمر اعتقال ضد سيرافينا، وأقل من ذلك فهمي لحاجتها إلى محام. فقال لي مفوض الشرطة عندئذ إن إطلاق نار قد وقع في سالتو ديلا توكسبانا وإن اسمها يرد في محاضر التحقيق. ولدى سماعي هذا الكلام أجبت:

- أقسم لك أيها المفتش، كضابط في الجيش المكسيكي وبشرف أمي الطاهرة، أن سيرافينا لا تعرف أحدًا في سالتو ديلا توكسبانا، ولم تذهب إلى تلك القرية، ولا تعرف مكانها وربما لا تتخيل أن لها وجودًا.

فقال لي المفتش إنه ممتن لصراحتي، وإنه واثق من أنه لا وجود لأي جريمة تثقل على رأس سيرافينا. ومع ذلك، لا بد له من القبض عليها. فشكرته عندئذ لأنه أطلعني على الخبر. فأضاف أنه، وفقًا للتعليمات التي لديه، سيكون مضطرًا في اليوم التالي إلى كسر أختام إغلاق كازينو الدانسون والتفتيش داخل المكان. وقال لي إنه واثق من أنه سيجد كل شيء طبيعيًّا ونظاميًّا. فقلت له ألا يقلق. وأن كل شيء نظامي. وبعد هذا تبادلنا الوداع.

تبادلا الوداع وتوجه النقيب بيدويّا بأسرع ما يستطيع إلى الكازينو. أثار الخبر، كما هو طبيعي، حالة من الذهول. تقول كالافيرا إن آركانخيلا وبخت سيرافينا:

- بسبب أنانيتكِ، ولأنكِ لا تسعين إلا إلى انتقامك الخاص - يبدو أن هذا ما قالته لها - سوف تغرقِيننا.

فردت سيرافينا:
- أي ذنب ارتكبته بولادتي عاطفية؟
جرت تحركات وصدرت أوامر حاسمة. أعد تيتشو مزيجًا طينيًّا في قاعة الطعام وبدأ بإغلاق الممر بين البيتين. استُدعي إسكاليرا. وصدرت أوامر للنساء بإعداد أغطية وأوانٍ من أجل الذهاب لقضاء الليل في مزرعة لوس آنخيلس. حاولت سيرافينا الاتصال بالمجاز ريندون الذي اختفى من القصة في هذه اللحظات. سعتْ الأختان بالادرو إلى الاتصال به في أكثر من ثلاثين مناسبة خلال الخمسة عشر يومًا التالية، دون التوصل إليه. شاع التردد والحيرة. اقترحت سيرافينا على أختها، أمام شهود:
- فلنذهب إلى الولايات المتحدة.
لكنهم ذهبوا إلى المزرعة. في المساء، قام إسكاليرا بأربع رحلات بالسيارة. عادت النساء الإحدى عشرة المتبقيات إلى الاجتماع معًا. وضعن حصائر في مستودع الغلال ونمن عليها، تحت حراسة كالافيرا، بوئام ظاهري. برد الجو. وفي الصباح اكتشفوا أن حرارة روسا مرتفعة. شخَّصت كالافيرا الحالة على أنها رشح، ومن أجل علاجه أعدت شاي الزعتر. شربته روسا، بدت كما لو أنها قد تحسنت، ثم ماتت بعد ثلاث ساعات. دفنها تيتشو على حافة الحقل في حفرة حفرها بصورة مستعجلة، إلى جانب الاثنتين الأخريين.

2

في اليوم التالي، ١٤ كانون الثاني/يناير، أزال المفتش كويتو أختام البيت في شارع الاستقلال ودخل إليه يرافقه ثلاثة رجال شرطة بالزي الرسمي وكاتب محكمة. يبدو أنهم جابوا أنحاء البيت دون أن يعثروا على شيء غير طبيعي. خلال أقل من خمس عشرة دقيقة كانت الشرطة داخل البيت. التقرير المرفوع مر بصورة عابرة على واقع أن قطع العجَّة التي في المطبخ لا يمكن لها أن تكون موجودة منذ سنتين.
في ذلك المساء، ذهب المفتش كويتو إلى مزرعة لوس آنخيليس. عاد أنبوب الري إلى التشقق من جديد، فكان الطريق موحلًا، علقتْ فيه سيارة المفتش. وبينما رجال الشرطة الثلاثة وكاتب المحكمة يحاولون إخراجها، مشى المفتش المئتي متر التي تفصله عن البيت. كانت آركانخيلا وسيرافينا أمام الباب، كأنهما تنتظرانه. ويقول المفتش كويتو إنه قبل أن يتاح له الوقت لإلقاء تحية المساء على السيدتين، قالت له آركانخيلا:
- أقدم لك عشرة آلاف بيزو مقابل أن تقول إنك لم تجد أختي في أي مكان.
ليس معروفًا ماذا كان رد المفتش. (الأختان بالادرو لم تقولا قطّ إنهما عرضتا عليه نقودًا أو قدمتاها إليه). في تلك الليلة كتب المفتش تقريرًا أرسله إلى القيادة يقول فيه إنه قد أزال أختام كازينو الدانسون، وفتش داخل المكان وزار مزرعة لوس آنخيليس، «دون أن يعثر على الشخصية المطلوبة». نبرة هذا الخطاب نهائية وحاسمة. من يقرأه وهو يجهل القصة يمكن له أن يفترض أن

البحث قد توقف عند ذلك الحد.
لم يكن الأمر كذلك. ففي اليوم التالي عاد المفتش كويتو إلى كازينو الدانسون، يرافقه كما في المرة السابقة، ثلاثة شرطيين بالزي الرسمي وكاتب محكمة.
(من الملائم ملاحظة أن الأسباب التي دفعت المفتش كويتو للعودة إلى الكازينو غامضة، مثل الأسباب التي كانت لديه حين نبه النقيب بيدويّا إلى أنه يوشك على القيام بعملية اعتقال، عندما تبادل الحديث معه في حانة فندق غوميس. التفسير الذي قدمه لتصرفه هو التالي:
حجم المبلغ الذي عرضته عليّ السيدة أركانخيلا كان كبيرًا جدًّا إلى حد دفعني إلى الارتياب بأن ما يثقل على ضمير السيدتين بالادرو هو جريمة أخطر من إطلاق نار عشوائي في سالتو ديلا توكسبانا، حيث لم يفقد أحد حياته أو يصَب بجراح خطيرة. لهذا قررتُ العودة إلى كازينو الدانسون وإجراء تحريات أكثر دقة).
في الزيارة الثانية لكازينو الدانسون جال المفتش كويتو ورجاله على الغرف، صعدوا ونزلوا على الأدراج، دخلوا إلى الكباريه وخرجوا منه، مروا من المطبخ، تفحصوا مستودع الفحم ووصلوا أخيرًا إلى الفناء. لا بد أنهم عثروا على ما لا حصر له من الأدلة على أن المكان كان مسكونًا قبل وقت قريب، ولكن لم يكن هذا هو ما يبحثون عنه. ففي الفناء، مشى المفتش من جهة إلى أخرى.
- وفجأة - يقول -، انتبهت إلى أن قدميَّ تغوصان.
فاستدعى أحد الشرطيين الذين يرافقونه وأمره:
- خذ معولًا واحفر حفرة هنا. أريد أن أرى ما هو موجود تحت.
عندما بلغ عمق الحفرة مترًا ظهر ما تبقى من إحدى يدي بلانكا.

3

بعد العثور على هذا الدليل الحسي، حدث انقطاع دام عدة ساعات: طلب المفتش كويتو تعزيزات من بيدرونيس وانتظر وصولها قبل أن يقوم بالخطوة التالية. يُضيع المزيد من الوقت فيما بعد، باتخاذه بعض الاحتياطات: ينشر جماعة من القناصة جنوبي مزرعة لوس آنخيليس لمنع الخروج عبر الطريق العام؛ وفي الشمال فريق قناصة آخر من أجل تغطية التقدم، الخ... المفتش هو أول من وصل إلى البيت. كان يعتمر قبعة كبيرة، وسترة واقية من الرصاص، ويحمل مسدسًا في يده. كان البيت خاويًا. عندما حطمت الشرطة قفل بوابة مستودع الغلال. وجدوا معظم النساء الحبيسات فيه يتذمرن لأنهن لم يأكلن لقمة واحدة منذ أربع وعشرين ساعة.
إحدى السجينات - آورورا باوتيستا - تقول إنها سمعت الأختين بالادرو يقلن كلمة «نوغاليس». عند سماع ذلك، تصرف المفتش لأول مرة بسرعة. أمر بأن تنقل النساء اللواتي في مستودع الغلال إلى مركز الشرطة وصعد هو مع شرطيين إلى سيارته وقادها بأقصى سرعة باتجاه بيدرونيس.

وصلوا إلى محطة الحافلات في الوقت المناسب لوقف الحافلة التي ستخرج. كانت في تلك اللحظات باتجاه نوغاليس. لحق بهم المفتش كويتو وظل للحظة واقفًا في ممر الحافلة، ينظر فيما حوله. هناك في المقعدين ٢٣ و٢٤ امرأتان، نائمتان ظاهريًّا، وقد غطتا وجهيهما بأذرعهما. إنهما الأختان بالادرو.

4

عندما وصلت الأختان بالادرو إلى مركز الشرطة في كونثيبثيون دي رويث، اقتيدتا عبر ممر يؤدي إلى الغرفة التي كانت تؤخذ فيها أقوال النساء اللاتي كنّ محبوسات في مستودع الغلال. ويقولون إن النساء، عند رؤيتهما الأختين تمران تحت الحراسة، نهض عدد منهن عن المقعد حيث كن يجلسن، وتوجهن نحو الباب، ومن هناك صرخن بهما: «عجوزا اللعنة»، «متشدقات» وعبارات أخرى. هذه الشتائم التي دوت في الممر هي أولى اللعنات التي تلقتها الأختان بالادرو من موظفاتهما.

كان النقيب بيدويّا قد اتفق مع سيرافينا على أن يلتقيا في نوغاليس - حددا الموعد في محطة الحافلات -. ولجهله بأن الأختين قد اعتقلتا، نام في الثكنة، واستيقظ باكرًا، تفقد جنوده، ثم تناول الفطور في فندق غوميس ووصل إلى مصرف بلان دي آباخو التجاري عندما كانوا يفتحون الأبواب.

وبينما النقيب يملأ بطاقة لسحب الأرصدة التي يملكها في حساب التوفير، دخل إلى المكتب الشرطيان القادمان لاعتقاله. اقتربا منه وقال له أحدهما بصوت خافت، كيلا يلحظ موظفو المصرف ما الذي يحدث:

- حضرة النقيب، أنت معتقل.

ويقول الشرطي السري إن النقيب بيدويّا حين سمع ذلك، مزق البطاقة التي في يده وخبأ القلم، ومد نحوه معصميه متلاصقين، كي يقوم الآخر بتقييدهما. ولكن الشرطي لم يكن يحمل قيودًا، ولذا خرج الرجال الثلاثة من المصرف متأبطي الأذرع، كما لو أنهم أصدقاء مبتهجون باجتماع شملهم.

الشجاع نيكولاس الذي كان يظن أنه لم يرتكب أي خطأ، جرى اعتقاله في الثكنة. وإسكاليرا الذي كان يظن أيضًا أنه بريء، جرى اعتقاله بعد يومين من ذلك، عندما كان يعلق على قضية الأختين بالادرو مع سائقي سيارات أجرة آخرين، وهو جالس على أدراج كنيسة سان فرانسيسكو. أما تيتشو فلم يشِ به أحد ولم يبحث عنه أحد. لكنه سلَّم نفسه بنفسه حين علم أن الأختين بالادرو قد اعتُقلتا. وقد تكبد مشقة تقريبًا لتسمح له الشرطة بدخول زنزانة. وكان بإمكان إولاليا وتيوفيلو أن يهربا، لأنه لم يكن لدى الشرطة صور لهما، لو لم يخطر لهما أن يجتازا الحدود - أرادا «أن يكونا بمنجى» -. جرى اعتقالهما في تكساس لأنهما يسافران بلا جوازات سفر، وسُلّما إلى الشرطة المكسيكية، حيث قدما اسميهما الحقيقيين.

في سجن كونثيبثيون دي رويث، حيث لم يكن يوجد فيه بصورة عامة سوى

سجناء سكارى يُطلق سراحهم في صباح اليوم التالي بعد أن يكنسوا الشوارع، ضم بين جدرانه، لأول مرة، تسعة عشر نزيلًا.

بعد بضعة أيام، صاروا عشرين نزيلًا. فقد اقتيد سيمون كورونا إلى كونثيبثيون دي رويث ليدلي بأقواله. ظل هناك أقل من يوم واحد، لأن سجينًا آخر، لم يُعرف من هو، طعنه بسكين - لم تكن الطعنة قاتلة - وكان لا بد من نقل سيمون على جناح السرعة إلى مستشفى.

5

الدور الذي لعبه المفتش كويتو في اعتقال الأختين بالادرو هو أحد الأجزاء الغامضة من هذه القصة. يمكن شرحه بصورة تقريبيَّة على النحو التالي:

المفتش تيودولو كويتو الذي يظهر اسمه في كتاب آركانخيلا، في فصل «مدفوعات» (انظر الملحق ٥)، حاول في البدء إنجاز واجبه، وأن يمنح في الوقت نفسه الأختين بالادرو عدة فرص لتنجوا - مقابلته مع النقيب بيدويّا في حانة فندق غوميس، يدخل إلى الكازينو حين لا يكون هناك أحد في الداخل، لا ينفذ الاعتقال عندما يجد المرأة التي لديه أوامر بالقبض عليها - من المحتمل أن يكون قد قبل العشرة آلاف بيزو التي عرضتها عليه آركانخيلا، ليس لإغلاق ملف القضية بصورة نهائية، وإنما لمنح الأختين أيامًا إضافية. من المحتمل كذلك أن المفتش قد غيَّر رأيه في لحظة معينة من التحقيق - عندما رأى ظهور يد بلانكا في الفناء، على سبيل المثال - وقرر تسريع العملية وتنفيذ الاعتقال. كانت الأختان بالادرو بحاجة إلى أربع وعشرين ساعة أخرى كي تنجوا.

لا بد من تقبل أن هذا الاحتمال لا يفسر أن المفتش قد اكتشف جثة بلانكا في زيارته الثانية لكازينو الدانسون، فذلك الأمر قد حدث، كما يبدو، بمصادفة محضة.

١٧
عدالة القاضي بيرالتا

1

عند تكليفه بتشكيل محكمة ضد «سرافينا وآركانخيلا بالادرو»، كانت أولى اهتمامات القاضي بيرالتو تقسيم الخمسة عشر معتقلًا إلى مجموعتين. من تذمروا من سوء المعاملة عند تقديمهم بياناتهم الأولية اعتبروا ضحايا، ومن لم يتذمروا من أي شيء اعتبروا مذنبين افتراضيين.

تمثلت الخطوة التالية في فصل الضحايا جسديًّا عن المذنبين. النساء الست اللواتي صُنفن من الفئة الأولى جرى إخراجهن من الزنزانة التي كن فيها ونُقلن إلى غرفة أُعدت لهن في مبنى المحاكم، غرفة بلا قضبان حديدية وبإطلالة على الفناء الداخلي، ووُضعت فيها الأَسِرَّة التي قدمتها عدة أُسَرٍ مسيحية. ومَنَحَ القاضي أولئك النسوة إذنًا بالخروج إلى الشارع، مذكرًا إياهن بوجوب حضورهن خلال الجلسات القانونية، وأعفاهن كذلك من واجب أكل الطعام الذي تعدّه زوجة حارس المحكمة - وهي وجبات كريهة وفق آراء شائعة - وقامت جماعة من سادة كونثيبثيون دي رويث، على رأسهم رئيس البلدية، بجمع النقود اللازمة ليدفعوا إلى صاحبة نُزل في السوق كي تأتي كل يوم إلى دار القضاء بوجبات فطور وغداء لستة أشخاص في علب حافظة للطعام. كان الجمهور قلقًا على حالة أولئك النسوة الصحية، وقد أكدن في أقوالهن أنهن لم يأكلن كفايتهن من الطعام منذ أكثر من عام.

- انتظروا فقط ريثما يعلم أصدقاؤنا المتنفذون بما تفعلونه بنا وسوف ترون من الذي على حق - قالت آركانخيلا - عندما قرأ كاتب المحكمة الاتهامات الواردة في محاضر التحقيق.

مضى يومان. لم يظهر الأصدقاء المتنفذون ولم تستطع الأختان بالادرو مجرد التواصل مع المجاز ريندون. كانتا بلا محامٍ للدفاع عنهما. عندما عُرف ذلك، طلبت ثلاث نساء من القاضي، لم يكنَّ قد قلن شيئًا من قبل، أن يسمح لهن بأن يضفن إلى أقوالهن إنهن عندما بدأن العمل مع الأختين بالادرو، كن مخدوعات بشأن المهنة التي سيمارسنها - اثنتان منهن وصلتا إلى بيت الطاحونة معتقدات أنهما ستعملان خادمتين، وكانت الأخرى تظن أن الدار هي معمل أعواد ثقاب -، وكن قاصرات، وقد ظللن هناك عشرة أعوام، وخمسة أعوام، وخمسة عشر عامًا على التوالي - رغم إرادتهن ودون أن يتلقين أية أجور عن خدماتهن.

يوم أضفن هذه المعلومات إلى أقوالهن، أُخرجت النساء الثلاث من الزنزانة وتلقين بعد ذلك معاملة الضحايا.

2

في البدء رفضت الأختان بالادرو أن تقدما أية أقوال قبل التشاور مع محامٍ. ومع مرور الوقت لم يظهر المجاز ريندون، ولم تجدا مفرًّا من الرد، دون تلقي أية

نصائح، على استجواب أولي.
سؤال: كيف تعللين حضرتك وجود ثلاث جثث في فناء البيت؟
جواب: لا نعرف أي شيء عن ذلك. من يدري من الذي وضع الجثث هناك.
أو:
سؤال: هنالك عدة نساء مستخدمات يشتكين من أنكما كنتما تتسببان في موتهن جوعًا. يقلن إنكن لم تكونا تقدمان سوى قطعة عجة وخمس حبات فاصولياء لكل واحدة منهن. ما ردك على هذا؟
جواب: هذا كذب. كنا نقدم لهن الطعام نفسه الذي يؤكل في كل مكان. بما في ذلك حساء الشعيرية.
في اليوم الرابع للاعتقال، قال معلقو عدة صحف في مقالاتهم إن للأختين بالادرو نفوذًا كبيرًا جدًّا في ولاية بلان دي آباخو مما سيجعل من المحال إدانتهما. وردًّا على هذه الإشاعات، أعلن القاضي بيرالتو حجزًا مؤقتًا على كافة ممتلكات الأختين «بهدف حماية وسائل التعويض على الضحايا».
أصيبت آركانخيلا بحالة إغماء عندما علمت بالخبر.
- يريدون أن ينتزعوا منا ممتلكاتنا! - قالت عندما استعادت الوعي.
وظهرت في الصحف وهي تمسك بقضبان القفص الحديدية، كمن تريد تحطيمها. «متسببة بموت ستة أشخاص ولا تفكر إلا بممتلكاتها»، هذا ما يقوله الكلام الذي تحت الصورة.
وبالنظر إلى أن المدافع عن المتهمتين لم يبدِ ما يشير إلى أنه على قيد الحياة، قام القاضي بيرالتا بتعيين المجاز خيديون سيسبيديس كي يتولى مسؤولية الدفاع عنهما.
بعد التشاور مع موكلتيه، أجرت الصحف مقابلة مع المجاز.
- لا تسيئوا تفسير كلامي - قال -. إنني أدافع عن هاتين المرأتين لأن هذا هو واجبي، حيث أن الدفاع والمحاماة مهنتي. ولكنني لستُ متفقًا معهما. بل على العكس، أعتقد أنهما تستحقان عقوبة الإعدام، وهي عقوبة غير موجودة في ولاية بلان دي آباخو.

3

«... كانت ممنوعة من الخروج، ولم يكن يُقدم إليها أي طعام تقريبًا، وفي إحدى المناسبات، عندما فعلت هي وثلاث من رفيقاتها شيئًا لم يَبدُ لائقًا للسيدتين، حُبست النساء الأربع في غرفة حيث دخلت عليهن سيرافينا وقالت لصاحبة هذا التصريح: «خذي هذه العصا واضربي بها الثلاث الأخريات. وإذا رأيتُ أنك لا تضربين بقوة، فسوف أضربك أنا». (وعرضت الكدمات)».
«... رأى كيف فتحت السيدة آركانخيلا بالادرو الحزمة التي على المنضدة. فظهرت البندقية. وقالت المذكورة عندئذ الكلمات التالية: «هذه البندقية، إنني أتركها لك هنا لتدافع عن نفسك إذا ما حاول أحدهم سرقة الأبقار»».
«... السيدة آركانخيلا بالادرو نفسها قالت له في مناسبة أخرى: «سأترك

لديك هنا أربع نساء، اهتم بهن جيدًا. إذا ما رأيتَ أن إحداهن تريد الهروب، اضربها بالبندقية التي أعطيتك إياها لحماية الأبقار». ولهذا يقول صاحب الإقرار إنه عندما أطلق النار لم يفعل سوى إطاعة الأوامر».

حول جرم النقيب بيدويّا:

«بينما كانت المُصرحة ومعها نساء أخريات يغسلن الملابس في المغسل، رأت دخول النقيب بيدويّا إلى الفناء وتوجهه نحو السور الذي في العمق، وكان يفك أزرار بنطاله بنية التبول، لكنه توقف فجأة وظل ينظر إلى حزمة موجودة تحت شجرة الليمون. «ما هذا» سألهن، فأجبنه، «إنها بلانكا»، فبدا الانزعاج على النقيب وقال للسيدة سيرافينا، «قولي لتيتشو أن يحمل بلانكا هذه الليلة، ويأخذها إلى أطراف القرية ويتركها في المزابل لتأكلها الكلاب»».

«... رأتْ النقيب بيدويّا يقطع قضبانًا من شجيرة كثيفة في الفناء ويجربها على راحة يده ليرى أي تلك القضبان يضرب بشدة أكبر...».

«... في أثناء إعداد المائدة سمعتْ النقيب يقول للسيدة سيرافينا: «هؤلاء النسوة اللاتي يعشن هنا لم يعدن ينفعن، صارت لحومهن مترهلة جدًّا. من أجل أن يتقبلهن أحدهم لا بد من خلطهن بتتبيلة فلفل حار وتقديمهن بعد ذلك في شطائر...».

«... ليس لديها أدنى شك في أن النقيب بيدويّا كان عشيق سيرافينا بالادرو وأنه كان ينام معها أحيانًا، ففي مناسبات عديدة تولت المتكلمة إعداد مائدة غرفة الطعام ورأت كيف أن النقيب المذكور كان يخلع حزامه بعد العشاء...».

«... في صباح كل يوم يتناول النقيب على الفطور بيضة، كنَّ يرينها تُحمل إليه...». هذا التصريح وتصريحات أخرى مشابهة أفادت القاضي بيرالتا ليوجه إلى النقيب تهمة المتواطئ والمدبر الفكري للجرائم المتراكمة. «سخرية».

التهم ضد كالافيرا:

«... عند وصولهن إلى مزرعة لوس آنخيليس، مرضت امرأة تدعى روسا ن وقد رأت مقدمة هذا الإقرار أن المرأة التي تحمل الاسم الخبيث كالافيرا[2]، تقترب من المريضة وتقول لها، «سأصنع لك شاي زعتر»، وذهبت بعد ذلك إلى المجمر ووضعتْ عليه ماءً ليغلي، وألقت فيه عدة مكونات لا تدري مقدمة الإفادة ما هي، ثم رأتْ المدعوة كالافيرا تسكب ذلك الشاي في فنجان كبير وتعطيه للمريضة لتشربه، وقد ماتت المرأة خلال ساعات قليلة ودُفنت في الحفرة التي حفرها المدعو تيتشو».

«... هي نفسها - كالافيرا - يمكنها الخروج إلى الشارع ونحن لا نستطيع، هي تصنع الطعام ونحن غير مسموح لنا بمجرد إشعال نار...» «... هي - كالافيرا - من جعلت بلانكا تشرب الكوكا كولا التي قتلتها...». لا توجد أي إشارة في ملف القضية إلى محاولة قامت بها أربع نساء لدفن كالافيرا حية في المرحاض القديم.

التهم ضد إسكاليرا:

«... عندما كانت الاستعدادات جارية لنقلهن من سان بيدرو دي لاس كورينتيس إلى كونثيبثيون دي رويث، جلست صاحبة هذه الأقوال وامرأة أخرى

إلى جانب السائق الملقب إسكاليرا، الذي فتح الباب في الجانب الذي تجلسان فيه وقال: «يوجد متسع لحضرتك هنا أيها النقيب، تفضل بالجلوس»، وجلس النقيب ضاغطاً المرأتين اللتين شعرتا كما لو أنهما تختنقان، وتقول صاحبة الإقرار إنها قالت: «أحس أن عظامي تتكسر»، ولم يهتم بقولها أحد».

المقطع السابق يُثبت أن إسكاليرا قد خرق قوانين المرور في ولاية بلان دي آباخو من ناحيتين: نقل ركاب في ظروف تعرض صحتهم للخطر، ونقل مومسات عبر أراضي ولاية تحظر فيها الدعارة. أقوال سيمون كورونا - الفصل الثاني - تفسح مجالًا للشك في أنه قد نقل جثثًا في سيارته.

إلى آخره.

في اليوم الخامس من أيام المحاكمة، طلبت آورورا باوتيستا من القاضي أن يسمح لها بتعديل أقوالها بالطريقة التالية: فحيث تقول «تجريان حسابات كل شهر وتحسمان النفقات من النقود التي نكسبها، ولكنهما خلال السنة الأخيرة، لم تجريا حسابات ولم تقدما سنتًا واحدًا...» تريد أن يصبح قولها: «تجريان حسابات كل شهر، ولكنهما لم تقدما سِنتًا واحدًا قطّ...».

وحيث تقول «عندما وصلت للعمل في بيت الطاحونة، كانت في التاسعة عشرة من العمر»، تصبح «لا تتذكر جيدًا كم كان عمرها، ولكن يبدو أنه كان ست عشرة سنة».

وتطلب كذلك، كما تقول في المحضر، إضافة ما يلي: «إنها رأت الأختين سيرافينا وآركانخيلا بالادرو تدفعان امرأتين سقطتا عن الشرفة في ١٤ أيلول/ سبتمبر».

4

ظهر الخبر الأول عن قضية الأختين بالادرو في الصفحة ٨ من جريدة «سول دي آباخو»، في قسم ثابت عنوانه «أخبار كونثيبثيون دي رويث». عندما عُلم أن الجثث الثلاث التي عُثر عليها هي لنساء شابات وأن المكان الذي عُثر على جثثهن فيه كان ماخورًا، انتقل الخبر إلى الصفحة الأولى في كافة جرائد البلاد. وفي اليوم الثالث، علم جمهور واسع ومتابع بخبر اكتشاف ثلاث جثث أخرى في مزرعة لوس آنخيليس.

غصت كونثيبثيون دي رويث بصحفيين ومصورين وفضوليين. وعند إعادة بناء الوقائع، أحصى القاضي بيرالتا ١١٩ شخصًا لا يوجد أي مسوغ لحضورهم. خلال المواجهة بين سيرافينا بالادرو وآورورا باوتيستا - حيث تبادلت المرأتان كلتاهما الشتائم ووصفت كل منهما الأخرى بالكاذبة - حدث ذلك أمام عدسات ثلاث وعشرين آلة تصوير. وبناء على طلب مصوري الصحافة، اصطفت الضحايا - وكن تسع نساء حتى ذلك الحين - متخذات وضع القرفصاء في الفناء وبأذرع متقاطعة، ممسكات بأحجار مشابهة لتلك التي كان النقيب بيدويّا قد اختارها.

الصحفيون والجمهور بصورة عامة كانوا يودون العثور على مزيد من الجثث. وقد أثر هذا الاهتمام على تفهم القصة. فتصريح سيمون كورونا، على سبيل

المثال، الذي يقول فيه إنه ساعد الأختين بالادرو على نقل جثة إلى سلسلة الجبال في العام ١٩٦٠، أسس لفكرة أن الأختين بالادرو كانتا تشتغلان في قتل نساء والإلقاء بجثثهن على جوانب الطرق العامة أو دفنهن في أحد أركان الفناء. وقد حاولت الضحايا شحذ ذاكرتهن، فظهرت في الصحف شهادات مثل هذه: «أتذكر امرأة تدعى باتريسيا عملت بضعة أيام في «المكسيكو ليندو»، وقد اختفت دون أن يعرف أحد بعد ذلك أي خبر عنها»...إلخ. أمرت سلطات سان بيدرو دي لاس كورينتيس أن ترفع أرضية «المكسيكو ليندو» لرؤية إن كانت هنالك جثث مدفونة: لم يُعثر على شيء. وفي مكاتب تحرير جريدة «سول دي آباخو» استُقبلت أكثر من ثلاثين رسالة من ربات أسر فقدن الاتصال بواحدة أو أكثر من بناتهن، ولديهن شكوك بأن يكن في بيوت دعارة ويطلبن من مدير الجريدة أن يخبرهن إذا ما كان بين الجثث أو بين الضحايا الأحياء من تشبه الصورة المرفقة.

المحاولة الأخيرة للعثور على مزيد من الجثث قام به المفتش كويتو. أخرج من السجن، ترافقه حراسة، خمسة من المتهمين: النقيب بيدويّا، وإسكاليرا، وتيوفيلو بينتو، وتيتشو والشجاع نيكولاس واقتادهم إلى كازينو الدانسون. جمعهم في الكباريه وأعطاهم رفوشًا ومعاول. أمرهم بأن يحفروا في منتصف حلبة الرقص، مع تنبيههم إلى أنهم لن يوقفوا العمل إلا بعد عدم عثورهم على أية جثة. (كانت نيته عند إصدار هذا الأمر، كما أوضح المفتش للصحفيين، هو دفع أحد المتهمين إلى الاعتراف أين توجد جثة، بدلًا من مواصلة النبش خبط عشواء، حيث يعلم أنه لا يوجد أي شيء). ولأن أحدًا من المتهمين لم يعترف، فقد قام الخمسة بالحفر خلال ثلاثة أيام كاملة، في الكباريه أول الأمر - حيث خلفوا الحفرة التي مازال بالإمكان رؤيتها حتى تاريخه - في مكان اختاره المفتش كويتو بصورة اعتباطية.

5

وجد القاضي بيرالتا أن «سيرافينا بالادرو وآخرين» مذنبون في جرائم: قَتْل من الدرجة الأولى، قتل بسبب انعدام المسؤولية، الحرمان غير الشرعي من الحرية، سوء المعاملة الجسدية والأخلاقية، الامتلاك غير الشرعي لأسلحة نارية، نقل غير مشروع للأسلحة المذكورة، التهديد بها، إفساد لقاصرات، احتراف الدعارة، حرمان طرف ثالث من مداخيله، التدليس، الاحتلال غير المشروع لمنشأة مصادرة، خرق لقوانين الدفن، خرق قوانين المرور الاتحادية وقوانين الولاية، وإخفاء ممتلكات.

وفي النتيجة، أصدر القاضي حكمًا: على سيرافينا وآركانخيلا بالادرو، لكونهما مسؤولتين عن جرائم متراكمة، بالسجن لخمس وثلاثين سنة؛ والنقيب بيدويّا لكونه متواطئًا والمدبر الفكري للجرائم المذكورة أعلاه، السجن لخمسة وعشرين عامًا؛ وحُكم على كالافيرا، بعشرين عامًا لجريمة قتل من الدرجة الأولى - مقتل روسا ن - وموت ضحية أخرى بسبب الاهمال وعدم

المسؤولية - موت بلانكا -؛ والحكم على تيوفيلو بينتو بالسجن عشرين عامًا لارتكابه جريمتي قتل من الدرجة الأولى؛ وعلى زوجته إولاليا بالسجن خمسة عشر عامًا لأنها انتزعت البندقية المعلقة على الجدار وأعطتها لزوجها؛ وحُكم على تيتشو بالسجن سنتين، لأنه خرق قوانين المرور ولتورطه في جرائم متراكمة؛ وعلى إسكاليرا بالسجن ست سنوات لخرقه قوانين المرور والتواطؤ في جرائم،... إلخ.

وقرر القاضي بيرالتا أن تباع الممتلكات المصادرة من الأختين بالادرو لجمع مبلغ كاف ودفع تعويضات نظمها هو بنفسه في جدول. وهذا مثال عنها.

حساب تعويض بلانكا ن:

عن بند أجور مستحقة ولم تتلقها (تحسب عشر سنوات عمل بما يقدر ٣٠٠ بيزو شهريًا، راتب الحد الأدنى)

٣٦,٠٠٠.٠٠

بند الفوائد المؤجلة ١٨,٠٠٠.٠٠

بند وفاة العاملة ١٠,٠٠٠.٠٠

المجموع ٦٤,٠٠٠.٠٠

يظل هذا المبلغ مودعًا في المحكمة، تحت تصرف من يأتي ليطالب به، ويكون قادرًا على إثبات أنه الوريث الشرعي للمتوفاة. (لم يطالب به أحد).

كالافيرا تعني جمجمة.

6

في اليوم الذي سلَّم فيه القاضي بيرالتا نقود التعويضات إلى الضحايا التسع الناجيات، جرى حدث كبير في فناء المحكمة. تم تصوير النساء، وتلقين في البدء الشيكات، وبعد ذلك تناولن الطعام، وأخيرًا، ركعن في كنيسة أبرشية كونثيبثيون دي رويث، وقدمن الشكر للرب لأنه أتاح لهن الخروج على قيد الحياة من ذلك الوضع الحرج. وبعد أن أنهين صلاتهن وغادر المصورون، تبادلت النسوة الوداع عند بوابة المعبد وذهبت كل واحدة منهن في طريق مختلف. كان الوقت غروبًا. ولن يعرف أحد أي شيء **عنهن بعد ذلك.**

١٨
خـاتمـة

استعاد سيمون كورونا عافيته تمامًا من طعنة سكين وجهها إليه أحدهم، وأكمل محكوميته في أحد سجون ولاية ميسكالا، حيث تميز بسلوكه المثالي، وعند إطلاق سراحه رجع إلى سالتو ديلا توكسبانا، وفتح مخبزًا وهو يعيش هناك سعيدًا. أحد المحرَّرِين الآخرين من السجن هو الشجاع نيكولاس، ويعمل الآن حذّاءً - مهنة تعلمها في السجن -، وكذلك تيتشو الذي يعمل حمّالًا في مستودع الإخوة باراخاس، أما إسكاليرا فرجع إلى مهنته القديمة، وهو يملك الآن أسطولًا من سيارات الأجرة في سان بيدرو دي لاس كورينتيس - اشتراها، كما تقول ألسنة السوء بنقود أعطته إياها آركانخيلا.

وفي السجن، كسب تيوفيلو بينتان ثروة من ألعاب الكونكان، ثم خسرها كلها بعد ذلك. أما إولاليا التي ظلت حرة، فتبيع حلوى جوز هند تصنعها بنفسها. النقيب بيدويّا مازال في سجن بيدرونيس، حيث صار مسؤولًا عن أحد عنابر السجن ويحظى باحترام كبير من الحراس والسجناء على السواء. أما الأختان بالادرو فما زالتا في سجن النساء، حيث لا أمل لهما في الخروج وهما على قيد الحياة. تدير سيرافينا في السجن تجارة بيع مرطبات - بأسعار باهظة جدًّا -، وآركانخيلا تبيع مأكولات تطبخها لها كالافيرا. وكلتاهما مرابيتان ورأسمالهما، حسب تقديرات السجينات، يصل إلى مئة ألف بيزو.

مـلاحــق

١: قصة حياة تيتشو كما يرويها هو نفسه.

عندما كنت صغيرًا كان الأطفال الآخرون يخافونني. أرسلني أبواي إلى المدرسة، ولكن المعلمة قالت إنني كبير جدًّا ومن الممكن أن أكون مثالًا سيئًا. كلفوني بتحميل أحجار، وأكياس دقيق، وأكياس إسمنت. ذات مساء عانقت أحد أصدقائي وعندما أفلته سقط متهاويًا على الأرض. من رأوا ما حدث قالوا إنني قتلته. ولهذا اقتادوني إلى السجن. وفي السجن، كلفوني بحمل الحجارة من جديد. وذات يوم توفي المكلف بحمل الموتى في المستشفى، فذهب الطبيب إلى السجن بحثًا عمن يقوم بهذا العمل. أرسل مدير السجن في طلبي وقال لي: «اذهب مع هذا السيد». عشر سنوات أمضيتها في حمل الموتى من مكان إلى آخر إلى أن قال لي الدكتور ذات صباح: «صار بإمكانك الذهاب»، وفتح باب المستشفى. خرجتُ إلى الشارع وبدأت المشي. وصلت إلى سكة القطار ورحت أتابعها. كنت أمشي في الليل لأن القمر كان موجودًا. وفي النهار أستلقي في حفرة وأنام. وعندما أرى بيتًا، أقترب من المطبخ - الكلاب لا تنبح عليّ -، أطلُّ وأقول للنساء اللاتي يكنّ في الداخل، «إنني جائع»، فيشعرن بالخوف ويعطينني طعامًا. وعندما أصل إلى القرى أطلب صدقات، ولكن لم يكن هناك من يمنحني صدقة. ذات يوم غلبني النعاس ونمت على مقعد موجود خارج السوق، وعندما فتحت عيني كانت دونيا آركانخيلا تنظر إليّ. وكان معها فتاتان تحملان سلالًا. قالت لي دونيا آركانخيلا:

- أنت ضخم جدًّا، مظهرك قبيح جدًّا وتبدو جلفًا جدًّا. سأقدم لك عملًا ينال إعجابك.

ضحكت الفتاتان.

منذ ذلك اليوم صرتُ حارس منضدة القمار في الماخور.

٢: شهادة المتهتك.

يقول إن ما كان يدفعه للذهاب بكثرة إلى «**المكسيكو ليندو**» هو الفضول الثقافي. يصف عدة نساء بارزات ممن عرفهن في ذلك المكان. واحدة منهن، كانت تخلع ملابسها أربع أو خمس مرات كل ليلة، وتفعل ذلك بحياء على الدوام وهي تقول إنها لم تظهر عارية أمام رجل قطّ. واحدة أخرى مارست علاقة جنسية مع الراوي في أكثر من عشرين مناسبة ولم تتعرف عليه أبدًا. وامرأة أخرى كانت تروي على الدوام القصة نفسها: تلقتْ للتو برقية تخبرها أن أمها مريضة ويجب أن تسرع في إرسال نقود، الخ.

الجزء الأكثر إثارة من زياراتي - يقول المتهتك - هو الأحاديث التي كانت تدور دومًا بيني وبين دونيا آركانخيلا، وكنت أجلس إلى منضدتها. لقد كانت فيلسوفة. فهي تعتقد، على سبيل المثال، أننا عندما نموت، تظل أرواحنا

طافية في الجو لبعض الوقت، معلقة بالذكرى التي خلفناها في أذهان من عرفونا. فالذكرى السيئة تعذب الروح، والذكرى الطيبة تبعث فيها المتعة. وعندما ينسى الجميع المتوفى، أو يموت جميع من عرفوه، تتلاشى الروح.

٣: **يقول بطل الجودو.**

كان ضمن المنتخب الذي سيمثل القطاع الفيدرالي في بطولة البلدان الأمريكية بالجودو التي أقيمت في مدينة بيدرونيس عام ١٩٥٨. (يصف التسهيلات التي قُدمت إليهم، وانطباعاتهم عن المدينة، والطريقة التي تمت بها تصفية فريق القطاع الفيدرالي من الجولة الأولى. في تلك الليلة ذهب هو ورفاقه إلى بيت الطاحونة). عندما علمت الفتيات أننا فريق الجودو للقطاع الفيدرالي، تجمعن على منضدتنا وطلبن منا توقيع أتوغرافات. وجاءت صاحبة المحل (سيرافينا) لتصافحنا، وأمرت بأن تعلق حول أعناقنا أطواق أزهار ورقية وأن يُقدم لنا كأس شراب على حساب المحل.

- أرفع نخب فوزكم أيها الشباب - قالت لنا.

لم نجد نَفَسًا لنقول لها إننا قد خرجنا من التصفية وانتهينا. (ويصف المكان، عاقدًا مقارنة بين مومسات القطاع الفيدرالي ومومسات بيدرونيس، ويجد أن هؤلاء الأخيرات أوفر كلفة وأكثر صدقًا من أولئك، ويروي تجربته مع امرأة تدعى مجدلينا ويتحسر في النهاية لأن بيت الطاحونة جرى إغلاقه قبل أن تتاح له الفرصة لزيارته مرة أخرى).

٤: **شهادة دون غوستافو إرنانديث.**

اسألوني أنا: ما الذي يمكن أن يفعله في ليالي كل أيام السبت رجلٌ لديه زوجة وعدة بنات، ويعيش معهن سعيدًا؟ لا أدري كيف أرد على السؤال، ولكن هذا هو ما كنتُ عليه. كنتُ كالغائب عن الوعي. ففي كل سبت، ما إن تدق ساعة الأبرشية معلنة التاسعة حتى أغلق متجري لأدوات الخياطة وأتوجه إلى «**المكسيكو ليندو**». في اللحظة التي أدخل فيها ذلك المكان يبدو لي كل شيء جميلًا: الديكور، النساء، الموسيقى. لقد فعلتُ هناك كل شيء: رقصت، شربت، تبادلت الحديث، ولم تفلت مني أي واحدة من النساء الـ ٥٧ أو ٦٠ اللاتي مررن من هناك.

كنت أرجع إلى بيتي مع بزوغ ضوء الشمس تقريبًا. «أين كنت؟»، تسألني زوجتي. «في اجتماع لجمعية العمل الكاثوليكي». لم تكن تصدقني قطّ. وكانت ترتاب طيلة سنوات بأن لي عشيقة. لم تكن تدري أنني لم أخنها مع واحدة، وإنما مع ثلاث وأربعين امرأة.

كانت دونيا آركانخيلا تقول لي:

- لا تحرم نفسك من أي شيء يا دون غوستافو. وعندما لا يكون معك نقود، يكفي توقيعك. فأنت بالنسبة لي موثوق مثل مصرف المكسيك.

هذه الكلمات كانت سبب سقوطي وانهياري. ففي صباح أحد الأيام جاء إلى متجري المجاز ريندون. وكان يحمل في ملف أوراقًا تحمل توقيعي ويبلغ مجموعها أكثر من أربعة عشر ألف بيزو. وكان يريد أن يعرف متى سأتمكن من تسديد المبلغ.

استولت دونيا آركانخيلا على متجري، ولكن الرعب الذي أصابني أدى إلى شفائي من تلك الرذيلة ولم أعد أشعر بإغراء وضع قدمي في ماخور. وأنا الآن أعيش سعيدًا مع أسرتي.

٥: الصورة.

١: آركانخيلا بالادرو.
٢: كالافيرا.
٣: سيرافينا بالادرو.
٤: بلانكا (ماتت في ١٧ تموز/يوليو).
٥: إيفيتا (ماتت في ١٤ أيلول/سبتمبر).
٦: فيليثا (مثل السابقة).
٧: روسا (ماتت في ١٥ كانون الثاني/يناير).
٨: مارتا (لم يتسع لها المرحاض).
٩: آورورا باوتيستا (حصلت على تعويضات).
١٠: إحدى المرأتين اللتين قتلهما تيوفيلو بينتو.

٦: كتاب آركانخيلا.

عُثر على كتاب آركانخيلا في غرفتها في كازينو الدانسون.

يقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام. في القسم الأول تظهر حالة الحسابات الأسبوعية للموظفات، وقد جرى تقديم توصيف لها في الفصل رقم ٩.

القسم الثاني بعنوان: زبائن مدينون. وفيه تظهر أسماء أكثر الأشخاص احترامًا ووقارًا في سان بيدرو دي كورييِنتس، مع تواريخ القسائم، والفوائد بنسبة عشرة بالمئة شهريًّا، وقسائم حسابات، الخ... وجميع الحسابات مسددة.

القسم الثالث من الكتاب يحمل عنوان مدفوعات. وهو ما كانت تدفعه آركانخيلا للسلطات لتظل في حالة سلام مع البلدية. فهناك مثلًا: عشرة بيزوات يوميًّا لرجال الشرطة المناوبين في الموقع، وستون بيزو يوميًّا لرئيس البلدية، وستون بيزو أخرى لمفتش الشرطة، إلخ....

خورخي إيبارغوينغويتيا: بلزاك بحس سخرية طيب

بقلم: خوان بييّورو

ولد خورخي إيبارغوينغويتيا في العام ١٩٢٨، عام اغتيال الجنرال ألبارو أوبريغون. ويشير هذا التاريخ أيضًا إلى نهاية الثورة المكسيكية. فالزعيم الذي هَزَمَ قوات بانتشو بييّا، دشَّن حقبة الحكومات المدنية التي انبثقت من الصراع المسلح. ففي شهر تموز/يوليو ١٩٢٨ جرى انتخاب الرئيس، وكان أحد محاور سياسته يقوم على فصل الكنيسة عن الدولة، مع توجهات يعقوبية بارزة.

أراد الكاثوليكي خوسيه ليون تورال الحيلولة دون ولاية رئاسية ثانية تعتدي على الإيمان. فأقدم، بحماية من المجلس الذي يؤمن بأنه يتلقى الإلهام من الروح القدس، على اغتيال الرئيس خلال مأدبة على شرف أوبريغون في مطعم «لابومبيا» (المصباح)، جنوبي مدينة مكسيكو.

لدى مراجعته تلك الأحداث، فوجئ إيبارغوينغويتيا بتفصيلين اثنين: القاتل حضر إلى موقع الحدث متنكرًا كرسام كاريكاتير، وكلمات الزعيم الأخيرة لم تكن بليغة وفخيمة بصورة تتناسب مع أسطورته، بل عَبَّرتْ عن نزوة: لقد طلب من النادل ألا يأتيه بتحلية، وإنما ببعض الفاصولياء.

المشهد يكثف جماليات خورخي إيبارغوينغويتيا: رسام كاريكاتير مزيف يقتل زعيمًا سياسيًّا متقلبًا وغريب الأطوار.

يتحدر ألبارو أوبريغون من ولاية سونورا، على الحدود مع الولايات المتحدة. وكان ينتمي إلى جماعة القادة البرغماتيين الذين حوَّلوا مطالب بانتشو بييّا وزاباتا الشعبية إلى ذريعة من أجل أن تحل البرجوازية الوطنية الوليدة محل مالكي الأراضي. سياسي بارع، ينعم بتأييد شعبي لمن جازف بحياته في سبيل مثله العليا. كان من السهل التعرف عليه لأنه أبتر فقدَ إحدى ذراعيه في ميدان المعركة. وأثناء إقامة الكاتب الإسباني رامون دل بايي إنكلان في المكسيك، كانا يجلسان في مقعدين متجاورين في المسرح. وعندما يحين موعد التصفيق، يستخدم كل منهما ذراعه الوحيدة كي يتوصلا إلى تصفيق مشترك.

سيهتم إيبارغوينغويتيا بالحدث ليس فقط لأنه جرى في سنة ميلاده (وهو أمر يشترك به في الحقيقة مع كارلوس فوينتس)، وإنما لأنه يمزج بصورة كاشفة بين ما هو عام وما هو خاص.

في «القنفذ والثعلب»، يعلق أشعيا برلين أنه في اللحظات التاريخية لا تقتصر أعمال مشاهير الرجال على إنجاز أمور تاريخية فقط. فالحياة الحميمة تتواصل مختلطة ومتدفقة، وسط المآثر الكبرى، مثلما أثبت تولستوي في وصفه لمعركة بوروندينو.

إيبارغوينغويتيا يبالغ في هذه الحالة إلى حدود قصوى. فبالنسبة لشخصياته التاريخية، تكون الدوافع الخاصة، على الدوام، أقوى من الواجبات التمدنية. وما

يسمى «المُثل الوطنية» هي تسمية ديماغوجية للمصالح الشخصية.
لقد تناول مارتين لويس غوثمان وخوان رولفو وكارلوس فوينتس، بصورة نقدية، موضوعات الثورة المكسيكية. ومع ذلك، عند روايتها من خلال رؤية تراجيدية، يوحون إلينا بأن تلك النكبات لم تكن خالية من العظمة. أما إيبارغوينغويتيا اللاذع وعديم الاحترام، فيقدِّر أن الحوادث الوطنية هي أعمال أوغاد توصلوا إلى مرادهم.
في ١٩٨٢ شارك بمناظرة قصيرة مع اللغوي أنطونيو آلاتوري في مجلة أوكتافيو باث «بويلتا»، حول طباعة رواية «**خطوات لوبيث**» (التي صدرت طبعتها الإسبانية الأولى بعنوان «المتآمرون»). ولخص فكرته عن الضريح الوطني: «تاريخنا قاتم، دموي ومازوشي بصورة عامة. أبطاله المفضلون هم من خسروا الحروب وماتوا بأوامر من المنتصر أيضًا. البطل المكسيكي من المرتبة الثانية يموت في الوقت غير المناسب في مكتبه؛ وبطل المرتبة الثالثة، ينتصر؛ وتصعد نشوة الانتصار إلى رأسه، ويقترف سلسلة من الأخطاء، فيفقد هيبته ويُعدم رميًا بالرصاص. أما الأنذال الكبار فيموتون في فراشهم مثلما هي حال كورتيس، بورفيريو دياث، وهويرتا. لو أن ماكسيميلانو [دي هابيسبورغ، الإمبراطور النمساوي الذي حكم المكسيك في القرن التاسع عشر] تمكن من الهروب لكان مملًّا. لقد مات رميًا بالرصاص وهو يوزع الإكراميات، ولهذا تتأجج في قلوب بعض المكسيكيين شعلة من شرفه. المرشحون الوحيدون ليكونوا أبطالًا - خلال أكثر من مئة عام من الممارسة - هم أناس ماتوا في حوادث طيران لا تفسير لها: مادراثو وشركاه يقارن هذه اللوحة بسيمون بوليفار: تجاوز حقبة المؤامرات حيًّا، وكسب الحرب، وقَسَّم أميركا الجنوبية جغرافيًّا ودشن سلالة عسكرية ظلت في السلطة في بلدان عديدة. إنها قصة نجاح في الجنوب يُعتبر الرقم واحد بين الأبطال؛ أما في المكسيك فهو أسوأ الأنذال».
سخرية إيبارغوينغويتيا المتحدية تأسر القراء وتُقلق راحة النقد، وهي مستعدة لتقبل طرح مسألة التاريخ الوطني على بساط البحث، على أن يتم ذلك بجدية صارمة. فمن السهل جدًّا، بالنسبة للثقافة السائدة، فهم أخطاء الماضي كمأساة كبرى، لأن ذلك أسهل بكثير من فهمها على أنها مجرد بلاهة.
تلقى إيبارغوينغويتيا تكوينه وتأهيله كمسرحي، لكنه قرر التحول إلى الرواية. كانت هناك في درج مكتبه أربعة أعمال مسرحية لم تُقدم كعروض على منصة. معلمه رودولفو أوسيغلي نبهه إلى أن عائقًا ضئيلًا يحول دون تقديمها: لا يوجد في واجهات المسارح المكسيكية متسع يكفي لحروف لقب شهرةٍ طويل جدًّا كما هو لقب أسرتك.
الانتقال من المسرح إلى الرواية يرسخ اهتمامه بالتاريخ. عمله المسرحي الأخير، «الاغتيال» (١٩٦٣)، يتناول اغتيال ألبارو أوبريغون، وروايته الأولى، «بروق آب» (١٩٦٤)، تتناول إحدى بلاهات الثورة المكسيكية (أحد أحداثها، واقعة «قطار الديناميت» الذي لا ينفجر، وهي مستقاة من مذكرات الجنرال

المنحدر من سونورا).

على الرغم من أن العملين قد استحقا في كوبا جائزة «كاسا دي لاس أميركاس» الدولية، وهي جائزة ذات دور حاسم في ترسيخ شهرة الأدب الهيسبانوأميركي في سنوات الستينيات، فقد نظر كثيرون إلى إيبارغوينغويتيا على أنه عميل محرض، مستعد للتلاعب بالمؤسسات الثلاث المقدسة في البلاد: الجيش، والرئيس وسيدتنا عذراء غوادالوبي.

إيتالو كالفينو الذي كان عضو هيئة تحكيم الجائزة التي مُنحت لرواية «بروق آب»، يقول إنه اختار الرواية باعتبارها استعادة حية للماضي. وطوال عقود شاركه القراء هذا الرأي. ومع ذلك، ظلت الأكاديمية تنظر إلى الكاتب بحذر. وظل إيبارغوينغويتيا، على امتداد مسيرته، ضحية هذا الخطأ. الاحتفاء بحس السخرية لديه دفع البعض إلى تصنيفه على أنه روائي «ممتع»، هذا يعني أنه شخص يسلي دون أن يكون عميقًا. وقد ردًّ هو نفسه على ذلك التوصيف بعبارة «إنه هازل: يجب خضه قبل الاستخدام» (يمكن قراءة مقالته هذه في كتاب «**ثورة في الحديقة**»، وهي مجموعة نصوص صحفية قمت بإعدادها عام ٢٠٠٨ لمطبوعات رين ودي ريدوندا التي يشرف عليها الكاتب الإسباني خابيير مارياس).

أحد الملامح السائدة في الثقافة الشعبية المكسيكية هو حس الفكاهة. ففي السينما، شكل «كانتنفلاس» و«تين تان» أيقونتي فتى الضواحي «المفلس» الذي يتكلم بلا توقف دون أن يكون هناك من يفهمه، و«المهلهل» الذي يخلط في حديثه كلمات إسبانية بأخرى إنجليزية. المثير للفضول أن الأدب تأخر طويلًا في الاستفادة من هذه الموارد الشعبية.

في العام ١٩٦٦، في مقدمة مختاراته الموسعة جدًّا من **الشعر المكسيكي في القرن العشرين**، يؤكد كارلوس مونسيبايس أن المادة الكبرى المرتبطة بأدبنا هي حس الفكاهة والسخرية.

لقد برز إيبارغوينغويتيا في الآداب المكسيكية كحالة استثنائية صحية في محيط يتجاوز الوقار من خلال التفجع (**بيدرو بارامو**، أو **موت بلا نهاية** أو **متاهة العزلة** هي أمثلة بليغة)، ونادرًا ما كان يجري الاهتمام بالسخرية أو تحويل الجد إلى هزل.

ولشدة إعجابه بعظماء الساخرين الإنجليز (وعلى رأسهم إيفلين ووه)، قرر إيبارغوينغويتيا السخرية من كل أنواع السلطة ومن النصب والتماثيل. وقد تولى، بطريقة ما، المهمة التي تركها قاتل ألبارو أوبريغون معلقة في تلك المأدبة البعيدة: فكان رسام كاريكاتير الأبطال.

هذا الدافع يُلحظ في روايتيه الأوليين، «بروق آب» و«اقتلوا الأسد» (١٩٦٩)، وهي إعادة صياغة سردية لسيناريو سينمائي حول دكتاتور تروبيكالي.

في مشهد الاغتيال الزخم الذي لا ينضب بمطعم «لابومبيا»، يتبلور كذلك موضوع آخر يحظى باهتمام المؤلف: التعصب الديني. فإيبارغوينغويتيا المولود في غواناخواتو، إحدى أشد المدن تزمتًّا كاثوليكيًّا في المكسيك، سيكون مؤرخ النفاق الريفي في المبالغة بتصنع الحشمة والحياء؛ بالنظرة نفسها

التي ندد بها بالسياسيين الذين جمعوا ثروات باسم قضايا شعبية، كاشفًا بذلك الازدواجية الأخلاقية لأولئك «الأشخاص الوقورين».

السخرية تستند إلى التزام أخلاقي: تسخيف الواقع وجعله مضحكًا لتجاوز أخطائه. ليس في محاولة لإنكار الوسط المحيط، وإنما لتقبله بطريقة نقدية. وهذا هو ما فعله إيبارغوينغويتيا في أعماله المسرحية، ومقالاته، وكتاباته الصحفية ورواياته حتى وفاته في العام ١٩٨٣، عند وقوع حادثة طائرة أفيانكا (شركة الطيران الكولومبية) في مطار باراخاس المدريدي.

منذ ذلك الحين توالت دون توقف إعادة طباعة أعماله. أما تقييمه ككاتب مقالات فكان أبطأ. في العام ١٩٩٨، قمت أنا وفيكتور ديات أرثينييغا بإعداد الطبعة المحققة لاثنين من أعماله، «**الاغتيال**» و«**بروق آب**»، لسلسلة «أرشيف» التي تصدرها اليونسكو. أنهينا العمل في ٢٠٠٢. وخلال تلك العملية، تأكدنا من غياب الدراسات والمقالات والأبحاث الأكاديمية وحتى البيانات البيبلوغرافية حول واحد من أوسع وأفضل الكتاب المقروئين في المكسيك. وضع غريب يلفت الانتباه: مؤلف مركزي بلا دارسين يحيطون به. بعد ظهور ذلك المجلد، اتسع الاستقبال النقدي لإيبارغوينغويتيا وصار أكثر تحديدًا ودقة، ولكنه مازال ينتظر نتائجه الأفضل.

لقد كان هذا الكاتب الغواناخواتي طائرًا نادرًا في جمهورية آدابنا. درس الهندسة وأشرف لبعض الوقت على إدارة مزرعة لأسرته. أي أنه كاتب يتقن أمورًا عملية. في سنوات الستينيات كانت هذه المهارة العملية شائعة بين الكتّاب الأمريكيين الشماليين، المهتمين بما هو خارجي، بالمظاهر المحتملة للحدث والطريقة التي تُعرّف بها الشخصية نفسها من خلال عملها، ولكن ذلك لم يكن شائعًا بين الكتّاب المكسيكيين الذين هم أكثر ميلًا إلى التأمل الباطني ومغامرات الوعي، مثلما تكشف عنه روايات زملاء إيبارغوينغويتيا من الجيل نفسه (سلفادور إيلثوندو، وسيرخيو بيتول، وخوان غارسيا بونتي، وخوان بيسنتي ميلو).

في رواية «بروق آب» أو في «جريمتان» نتعرف على الشخصيات من خلال ما تفعله، لأن ما تقوله الشخصيات يبدو على الدوام تقريبًا مخالفًا ومناقضًا لما تفكر فيه. ونادرًا ما تكون هنالك شكوك، وحالات تردد، ومناجيات داخلية للنفس.

ولاهتمامه بوضوح النثر والاقتصاد في اللغة، يبني إيبارغوينغويتيا قصصًا بالخطوط الواضحة الصافية لمهندس يرسم مخططًا. تقاطعاته ترتبط بمشكلات موضوعية ومحددة. وهو يكرس، في معظم الأحيان، مزيدًا من الوقت لتقدير إذا ما كان يمكن لحدث ما أن يحدث بتلك الطريقة التي صِيغ بها على الورق.

مهارته في الحوار قادته إلى المسرح، ولكنه لم يتحمل العراقيل التي يفرضها الواقع على كل عمل ولا عُصاب الجو المسرحي وبهرجاته. وفي وداعه ككاتب مسرحي، كتب: «لدي سهولة في كتابة الحوار، ولكن ليس لدي السهولة لدعمه من المسؤولين عن المسرح».

سخريته وصراحته أوقعتاه في خصام مع ثقافة وقورة تحافظ منذ أزمنة العهد

الاستعماري على تهذيب أساليب البروتوكول الباروكي. مقالاته في جريدة الاكسسيلسيور كانت تظهر مرتين كل أسبوع، محرضة على المتعة والجدال. مصدر آخر لدخله كان يتمثل في المحاضرات التي يوافق على تقديمها دون أن يفكر كثيرًا بموضوعها. ففي اليوم الموعود يخرج إلى الحديقة، يجلس على كرسي وينتظر الأشعة ما تحت الحمراء الآتية من الشمس كي تمنحه إلهامًا. ونادرًا ما كان يحدث ذلك. وحين يصل إلى القاعة، يرتجل طرائف بدقة رياضية، ويطلق ممازحات غير وقورة تؤدي أحيانًا إلى مناقشات حامية مع الجمهور.

إنه كاتب واسع الشعبية، مقروء جدًّا، وكان مزَّاحًا متسامحًا، وهذا شرط مقبول لكنه غير عادل لمؤلف أعمال ذات تأثير محسوب بدقة، حيث اللهو خاصية مميزة للذكاء. منذ ذلك الحين استحق الاعتراف العام الذي جاء موته، في لحظة كان يرسخ فيها مساره، ليبقيه معلقًا.

مشهد إيبارغوينغويتيا الكبير هو مدينة كويفانو المتخيلة، القائمة في ولاية بلان دي آباخو. وهذه ليست منطقة أسطورية مثلما هي **ماكوندو** غارسيا ماركيز، أو **كومالا** خوان رولفو أو **سانتا ماريا** خوان كارلوس أونيتي، وإنما هي مكان فولكلوري، يشبه بصورة مريبة مدينة غواناخواتو. وبشأن هذا الاختلاق يعلق بالقول: «أظن أن عملية تحلل «**هذه الأنقاض التي تراها**» جرت على هذا النحو تقريبًا: لدى محاولتي ذكر مدينة معروفة وحقيقية، شيدت في ذهني - وكذلك في الكتاب - مدينة أخرى متخيلة، مشابهة أو مكتفية بذاتها».

الدافع الأول للوصول إلى هذه الحبكة كان صورة تسلطت على ذهن الروائي: امرأة تقرأ في حديقةٍ رسائلَ من حبيبها، «حب قديم». المرأة هي أمه، والرجل الغائب، هو أبوه. لا شيء من هذا موجود في الكتاب، ولكنه أفاد كزناد قدح من أجل استحضار الحياة الريفية، المحكومة بالنمائم والتقولات، والشكوك والشبهات والغراميات المغدورة.

إحدى الاستراتيجيات الأكثر شيوعًا لتنشيط وإبراز البراعة الشخصية تتمثل في التشكيك بمهارة الآخرين. لقد كان الافتراء والمكيدة السلاحين المعهودين لدى «الناس الوقورين». وفي رواية «**هذه الأنقاض التي تراها**» (١٩٧٥)، يصل أستاذ آداب إلى كويفانو ويعلم بمصير غلوريا المحزن، فالبنت الجذابة جدًّا والعذراء افتراضيًّا تصاب بسكتة قلبية في هزتها الجنسية الأولى. وشيئًا فشيئًا يعرف البطل أن لا شيء هناك مثلما يبدو ظاهريًّا.

الكتاب الذي يضع مدينة كويفانو وإقليم بلان دي آباخو على الخريطة، نال جائزة الرواية في المكسيك. وقد وصفتْ لجنة التحكيم الكاتب وصفًا صائبًا بأنه «بلزاك بحس سخرية طيب». حبكة مفاجآت مكرسة لكشف اللثام عن مشاكل أخلاقية وإحداث مفعول متمرد للضحك.

«**هذه الأنقاض التي تراها**» تُثبت أن السخرية تستحوذ بصورة حميمة على ما تنتقده. الروائي الساخر لا يدمر الكائنات التي يسخر منها، بل يتفهم عيوبها ويتجاوزها وينهض بأعبائها بطريقة ما. فاختصاصه ليس التشهير البرّاق، وإنما السخرية الرحيمة القادرة على تفهم الخطأ، بل وحبه أيضًا.

وتتكرر هذه الموهبة الأخلاقية في «**جريمتان**» (١٩٧٩)، إحدى حبكات

إيبارغوينغويتيا الأكثر توفيقًا والأوسع حظّا. فالبطل فيها، مجددًا، هو دخيل على واقع راكد ظاهريًّا. إنه مديني يبحث عن ملاذ في الريف. وشيئًا فشيئًا، تكشف كويفانو عن ذرائع وحيل خبيثة ويدرك الراوي أن الساذج الوحيد في ذلك المكان هي نظرته وحدها؛ فتأخذ أحكامه المسبقة بالتبدد كلما توغل أكثر في كوميديا أخطاء لا تخلو من مجازفات ومخاطر.

ليس مصادفة أن أحد كتب التحقيقات الصحفية لإيبارغوينغويتيا يحمل عنوان «**أسرار الحياة اليومية**». فهو لم يجد الذهول في شيء أكثر مما وجده في ما هو يومي وعادي.

«**هذه الأنقاض التي تراها**» تقدم بصورة خاطفة النساء اللاتي يلعبن دور البطولة في رواية «**الميتات**» (١٩٧٧). فموضوع الـ «بوكيانتشيس» (لقب مديرتي أعمال الدعارة) يستثير اهتمام إيبارغوينغويتيا منذ ١٩٦٣، عندما قرأ أن الأختين غونثالث بالينثويلا قد اختطفتا ما يزيد على عشرين فتاة. الأختان غونثالث بالينثويلا انتقلتا برفقة مومساتهما من مدينة غواناخواتو إلى لاغوس دي مورينو، في ولاية خاليسكو، حيث كانت الدعارة مباحة، وعملتا هناك إلى أن جرى إغلاق ماخوريهما. وفي أثناء العملية مات ابن إحدى الأختين. رجعتا في سيارات مستأجرة إلى سان فرانسيسكو دل رينكون، بولاية غواناخواتو، وحبستا المومسات بينما هما تحاولان الحصول على ترخيص من أجل العودة إلى خاليسكو. ما بدأ بعمل تعسفي تحول إلى جريمة أسوأ. لم تكن الأختان غونثالث بالينثويلا تسمحان للبنات بالخروج، ولم تستدعيا طبيبًا عندما مرضت إحدى الفتيات، وكانت في وضع حرج.

عملية الاختطاف الجماعي فتنت الروائي. ففي منطقة ذات مظهر هادئ ومحافظ حدثت حبكة قصة هائلة الخسة أدت إلى الموت.

نال الموضوع اهتمام إيبارغوينغويتيا، لكنه تطلب منه تغييرًا في الأسلوب. لا يمكنه معالجة الموضوع بالنبرة الساخرة اللاهية التي في «**هذه الأنقاض التي تراها**» أو «**جريمتان**». تمكن من الحصول على نسخة من الملف القضائي، وكان يضم أكثر من ألف ورقة، فكتب في عام ١٩٦٤ تحقيقًا صحفيًّا حول الوقائع، وكان التحقيق مرتبطًا بصورة تامة بالحقيقة. وقد ظل هذا النص بين أوراقه لما يزيد عن عشر سنوات، إلى أن قرر تناوله كعمل تخييلي سردي. فكانت النتيجة رواية «**الميتات**» التي توائم ما بين استعادة الوقائع الصحافية والرؤية الذاتية للرواية. وعلى الرغم من وجود أشخاص أحياء ممن عاشوا تلك المأساة، فقد فضل إيبارغوينغويتيا العمل انطلاقًا من وثائق كي يحرر مخيلته.

نُشرت «**خطوات لوبيث**» عام ١٩٨١، ولكنها تعود إلى مشروع بعيد جدًّا، إلى العمل المسرحي «**المؤامرة المباعة**».

في العام ١٩٦٠، بهدف الاحتفال بمرور ١٥٠ عامًا على إعلان الاستقلال، كلفت دائرة المسرح في هيئة الفنون الجميلة عشرة مسرحيين بإنجاز عشرة أعمال مسرحية. كان إيبارغوينغويتيا يعرف أمورًا قليلة جدًّا تمضي بصورة سيئة بالقدر الذي تمضي به أحوال المسرح المدعوم حكوميًّا حول مآثر

وطنية. ومع ذلك، كان الكاتب يعاني من أزمة اقتصادية خانقة وافترض - مثلما حدث فعلًا - أن عمله لن يعرض على منصة مسرح. أضف إلى ذلك أنه كان يهتم على الدوام بالمظاهر المضحكة في التاريخ المكسيكي، فأضيف إلى دافع كتابة نص «غذائي» دافع اكتشاف الأبطال في حميميتهم المتشددة. وهكذا ظهرت هذه القطعة التي تخلو، حسب رأيه، من أي كشف. وفضلًا عن أمور أخرى، كان يزعجه الطابع الجبري للحبكة: «الكاهن هيدالغو يتكلم قليلًا ولكنه رؤيوي. فهو يقول، على سبيل المثال، إن من يبدؤون ثورة لا يتمكنون أبدًا من رؤية خاتمتها، ويُلمح إلى أنه سوف يموت رميًا بالرصاص».

في عمل تاريخي من الخطأ أن تعبر الشخوص بطريقة تبدو معها كما لو أنها قد قرأت الحدث مسبقًا. إيبارغوينغويتيا خفف هذا التأثير في الرواية التي كتبها بعد عشرين عامًا من ذلك، دون أن يستأصله بالكامل: «سيكون مستغربًا أن نتوصل إلى رؤية نهاية هذا العمل الذي بدأنا به»، يقول بيرنيون الذي يمثل دور هيدالغو.

السخرية هنا تقترب من الكاريكاتير. الشخصيات تحمل أسماء استراخان أو ثاراثويلا: وتتحول تسمية صنفين من الشمبانيا إلى لقبي البطل (بيرينيون) وراويته (شاندون) ويرافقهما المُجاز مانوبريو.

ما الذي يمكن أن يفعله روائي بمخطوطات مسرحية لم تصل قط إلى منصة العرض؟ «**خطوات لوبيث**» هي محاولة جنس أدبي الانتقام من جنس آخر. وتكون المحصلة تسلية مبهجة، استراحة لطيفة على طريق يشير إلى أقدار عليا.

بلان دي آباخو هي المنطقة المتخيلة الفسيحة التي تدور فيها أحداث هذه الروايات الأربع. الماضي الأساس للمنطقة يوجد في «**خطوات لوبيث**»، ومأساته القوية نجدها في «**الميتات**»، والضحك حتى تدمع العينان في «**هذه الأنقاض التي تراها**» و«**جريمتان**».

لقد اختلق خورخي إيبارغوينغويتيا مشاهد سعادة فريدة في بلاد تعاني، وفعل ذلك في أحيان كثيرة بأبهة احتفالية. فجرأته هي جرأة المنشق الذي يستمتع وسط الأزمة.

كل واحدة من رواياته وفيَّة لشعار إحدى خالاته في غواناخواتو: «الحياة أرادت لي أن أكون تعيسة، ولكنني لم أرغب في ذلك».

المحتويات

١الانتقامان 6
٢قضية إرنيستينا أو هيلدا أو إيلينا 11
٣حب قديم 19
٤بيدويّا يدخل 25
٥قصة البيوت 33
٦حادثتان وزلّة 42
٧حياة 48
٨الليلة المشؤومة 56
٩الحياة السرية 62
١٠قصة بلانكا 69
١١رؤى متعددة 78
١٢الرابع عشر من أيلول/سبتمبر 85
١٣القانون العرفي 92
١٤ما فعله تيوفيلو 99
١٥الريح الخبيثة 105
١٦مجيء الشرطة 112
١٧عدالة القاضي بيرالتا 118
١٨خاتمة 126
ملاحق 127
خورخي إيبارغوينغويتيا: بلزاك بحس سخرية طيببقلم: خوان بييّورو 130